د. لمياء مرتاض نفوسي

إشكاليّة التنظير
في العلوم الإنسانيّة





إشكالية التنظير

في العلوم الإنسانية

الطبعة الأولى 2021م / 1442هـ



دار المناهج للنشر والتوزيع

عمّان - وسط البلد - شارع الملك حسين

بناية الشركة المتحدة للتأمين - الطابق الأرضي

هاتف: 00 962 6 4650624

e-mail: manahej9@hotmail.com

Facebook: @DarAlMnahej

تصميم الغلاف: محمّد أيوب

Tel: 079 8789591

إشكالية التنظير

في العلوم الإنسانية

تأليف :

د. لمياء مرتاض نفوسي



المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة
٢٠٢٠/٦/١٦٠٣

٠٠١,٣
نفوسي، لمياء مرتاض
إشكالية التنظير في العلوم الإنسانيّة/ لمياء مرتاض نفوسي
عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠

( ) ص.
ر.إ. : ٢٠٢٠/٦/١٦٠٣
الواصفات: علم الاجتماع//الإعلام//الاتصال//البحث//العلوم الإنسانية/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه، ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الفهرست

الفصل الرابع

النظرية ماهيتها وظائفها وبناؤها

الفصل الخامس

التنظير في علم الاجتماع

الفصل السادس

التنظير في علوم الإعلام والاتصال

مقدمة

منذ العصور القديمة، حاول الإنسان أن يمنح تصورا عقلانيا للعالم الذي يحيط به. وقد منحت في تاريخ العلوم أهمية خاصة للعلوم النظرية. ثم جاءت فترة بدأ التفكير في تجاوز هذه العلوم والتأسيس لعلوم تجريبية لها قواعدها ومناهجها ومواضيعها ومشاكل تود حلها.

وجاء القرن التاسع عشر ليشهد ظهور أهم النظريات في العلوم الإنسانية التي ما زالت تدرس وتتبنى في الكثير من الأبحاث، لتعيش فترة ازدهار في القرن العشرين.

غير أنها تشهد اليوم جدلا عنيفا حولها ليعاد النظر في افتراضاتها أو في البعض منها، مما أدى إلى التفكير في نظريات ونماذج تقوم بتأويل ظواهر جديدة تبرز بين الحين والآخر، لا سيما الظواهر الاجتماعية والثقافية والاتصالية الجديدة، كنتاج للتغيرات التي تشهدها المجتمعات المختلفة، والتي تتطلب القيام بدراسة الظواهر التي تفرزها، عبر خلق نماذج تفسيرية جديدة.

كان بوسعي أن أقوم بتأليف كتاب حول نظريات علم الاجتماع وحتى آخر في نظريات علوم الإعلام والاتصال. بيد أنني لم أجد جدوى من القيام بذلك، إذ هنالك عشرات -إن لم نقل مئات- الكتب حول هذه المسألة، علما بأن النظريات في العلوم الإنسانية متعددة حيث يصعب عرضها برمتها. لذلك، أدعو الطلبة للتعرف على هذه النظريات بالاطلاع على المراجع الخاصة بها، من خلال كل تخصص على حدة. أضف

إلى ذلك، أنه ما كان يشغلني منذ فترة هو منح القارئ لمحة عامة عن ماهية النظرية وكيفية صياغتها، مبينة أهميتها في أي بحث جاد وصارم.

وكل حقل من الحقلين العلميين: سواء أتعلق الأمر بحقل علوم الطبيعة أو بحقل العلوم الإنسانية له أسسه الإبستمولوجية التي يعتمد عليها. بالتأكيد أن هناك نقاط تقاطع إبستمولوجية بين الحقلين الاثنين، بيد أن لكليهما بعض الخصوصيات. هذه الخصوصيات لا تقلل من مكانة النظرية في العلوم الإنسانية، بل تبين ببساطة أن للأخيرة منطقها الخاص في إجراءات البحث والتأويل.

يستهدف هذا الكتاب عرض إشكاليات مرتبطة بمسألة التنظير بشكل عام والتنظير في العلوم الإنسانية بشكل خاص، من خلال عرض خصوصية البحث في الأخيرة، إشكاليات وتساؤلات حول ماهية النظرية وكيفية بنائها وإسهامها في تطور المعرفة العلمية، عبر النماذج التفسيرية التي تقدمها، كونها تعرض نسقا من المفاهيم المرتبطة ببعضها البعض بغرض فهم الظاهرة محل الدراسة من خلال المعلومات المجمَّعة عنها، لتوضح كيفية عمل هذه الظاهرة وتنظيمها، بهدف التنبؤ بها. وعلى خلفية ذلك، فهي تنظم تمثلنا للواقع، مساعدة إيانا على فهم الظواهر، كما تمكننا من هيكلة فكرنا.

وفي الواقع، لا يكمن الاهتمام بموضوع التنظير في العلوم الإنسانية من حيث بعده النظري فحسب، بل أيضا من خلال الاهتمام بالبعد البراغماتي والتطبيقي للنظرية. فللنظرية أسس فكرية ومبادئ عامة، كما أنها تستند إلى مجموعة من المفاهيم المرتبطة ببعضها البعض التي سيستخدمها الباحث عند قيامه بعملية التفسير والتأويل، مما يحدد جانبها الإمبريقي.

وللوصول إلى الأهداف المسطرة في هذا الكتاب، كان من الضروري اللجوء إلى توثيق خاص والاستناد إلى بعض المصادر الفلسفية للتمكن من إدراك المسائل الإبستمولوجية وتجاوز بعض البديهيات. كما أنه تمت الاستفادة منها عن طريق انتهاج التفكير النقدي، أمور يتم تجاوزها لدى الكثيرين.

وهذا الكتاب دعوة لذوي التخصصات المختلفة للتفكير فيما آل إليه التنظير في حقل العلوم الإنسانية، دعوة للتحاور فيما بينها، حول مكانتها وإعادة النظر في بعض نماذجها ومسلماتها.

بيد أنه لا يجب أن ننسى البعد الإيديولوجي الذي يكون نواة ظهور أي نظرية وتأثيره في مسار البحوث واتجاهها.

فهنالك بعض النماذج التي فرضت نفسها على الساحة العلمية كعلاقات قوة مهيمنة وعلى وجه التحديد النماذج التي قام بصياغتها الناطقون بالإنجليزية، نظرا أولا لقوة الولايات المتحدة الأمريكية التي فرضت نفسها على كل الأصعدة بما فيها البحث العلمي، حيث أضحت الانجليزية اللغة المهيمنة على حقل البحث في العلوم الإنسانية. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، نظراً للطابع المتعدد الجنسيات للمجتمع الأمريكي، حيث انصبت بعض التيارات الفكرية هنالك على العمل انطلاقاً من إشكاليات جديدة تخص التنوع الثقافي والظواهر المرتبطة بالهجرة والأقليات والمدينة والمرأة، وأيضا ظواهر مرتبطة بإفرازات وسائل الإعلام والاتصال وعلى رأسها التلفزيون والتغيرات التي تتمخض عنها. كما أن هيمنة الانجليزية كلغة مهيمنة تفرض نفسها على المستوى الفكري، تعود إلى عدم وجود مدارس أو مراكز بحث أخرى تجمع بين باحثين من نفس الجنسية. ثم لا يجب أن ننسى الدور المؤسساتي الذي لعبته بعض المؤسسات الحكومية في تطور البحث في العلوم الإنسانية، من خلال مشاريع تمويلية لها، تبدو للعيان أن بعدها علمي محض ولا يخدم أي إيديولوجية.

وبفعل هذا الواقع المهيمن على التفكير الإنساني الذي يدعي بأنه هو القادر على فهم أكبر للإنسان، فإنه ستهيمن نماذج تفسيرية والتي ستقوم بتسيير أنماط معينة من المفاهيم التي لا تتناسب دائما مع ما يحدث في العالم العربي-الإسلامي، حيث نجد قطيعة بين الفضاء الأكاديمي والرهانات السوسيو-سياسية. وبدون أن يعيَ الباحث العربي، يجد نفسه في وضعية ضعيفة، حيث ليست لديه دراية كافية بالأسس

الإبستمولوجية للعلوم الإنسانية، حتى يتمكن من إدراك مدى اتساع وحدود النماذج النظرية والمنهجية الغربية المهيمنة.

وينقسم الكتاب إلى ستة فصول. يتطرق الفصل الأول إلى كيفية **عرض الطريقة العلمية** عبر أربعة محاور. يعرض المحور الأول كيفية إنتاج المعارف العلمية. أما المحور الثاني فيخص البحث عن الحقيقة.

فيما يخص المحور الثالث، فيعرض كيفية تكون الروح العلمية والمتمثلة أساسا في: الملاحظة والمساءلة والاستدلال والمنهج والتفتح الذهني والموضوعية. وفي الأخير، يخص المحور الرابع البحث العلمي في حد ذاته.

ثم خُصص الفصل الثاني **للأقطاب المنهجية للممارسة العلمية** والمتمثلة في أربعة أقطاب. يعنى القطب الإبستمولوجي بمسألة طبيعة المعرفة وشروط إنتاجها. أما القطب المورفولوجي فتتمثل وظيفته في تحديد الشكل العام والبنية الخارجية للموضوع محددا قواعد بنائه. أما القطب التقني فيهتم بالمعطيات المجمعة من الميدان التي ستتحول إلى معلومات مهمة. وفي الأخير، يمكّن القطب النظري من تنظيم الفرضيات وتحديد المفاهيم، مسهما في تحضير وتوجيه جمع المعطيات. كما أنه يقوم بوظيفة التحليل بتفسير المعطيات بمقابلتها بالفرضيات المصاغة. فيقوم بتوجيه صياغة الفرضيات وبناء المفاهيم، مقترحا قواعد لتفسير الظواهر.

أما الفصل الثالث فيعرض **واقع البحث في العلوم الإنسانية** من خلال ثلاثة محاور. يتناول المحور الأول واقع البحث في العلوم المختلفة. أما المحور الثاني فيعرض نقاط التشابه والاختلاف في البحث في علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية. وفي الأخير، يتم من خلال المحور الثالث رصد واقع البحث في العلوم الإنسانية.

ثم يأتي الفصل الرابع ليتناول بعض المسائل المرتبطة **بالنظرية**، بداية بالتعرف على ماهيتها، فتحديد وظائفها وبنائها، بتبنين كيفية صياغتها، وذلك عبر ستة محاور، حيث يكون المحور الأول عبارة عن عرض لأهم التعريفات الخاصة بمفهوم النظرية، كما سيتم تحديد الفرق بينها وبين مفهوم البراديغم. ثم يهتم المحور الثاني بعرض

وظائف النظرية. ونظرا لوجود علاقة جدلية بين النظرية والبحث الإمبريقي، حيث يتمثل دور هذا الأخير في التأكد من افتراضات النظرية المتبناة، فسيتم عرض محور خاص بدور الفرضيات في مسار صياغة النظرية. أما المحور الرابع فسيتضح عن طريقه دور المفاهيم في بناء النظرية. أما المحور الخامس فسيحدد علاقة النظرية بالموضوع، إذ لا يمكن الاستغناء عن الإطار التنظيري كأساس لا مفر منه لأي بحث علمي جاد، تمكن الباحث من وضع قطيعة مع التفسيرات غير العلمية.

وفي الأخير، تعرضت في المحور السادس إلى البعد الإيديولوجي للنظرية، لأوضح فيه أن النظرية تمثل مجموعة معتقدات وتوجهات، تتماشى مع الفترة الزمنية التي تُدرس فيها الظاهرة.

وهي ترتبط بطبيعة الملاحظة والأسباب التي دعت إليها، كما أنها مرتبطة بالمصالح، حيث تعين الإيديولوجية للباحثين الاتجاه الذي يجب أن يتبع والسلوكات التي يجب أن تتبنى. وبالتالي، فهي توجه أفكارهم وتصوراتهم نحو اتجاه معين يقتضي الالتزام به، والذي سيوجه مسار البحث العلمي برمته. بيد أن وراء هذا الاتجاه مجموعة من التصورات والأفكار المرسومة والتي ظهرت في سياق معين.

وأصل إلى الفصل الخامس الذي أعرض فيه مسألة **التنظير في علم الاجتماع.** لماذا في علم الاجتماع؟

لأن هذا التخصص العلمي ينتمي إلى حقل العلوم الإنسانية والذي أخذته كنموذج فحسب، وإلا لأخذ مني التفصيل في كل العلوم الإنسانية وقتا كبيرا.

في البداية، ستعرض في المحور الأول أنواع النظريات السوسيولوجية ومجالات تطبيق كل نوع منها.

أما المحور الثاني، فيتناول عرض بعض نماذج من نظريات علم الاجتماع والمتمثلة في الماركسية والبنيوية والوظيفية. أما المحور الثالث، فيتطرق إلى مسألة واقع التنظير في علم الاجتماع، من خلال عرض لتطور البحث في هذا الحقل العلمي ورصد لأفق تطوره.

وفي الأخير، يتخصص الفصل السادس في مسائل مرتبطة **بالتنظير في علوم الإعلام والاتصال**، كنموذج لتخصص آخر ينتمي إلى العلوم الإنسانية، عبر خمسة محاور.

يعرض في المحور الأول تاريخ البحث في الاتصال، من خلال تحديد رواده والمؤسسين له وفترة الإثبات التي مر بها البحث فيه، وصولا إلى كشف الغبار عن التاريخ الجديد لهذا الحقل العلمي، والذي يبرز عبر الدور البنيوي الذي قامت به مؤسسة روكفلار في وضع النموذج المهيمن لدراسات الاتصال وبعض المؤسسات الحكومية. أضف إلى ذلك، أنه سيتم توضيح كيفية مأسسة الدراسات في هذا الحقل العلمي، للقيام بدراسات متعددة التي كانت مرتبطة بالحرب النفسية والدعاية إبان الحرب العالمية الثانية، ثم إبان الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي آنذاك. في حين، سيتم في المحور الثاني عرض التوجهات المتعددة للبحث في الاتصال. أما المحور الثالث، فسيستعرض مجالات الدراسات الحالية في الاتصال. أما المحور الرابع، فيتطرق إلى واقع البحث في الاتصال في العالم العربي. وفي الأخير، سيتناول المحور الخامس المقاربات الجديدة لظواهر الاتصال.

وبعد عرض الفصول الستة للكتاب، سأنهيه بنقاط للتركيب (بدلا من خاتمة) نظرا لاستحالة القول بأنه قد أوفى هذا الموضوع حقه، لأنه يعرض مسائل وحتى إشكاليات يصعب الاتفاق على إبداء رأي واحد حولها، لأن البحث العلمي هو في الواقع مسيرة مستمرة، لا يمكن لأحد أن يحدد متى ستنتهي، خصوصا في مجال العلوم الإنسانية حيث تطرح بشكل مستمر أسئلة وقضايا جديدة في كل مرة.

وفي الأخير، ستعرض في نهاية الكتاب قائمة المراجع المعتمدة والتي كانت بعدة لغات، مما أثرى البحث في مسألة التنظير في العلوم الإنسانية.

وقبل هذا وذاك، أود أن أشكر الأساتذة الكرام الذين ساعدوني على ترجمة بعض المصطلحات التقنية وتدقيقها.

وبادئ ذي بدء، سأشرع في عرض الفصل الأول المتمثل في عرض الطريقة العلمية.

الفصل الأول

عرض الطريقة العلمية

1) إنتاج المعارف العلمية.

2) البحث عن الحقيقة.

3) الروح العلمية.

عرض الطريقة العلمية

أهداف الفصل

- التعرف على كيفية إنتاج المعارف
- تحديد كيفية البحث عن الحقيقة
- تبيين كيفية تكون الروح العلمية
- التعرف على كيفية القيام بالبحث العلمي

لطالما شغل فكر الإنسان معرفة العالم الذي يحيط به وتقديم تفسيرات عنه، التي كانت ذات طبيعة لاهوتية أو ميتافيزيقية أو علمية.

وفي سيرورة البحث عن الحقيقة، تعثرت المعرفة العلمية بعدة معرقلات، حاولت تجاوزها.

فالحصول على المعرفة العلمية مغامرة طويلة، لا نهاية لها، لأنها بحث مستمر وراء الحقيقة التي تتخلل مسيرتها الكثير من العثرات التي تقف حاجزا أمام تطورها.

لذلك، يجب أن تكون لدى الباحث معرفة مسبقة بأسس الحصول على المعرفة العلمية وأن يراعي بعض الشروط الأساسية حتى يتسم بحثه بالدقة والصرامة، متزودا بالأدوات التقنية والأسس المنهجية الضرورية.

وتستند **الطريقة العلمية** إلى: إنتاج المعارف العلمية والبحث عن الحقيقة وتكوين الروح العلمية والبحث العلمي في حد ذاته.

سأشرع في عرض الطريقة العلمية التي تخضع بداية إلى إنتاج المعارف العلمية.

1) إنتاج المعارف* (knowledge production):

مثّل التساؤل عن ماهية الظواهر التي تحيط بالإنسان ومسبباتها الشغل الشاغل للإنسان منذ الأزل.

إذا رجعنا إلى الوراء، فقد اقترن العلم بالفلسفة. فكان العالم الواحد في القديم ملما بعدة تخصصات، والتي لم تكن ممكنة إلا من خلال تخصصه أيضا في الفلسفة.

إذا كنت تريد أن تكون رياضيا، أو عالم فلك أو طبيبا وحتى شاعرا، كان عليك أن تكون أيضا فيلسوفا.

أصل كلمة فلسفة متكون من كلمتين اثنتين: philien والتي تعني أحب ومن كلمةsophia التي تعني الحكمة، بمعنى حب المعرفة.

فقد كان Thalès على سبيل المثال عالما في علم الفلك، الجغرافيا وفيلسوفا؛ فالحكمة هنا تعني المعرفة.

واستمر تأثير الفلسفة واندماجها مع المعرفة العلمية حتى القرون الوسطى.

اشتقاقا، جاءت كلمة المعرفة من اللاتينية:"sapere، أي أن يكون لك الذوق"[1].

وقد أسالت مسألة المعرفة الكثير من الحبر لدى الفلاسفة منذ الأزل، لا سيما في الفلسفة الإغريقية، لدى Socrate وPlato و Aristotle.

يرى Plato أن "المعرفة الحقة تهتم بماهية الأشياء ووجودها الثابت. وهي تهتم كذلك بالأفكار."[2]

---

* تجدون عرض الطريقة العلمية في:
لمياء مرتاض-نفوسي، **تحليل المحتوى في العلوم الإنسانية**، الجزائر، دار هومة، 2016

[1] **Dictionnaire de la philosophie**, Paris, Larousse, 1964

[2] محمد محمد البروين، **مفاهيم في المعرفة**، بيروت، دار النهضة العربية، 1994، ص.14

وهذا التصريح هو تحديد واضح لموقف Plato اتجاه المعرفة الحسية التي لا تمنح لنا معرفة موضوعية ثابتة، لأنها تختلف من فرد إلى آخر، وبذلك هي نسبية ولا تنتمي إلى مجال المعرفة الحقة.

ومجال المعرفة لدى Plato هو مجال العلوم النظرية (الرياضيات، الهندسة، إلخ...)

أما العلوم العملية (صناعة السفن، بناء المنازل، إلخ...) فهو لا ينتمي إلى مجال المعرفة.

وبالتالي، فالمعرفة لدى Plato ليست المجال العام لكل ما يمكن تعلمه أو إدراكه (من طرف الجميع، وهنا تحديدا يقصد به مجال التقنيات)؛ فهي تخص مجال العلوم النظرية التي تُعتبر أشرف العلوم.

كما نجده ينتقد مذهب "التغير والتحول المستمر الذي يعتنقه كل من بروتوجوراس وهرقليطس"[1]، ويؤمن بمبدأ الثبات المطلق لكل ما يوجد في الكون، في الوجود.

لكن Aristotle سلك اتجاها آخر فيما يتعلق بمسألة المعرفة. بالنسبة إليه، المعرفة أنواع: "هنالك المعرفة التي تنتج خبرات الحياة، وهناك المعرفة التي تستخدمها. وثمة تقسيم آخر: فهناك الأنواع التي تخدم وتطيع وهناك الأنواع التي تأمر. والأنواع الأخيرة أعلى درجة وفيها يكمن الخير بمعناه الحقيقي. ولما كان هذا النوع الوحيد من المعرفة الذي يتوصل للحكم الصحيح ويستخدم العقل ويضع الخير في مجموع نصب عينيه، ونعني به الفلسفة، هو الذي يستطيع الانتفاع بسائر أنواع المعرفة وتوجيهها وفق قوانين الطبيعة، فإن هذا دليل على ضرورة التفلسف".[2]

[1] نفس المرجع السابق، ص.19.

[2] أرسطو، **دعوة للفلسفة**، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، صنعاء، منشورات جامعة صنعاء، مجلة كلية الآداب، العدد الثالث، 1982، ص.34.

في: مصطفى النشار، **نظرية المعرفة عند أرسطو**، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 2001، ص.54.

في هذا النص، حدد Aristotle أنواع المعرفة، عاكسا التصور الجاري في زمانه للعلاقة الأزلية بين معارف تُؤدى من طرف الأسياد الذين سيقومون بالتصميم، ومعارف تُؤدى من طرف العبيد الذين سيقومون بالتنفيذ فحسب.

كما نجده يولي أهمية بالغة للفلسفة التي يُستخدَم فيها العقل ويدعو إلى اتباع منهجها، لأنه بفضلها فقط يتم الوصول إلى تحقيق الخير والسعادة.

كما يتصور Aristotle أن بداية المعرفة تكون عن طريق الحس، ولا يمكن فصلها عنه، حيث كانت المعرفة لديه "مجالا هدفه الكشف عما هو كامن في الطبيعة بالحواس".[1]

فالمعرفة تبدأ بالحواس، ولكنها تتجاوزها فيما بعد بفضل ميكانيزمات الإدراك الحسي. وبعدما كان يعتقد بعضهم (Plato) أن الحس يبعدنا عن الحقيقة، فإنه لدى Aristotle هو بداية العلم. واستمر هذا النقاش حول ماهية المعرفة وبدايتها وحدودها إلى يومنا هذا.

ويتم إنتاج المعارف المختلفة بانتهاج إحدى الوسائل التالية: الحدس والاعتقاد والتفكير المنطقي والعلم.

☒ الحدس: (Intuition)

كما أشرت إليه سالفا، اعتبر بعض المفكرين أمثال Aristotle أن للحدس أهمية كبرى للحصول على المعرفة. هو تلك "المعرفة المباشرة"[2] التي يتحصل عليها الإنسان كما يبدو عليه الواقع، عند قيامه بوضع حكم على ظاهرة ملاحظة عبر طرق غير علمية، مبنية أساسا على **الحس المشترك** (common meaning)، بمعنى مجموع

---

[1] جان بيير ديمون، **الفلسفة القديمة**، ترجمة ديمتري سعادة، المنشورات العربية سلسلة ماذا أعرف، 1974، ص.ص 78-79

في: مصطفى النشار، مرجع سبق ذكره، ص.60

[2] **Dictionnaire de philosophie**, op.cit., p.149

الملاحظات والتصورات العامة التي يتقاسمها مجموعة من الأفراد ضمن جماعة اجتماعية أو في مجتمع معين.

نجد الإنسان يتسرع إلى تفسير ما يدور حوله من ظواهر، خصوصا لما لا يوجد تفسير علمي لها أو أنه يجهله أو حتى يتجاهله.

فلما يُصاب شخص ما بنوبة صراخ ويفقد إدراكه للعالم الذي يحيط به، يفسر عامة الناس ذلك بقولهم: "إنه مس من الجن" أو: "إنه مسحور". ونجهل أو نتجاهل كل ما قاله علم النفس التحليلي حول هذه المسألة.

ولعل إرجاع الأمر إلى قوى غيبية غير مرئية يرضي جميع الأطراف التي ليست على استعداد لتفسير الحادثة استنادا إلى علم وضعي، قد يكشف الكثير من الملابسات والرهانات حول الشخص الذي أصابته هذه الحالة. والتفسير الذي يخضع للحس العام أكثر إرضاء وقبولا من طرف الجماعة الاجتماعية بدون التشكيك في ذلك. غير أن هذه البديهيات "قد تؤدي إلى أحكام قيمة ونماذج منمطة التي تُعتبر من طرف الكثيرين أنها مفسرة لواقع لم نعد نتساءل عنه أو أنه أمر مفروغ منه."[1]

وطريقة الحصول على هذه المعرفة تبدو محددة من طرف الأعراف، أحكام القيمة والحس المشترك الذي تتفق عليه الجماعة أو حتى المجتمع.

☒ **الاعتقاد: (belief)**

يتصور Kant الاعتقاد على أنه شكل من أشكال اللامعرفة (unknowing). فالاعتقاد عكس اليقين الذي لا نقاش فيه. أساسه رأي، تصور لمسألة معينة والذي ترسخ في أذهان الأفراد.

يكون الاعتقاد لما "يتعلق فرد بفكرة ما، التي تقام كنموذج لتفسير الواقع والتي لا تواجه التفكير النقدي والشك المنهجي".[2] فهي أفكار جاهزة تقوم باقتراح لتفسير

---

[1]Luc Bonneville et autres, **Introduction aux méthodes de recherche en communication**, Canada, Gaëtan Morin Editeur, 2007, p.14

[2]Ibid.

الواقع الذي هو في الواقع الاقتراح الوحيد والذي ليس محل شك أو تكذيب، والذي لا يرتكز على تفكير نقدي يعيد النظر في تلك الأفكار. والاعتقاد حسب كل من Laville وDionne "يُهيكل تبعا لبعدين كبيرين اثنين: السلطة والتقليد".[1]

تتمحور السلطة في فرد يملك المعرفة التي تمنح له تلك القدرة على بث أفكاره للأفراد الذين يعترفون بصلاحياته ومصداقيته في مجال معين. أما المعرفة التي تتأسس على أساس التقليد فتتمحور في تلك المعرفة المتوارثة والتي تُعتبر حقيقية، كما يسود الاعتقاد في بعض الأمور حتى في بعض المجتمعات الأكثر تقدما والأكثر عقلانية من وجود بعض الوحوش كوحش لوخ نس(Loch Ness) بإسكتلندا.

كما ساد الاعتقاد وما زال سائدا في بعض المجتمعات في تواجد الشياطين في مجاري المياه. وإذا غامر أحدهم وسكب مياها ساخنة في تلك المجاري، فإنه "بلا ريب" سيمسه "مس من الجن". ويلتقي الحدس مع الاعتقاد لتجميد الفكر والتقدم العلمي. وخير مثال على تلك الازدواجية التجميدية للمعرفة العلمية هو الاعتقاد منذ القديم بوجود البترول. غير أن فكرة وجوده كانت في الواقع قائمة على الحدس بداية، حيث إن القدماء الذين كانوا يؤمنون بهذه الفكرة ويعتقدون فيها كل الاعتقاد كانت "تنقصهم التقنية الوحيدة للاستخراج(...كما أنهم) لا ينقبون في الأرض ولا يمضون إلى التحقق مما يجري في الأعماق لأن الأسطورة تجمد المعرفة".[2]

☒ التفكير المنطقي:(logical reasoning)

ينطلق أساس التفكير المنطقي من فكرة مفادها أن الظواهر التي تحدث من حولنا -سواء أكانت طبيعية أو إنسانية- يمكن أن تُفهم استنادا إلى العقل الذي يتناقض مع كل معرفة متوصل إليها على أساس الحدس أو الاعتقاد. ومنذ القديم، أوليت أهمية كبرى للتفكير المنطقي والتي كانت مع المحاجحة (argumentation) التي استُخدمت في الخطابة خصوصا مع السفسطائيين الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى

---

[1] Luc Bonneville et autres, op.cit., p.14.

[2] جان ماري أوزياس، **الفلسفة والتقنيات**، ترجمة: عادل العوا، بيروت، منشورات عويدات، 1983، ص.27

آخر لتعليم فن الكلام بحضور الجماهير، استنادا إلى مجموعة من الحجج المركبة منطقيا.

في هذه المرحلة قام كل من Socrates و Platoبعرض منهج جديد، ألا وهو الجدلية الذي يتمثل لدى Aristotle في "فن المحاججة والتفنيد، ومقابلة أطروحات متناقضة".[1]

☒ العلم:(science)

لفظ **العلم** هو ترجمة لكلمة « epistéme » باليونانية. يعرفه Einstein على أنه "السعي عبر القرون عن طريق التفكير المنظم نحو تجميع كل الظواهر الممكن إدراكها حسيا في العالم، في ارتباط شامل قدر الإمكان. أي، أن العلم هو التفكير المنهجي الذي نوجهه نحو اكتشاف الارتباطات التي تُنتظم تجاربنا الحسية وفقا لها."[2]

بمعنى، أن العلم هو محاولة عبر التاريخ للوصول إلى إيجاد تفسير للظواهر المدركة حسيا، محاولا فهمها بشكل منظم، باكتشاف قوانين تفسر ما يحدث حولنا.

وبذلك، فهو سعي مستمر لاكتشاف القوانين التي تتحكم في الظواهر. وهو بذلك ليس بأمر حُسِم فيه؛ بل هو مجهودات مستمرة لتفسير الواقع الذي يخص عالم الطبيعة أو العالم الاجتماعي. وحسب طبيعة البحث العلمي، تتعدد الأهداف...تارة تتوافق وتارة تتعارض مع بعضها البعض.

العلم هو **فعل**(action) الغرض منه هو البحث عن الحقيقة، حيث يعرفه Weberعلى أنه "فعل عقلاني مقابل هدف وفعل علمي مقابل قيمة متمثلة في الحقيقة"[3]، كنشاط مبني على أساس العقلانية التي توجه العمل العلمي والتي أساسها "احترام قواعد المنطق والبحث"[4].

---

[1] **Dictionnaire de philosophie**, op.cit., p.63

[2] حسين علي، **الميتافيزيقا والعلم**، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2006، ص.27.

[3] Raymond Aron, **Les étapes de la pensée sociologique**, France, Gallimard, 1967, p.502

[4] Ibid.

فلو لا احترام الباحثين للقواعد المتعارف عليها للوصول إلى الحقائق العلمية، لما كان قد توصل البحث العلمي إلى ما هو عليه اليوم.

كما يُعتبر العلم فعلا عقلانيا مقابل قيمة متمثلة في الوصول إلى الحقيقة العلمية، المبنية على قواعد صارمة تحددها علاقات سببية، متفق عليها في الأوساط العلمية.

كما أنه السعي لإدراك الارتباطات الموجودة بين الظواهر. بمعنى، أنه نشاط دائم ومستمر وغير منته، يحاول اكتشاف وإدراك أسباب انتظام الظواهر.

يحدث ذلك ليس بشكل مستمر وتراكمي ولكن عن طريق قطائع متتالية، يُعاد النظر من خلالها إلى الحقائق التي تم التوصل إليها، فتُراجع، وتحل محلها حقائق أخرى.

ويختلف البحث عن حقيقة الظواهر سواء الطبيعية أو الاجتماعية كل الاختلاف -بالاعتماد على مناهج وتقنيات علمية دقيقة- عن المعارف الناشئة عن مستويات إدراك مختلفة، المعتمدة على معارف طقوسية أو خرافية، لا تصل بصلة بالعلم.

يعتبر Weber العلم خاصية المجتمعات الحديثة، كسيرورة للعقلنة التي عرفتها المجتمعات الرأسمالية الحديثة. وبغرض الوصول إلى الحقيقة العلمية، هنالك خاصيتان اثنتان تتحكمان فيها: "عدم الاكتمال والموضوعية".[1] فبالنسبة إلى Weber، تتحقق الموضوعية عند رفض أحكام القيمة كمسير وموجه للعلم. كما أن هذا الأخير لم يصل بعد إلى الاكتمال؛ فهو مشروع مستمر، دائم التساؤل عما يحدث في الطبيعة وفي العالم الاجتماعي، وليس بمشروع مكتمل كما كان يراه Aristotle وحتى آخرون جاؤوا من بعده بعد عصور، أمثال Durkheim الذي كان يعتقد بأنه وصل إلى فهم القوانين التي تتحكم في الظواهر الاجتماعية. فالعلم في تصور Weber هو مسار ما سيؤول إليه كهدف موجود في اللانهائي. غير أنه يؤكد أن العلوم الإنسانية لم تعرف نفس مسار علوم الطبيعة إذ إن المعرفة في هذا الحقل هي منذورة "بالأسئلة التي

[1]Raymond Aron, op.cit., p.503

يطرحها العالم عن الواقع(...) أسئلة جديدة تُطرح كلما تطور التاريخ وعلم الاجتماع."[1]

وبناء على ذلك، لا يمكن أن يكون علم التاريخ أو علم الاجتماع علمين كاملين لأنه في كل مرة تُطرح أسئلة جديدة، التي هي بحاجة إلى إجابات، فيجعل العلوم الإنسانية على هذا الأساس تبحث بشكل مستمر.

وهنا، يقارن Weber علوم الطبيعة بالعلوم الإنسانية ويميزها على أساس ثلاث مميزات:

1) **الفهم:**

فيما يتعلق بعلوم الطبيعة، يتم التفسير بعد البرهنة على الظاهرة المدروسة بواسطة التجريب. أما في العلوم الإنسانية، فيتم الفهم بشكل مباشر.

2) **التاريخ:**

تتميز الظواهر الإنسانية عن الظواهر الطبيعية باحتوائها على بعد تاريخي من خلال اتجاهين اثنين: بتوجهها إلى "التاريخ، بمعنى السرد الذي لا يمكن أن يتكرر مرتين، وإلى علم الاجتماع، بمعنى إلى إعادة البناء التصوري للمؤسسات الاجتماعية وعملها"[2]، مع العلم بأن هذين الاتجاهين الاثنين متكاملان، بحيث إن كل سرد للتاريخ هو إعادة بناء أحداث تاريخية في سياق المؤسسات والتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية.

3) **الثقافة:**

يحدد Weber في هذا الإطار العلوم التي تهتم "بالواقع الإنساني على أنها علوم الثقافة التي تحاول فهم أو تفسير الأعمال التي ينتجها الأفراد"[3] بمعناها العام، من قوانين ومنجزات فنية وأنظمة، وحتى إنه تدمج في هذا الإطار النظريات العلمية.

---

[1]Raymond Aron, op.cit., p.503

[2]Ibid., p.507

[3]Ibid.

عرف العلم مسيرة طويلة، مملوءة بالثغرات والصراعات. وفي هذه المسيرة، ظهرت العلوم المختلفة ولكن "ليس بشكل تطوري بل بشكل تفكيري"[1]، بمعنى أن العلم تطور كما يرى Bachelard بقفزات.

والعلم كما سبق وذكرت هو مسيرة لإدراك الواقع الذي يخص عالم الطبيعة أو العالم الاجتماعي، بتجاوز الحس المشترك من أفكار سائدة في فترة زمنية ما وأحكام القيمة والمسلمات.

ولأجل إدراك الواقع المدروس، فإن العلم يسعى إلى تحقيق الأهداف الموالية:

-الوصف:(description)

بما أن البحث العلمي يتطلب الدقة، فإن **وصف** الظاهرة محل الدراسة يُعتبر هدفا أساسيا، إذ من خلاله يتم "جرد أكثر صدق ما أمكن حول خصائص الموضوع أو الظاهرة المطروحة للدراسة".[2]

من خلال الوصف، يتم تحديد الخصائص المتعلقة بالظاهرة بشكل منظم ودقيق.

-التصنيف: (classification)

إذا كانت بعض البحوث العلمية تتطلب الوصف، فإن البعض منها يتطلب **التصنيف.**

ويتم التصنيف في البحوث العلمية بترتيب المعطيات المتحصل عليها، "بتجميعها حسب بعض المقاييس ومدى ملاءمتها".[3]

وهذا ما فعله Aristotle الذي يرجع إليه الفضل في تصنيف العلوم، مؤكدا على دور **الملاحظة** (observation) غير المعمول بها في أكاديميةPlato . وكان يرى أنه

---

[1] Luc Bonneville et autres, op.cit., p.39

[2] موريس أنجرس، **منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية**، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون، الجزائر، دار القصبة للنشر، 2004، ص.56.

[3] نفس المرجع السابق، ص.57.

يجب أن "نبدأ من الأشياء المحسوسة لنرتفع بواسطة التصنيفات والتعميمات إلى المجال الحقيقي للعلم الذي يبقى مجال المفاهيم."[1]

وهكذا، نجده يقسم العلوم إلى ثلاثة أقسام:

1) علوم نظرية، غايتها المعرفة من أجل المعرفة. فهي تتأمل في الحقيقة وليس لها هدف نفعي أو أخلاقي. وتتمثل في العلم الإلهي الذي يبحث في الوجود. والعلم الرياضي الذي يعتمد على الاستنباط.
وفي الأخير، العلم الطبيعي الذي يهتم بدراسة الطبيعة والكون والنبات والحيوان وعلم النفس والطب.
2) علوم عملية، **مقسمة بدورها إلى ثلاثة فروع**: الأخلاق والاقتصاد والسياسة، الهدف منها هو تدبير أعمال الناس.
3) وفي الأخير، علوم شعرية تعتمد أساسا على الأساليب الإقناعية لما تتركه من تأثير في المستمع، **وهي بدورها تنقسم إلى ثلاثة فروع**: الجدل والخطابة والشعر.

كان لهذا التصنيف تأثير كبير في تطور البحث العلمي لعقود من الزمن، استمر حتى القرون الوسطى.

أما Francis Bacon (1561-1626)، فقد صنف العلوم على أساس القدرة الإنسانية ((human faculty.

وهكذا، توجد:

- علوم الذاكرة، كالتاريخ
- علوم العقل، حيث يكون موضوع الفلسفة الله ، الطبيعة الإنسانية
- علوم التخيل، كالشعر[2]

[1] Philippe Taton, **La science antique et médiévale**, Paris, Presses Universitaires de France, 1966, p.265

[2] يمنى طريف الخولي، **فلسفة العلم في القرن العشرين**، الكويت، عالم المعرفة، 1978، ص.64.

كما قام Descartes (1596-1650) بتصنيف آخر للعلوم واضعا إياها في شجرة، كطريقة يقترح أن يُلتزَم بها للتعلم. وضع في الجذور الميتافيزيقا. أما في الجذع، فقد وضع الفيزياء. أما في الأغصان، فقد وضع الطب والميكانيكا، وفي الأخير الأخلاق لأنه كان يتصورها على أنها "على دراية كاملة بالعلوم الأخرى، وهي أعلى درجة للحكمة."[1]

أما Comte فقد صنف العلوم حسب معيار التعميم التنازلي:

1- مقابلا العلم الخاص أمام العلم التطبيقي

2-علم الأجسام الخام أو الفيزياء غير العضوية

3-علوم الأجسام المنظمة للكائنات الحية

4-مكانة الرياضيات"[2].

فيما يتعلق بمقابلة العلم الخالص (pure science)بالعلم التطبيقي (applied science)، فإنه يعتبر العلوم الأولى مجردة وعامة تهدف إلى اكتشاف القوانين التي تتحكم في الظواهر. أما الثانية فهي تطبيقية بمعنى أنها مجسدة مطبقة القوانين التي توصلت إليها الأولى. وبالتالي، فالعلم التطبيقي مرتبط بما توصل إليه العلم الخالص. أما عن علم الأجسام الخام أو الفيزياء غير العضوية فقد قسمها إلى: "علم الفلك، الكيمياء والفيزياء".[3]

أما فيما يخص ما سماه Comte بعلوم الأجسام المنظمة للكائنات الحية فهي تضم: "الفيزيولوجيا والفيزياء الاجتماعية أو علم الاجتماع".[4] وفي الأخير، منح Comte مكانة خاصة للرياضيات.

إذن، يتم **تصنيف العلوم لدى Aristotle** حسب طبيعة الموضوع والهدف منه. **أما لدى Bacon**، فيتم ذلك حسب معيار القدرة الإنسانية. **ويتم ذلك لدى Descartes**

---

[1]Marie-Dominique Popelard, Denis Verant, **Les grands courants de la philosophie des sciences**, France, Le Seuil, 1997, p. 28

[2]Ibid., p.p 29-30

[3]Ibid.

[4]Ibid., p.30

تبعا لتسلسل عقلاني منظم، يستند إلى منطق خاص يولي أهمية لكل علم حسب مكانته. **أما لدى Comte**، فيتم التصنيف حسب المواضيع التي على أساسها قسم العلوم إلى ستة علوم أساسية.

-التفسير:(interpretation)

يمثل **التفسير** هدفا آخر للعلم، وحتى إنّه أكثر الأهداف استخداما. فجل الأبحاث تبحث عن تحقيق هذا الهدف، بأن "تكتشف عن طريق الملاحظة العلاقات القائمة بين الظواهر. والعلاقات التي يبحث عنها هي علاقة سببية."[1]

فاكتشاف علاقات سببية بين ظاهرتين أو أكثر، بتحديد **المتغير المستقل** الذي يؤثر في **المتغير التابع** هو الذي يحسم في صحة فرضيات معينة، ويفسر بالتالي الظاهرة أو الظواهر المدروسة.

إذا تناولنا على سبيل المثال موضوع عزوف الشباب عن القراءة، وقمنا بصياغة الفرضية التالية:

كلما أقبل الشباب على الإنترنيت، كلما قل الإقبال على القراءة



متغير مستقل **متغير تابع**

تبدو ظاهرة العزوف عن القراءة بسيطة وغير معقدة، حيث يكون سهلا للوهلة الأولى تحديد المتغيرين الاثنين: المستقل والتابع.

غير أنه يجب التأكد من بعض الأمور لحسم الأمر، باستبعاد **المتغيرات المتداخلة** أو ما يُسمى أيضا **بالمتغيرات المعترضة**، أي التأكد من عدم وجود عوامل أخرى هي التي تؤدي في الحقيقة إلى حدوث هذا المتغير التابع.

[1] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره

في المثال أعلاه، قد تكون عوامل أخرى هي التي أدت إلى العزوف عن القراءة، كتأثير الأسرة التي لا يطالع فيها الوالدان ولا يشجعان أطفالهم منذ سن مبكرة على القراءة، بدلا من أن يكون الإنترنيت هو السبب الأساسي. لذلك، على الباحث أن يضع ضمن عينته ما يسمى **بمجموعة المراقبة** التي تحتوي على أفراد لا يقبلون على الإنترنيت، للتأكد إن كانوا في الأخير سيقبلون أم لا على القراءة.

وهنا، يستعين الباحث بنظرية أو بنظريات مناسبة كإطار تفسيري للظاهرة المدروسة، على أساس مفاهيمها الأساسية والتأكد من تماشي افتراضاتها والنتائج المتوصل إليها في مرحلة تأويل النتائج.

- **الفهم: (comprehension)**

يُعتبر **الفهم** هدفا آخر للعلم، ولكنه يخص أساسا حقل العلوم الإنسانية، **حيث يقول Dilthey** إن "الفهم هو أداة العلوم الإنسانية"،[1] إذ يعطي الأفراد معنى خاصا لتصرفاتهم ولأحاسيسهم ولإدراكهم للواقع.

وعندما يقارن Weber بين مجالي: الظواهر الطبيعية والظواهر الإنسانية، فإنه يرى أنه لتفسير الأولى على الباحث أن يقوم "باقتراحات مُبَرهَن عليها من خلال التجربة للإحساس بأنه يمكن فهمها. أما لتفسير الثانية، فالفهم يكون بشكل ما مباشر"[2].

فظاهرة الرسوب المدرسي ستتضح لو سألنا المعنيين بالأمر مباشرة، لنفهم الميكانيزمات التي تتحكم في هذه الظاهرة، بدلا من أن نسأل أفرادا بعيدين كل البعد عن هذه القضية.

وبعد مسيرة طويلة للبحث العلمي أرسى قواعده مع أسس المنهج التجريبي مع Bacon وأسس "المنهج الجديد" الذي وضعه Descartes، فلم يعد الوصول إلى المعرفة العلمية قائما على الحدس أو الاعتقاد، بل على التفكير المنطقي وملاحظة الظواهر

[1] **Dictionnaire de la philosophie**, op.cit, p.48

[2] Raymond Aron, op.cit., p.504

التي تحيط بنا، بحثا عن مسبباتها والعلاقات الكامنة بينها التي تتجاوز كل تفكير أو اعتقاد أو تصور لا علمي، مع خضوعها للنقد الصارم لكل الأفكار المسبقة وأحكام القيمة.

التنبؤ:(prediction)

يُعتبر التنبؤ هدفا آخر يصبو العلم لتحقيقه. يعني ذلك، أن يستبق الباحث أو يتوقع حدوث بعض الأفعال أو التصرفات التي يمكن أن تحدث مع الظاهرة المدروسة.

- **التحويل أو التحسين: (transform or improve)**

بمعنى "تحويل أو تحسين بعض الظواهر الملاحظة بهدف العمل عليها للحصول على إنتاج أو إعادة إنتاج النتيجة المرجوة"[1]، كالتجارب التي تُقام على الحيوانات "لتحسين" النوع أو على النباتات بالتلاعب بالجينات للحصول على النوعية المرجوة.

وبعدما كانت المعرفة تعني العلم حيث كان يتشابك مجال كليهما، إلا أنه بات من الضروري اليوم الفصل بينهما.

ومنذ الأزل، كان الإنسان بحاجة للوصول إلى المعرفة ليتم القضاء على الارتياب الذي كان يحس به اتجاه ما يدور في محيطه من غموض.

فالإنسان بحاجة إلى إدراك كل ما يحيط به من ظواهر وأشياء، بحاجة إلى الحصول على أكبر عدد من المعلومات عنها ليزول هذا الغموض. هذه المعلومات التي سيحصل عليها سواء تعلق الأمر بمعارف مرتبطة بالتحكم بحرفة ما، بصناعة ما، أو معارف عادية أو شعبية يدركها عن طريق تجاربه اليومية، ليفهم ما يدور حوله. وبالتالي، هذه المعارف ليست علمية، يتوصل إليها المرء فقط لتفسير الواقع، من خلال تقبل المجموعة التي ينتمي إليها لمستويات التفسير هذه، داخل نظام إدراكي معين ولكنه غير علمي.

[1] Luc Bonneville et autres, op.cit., p.18

أما العلم، فهو السعي المستمر للوصول إلى الحقيقة عن طريق عرض مجموعة من التفسيرات والتحقق منها باستخدام مناهج وأدوات علمية. وحتى وإن كانت لدينا بعض البراهين على البدايات الأولى للمعرفة العلمية، فلا يمكن أن نتصور نهايتها لأنها سعي مستمر للاقتراب من الحقيقة، وليس الوصول إليها بشكل نهائي.

هذه المعرفة العلمية تطورية، لأنها نشاط مستمر لا يتوقف، فهي في تطور مستمر.

حتى ولو أدت معارف علمية جديدة إلى نفي سابقتها، فذلك يدخل ضمن التراكم المعرفي الذي بالتأكيد لا ينطلق من الصفر؛ بل هو إنتاج علمي مستمر، يعتمد على مبدأ التمحيص والتدقيق والتشكيك في كل الحقائق العلمية التي هي في الواقع نسبية، إلى أن تأتي وقائع حُقِّق فيها لتنفي ما توصل إليه الباحثون قبلها.

وهو بذلك نشاط يخضع لمعايير ومقاييس علمية منهجية صارمة ودقيقة، يُتحقق من صلاحيتها باستمرار. فهو لا يخضع لا للحدس، ولا للاعتقاد ولا حتى للتفكير المنطقي في حد ذاته. هو سيرورة تستدعي الفطنة، والقدرة على التحليل والتركيب التي تحدث عنها Descartes في منهجه الجديد، باتباع مسعى صارم يخضع لضوابط منهجية صارمة. وإن كانت علوم الطبيعة تحليلية تخضع للعقل في محاولة لإيجاد علاقات مستقرة بين الظواهر، فإن العلوم الإنسانية فهمية بمحاولة إدراكها العلاقات والمعاني.

2) البحث عن الحقيقة: (research for the truth)

البحث عن معرفة شيء ما يعني البحث عن الحقيقة. ويحاول العلم الوصول إلى **الحقيقة** (truth)، حيث نجد في هذا الصدد بعض "النظريات التي توصف بالقوية أو العنيفة تتعامل مع الحقيقة على أنها خاصية، في حين تصفها نظريات أخرى التي توصف بالنظريات التفريغية بأنها ليست سوى وسيلة من وسائل اللغة، التطورات الحديثة في المنطق الشكلي".[1]

[1] مصطفى حسيبة، **المعجم الفلسفي**، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2009، ص.211

كما تُعتبر "مطابقة التصور أو الحكم العقلي للواقع".[1] والبحث عن الحقيقة هو في الواقع "الاهتمام بجوهر الأشياء والظواهر التي تحيط بنا".[2]

فالبحث عن جوهر الأشياء والظواهر سيؤدي بالباحث إلى اكتشاف أسبابها الحقيقية، بعيدا عن أحكام القيمة، والحدس والاعتقاد.

سيمكّن اكتشاف العلاقات السببية التي تؤدي إلى حدوث الظواهر بشكل منتظم والعلاقات الترابطية بين المتغيرات حتى من وضع قوانين تفسر الظاهرة المدروسة، يتم التحقق منها حسب إجراءات منهجية صارمة. والحقيقة التي يبحث عنها الباحث هي ليست أي حقيقة؛ هي حقيقة موضوعية تُكتشف بتطبيق أسلوب علمي دقيق يستخدم فيه العقل. وهي ليست معيارا "جيدا" وحصريا لما نتعامل مع ظواهر نحاول تفسيرها علميا؛ يمكن أن نتحدث عن الحقيقة في "الفن والفلسفة".[3] فالفلسفة تُعرف على أنها البحث عن الحقيقة حيث يكون الفيلسوف هو الذي يبحث عنها، بينما الحكيم هو الذي يملكها.

غير أن الحقيقة تُعرف حسب تصور الأفراد لمسألة ما، حسب طرق تجميع المعرفة وأحكام القيمة التي يستقي الباحث منها معارفه. وفي الواقع، هي مرتبطة بالموضوعية إلى أقصى حدودها الصارمة التي تخلو من كل ما يحول دون ذلك. في ميدان العلوم، هي الحصول على المعرفة الحقيقية عن الظواهر الملاحظة أو قيد الدراسة.

3) الروح العلمية:(scientific spirit)

لقد أشرت أعلاه إلى أن المعارف العلمية في تطور مستمر، في إعادة نظر مستمرة بين نماذج تحليلية قائمة وأخرى مقترحة ثم بديلة عنها، بين مراحل بناء، فتهديم فإعادة بناء، بين أزمات فثورات علمية.

---

[1] عبده الحلو، **معجم المصطلحات الفلسفية**، بيروت، مكتبة لبنان، 1994، ص.177

[2] Luc Bonneville et autres, op.cit., p.20

[3] Dominique Popelard, Denis Verant , op. cit., p.31

ويتطلب الأمر أن يتصف الذين يمارسون العلم أو يودون ممارسته ببعض الصفات والتصرفات التي ستحدد ماهية الروح العلمية والمتمثلة أساسا في: الملاحظة والمساءلة الاستدلال والمنهج والتفتح الذهني والموضوعية.

فهي سلوك يتميز به العلماء عبر بعض الاستعدادات الذهنية الضرورية لممارسة سلوك علمي ضروري.

أ- الملاحظة:(observation)

يجب بداية التنويه إلى أن الملاحظة ليست حكرا على العلماء. فالإنسان منذ القديم وهو يلاحظ ما يحدث حوله بهدف الاطلاع والفضول ومحاولة الفهم.

ارتبطت الملاحظة منذ البداية بالاكتشاف، بعلاقتها بالرحلات العلمية والسفر إلى مناطق لم تُكتشف من قبل، كسفر (Marco Polo) إلى الصين وبعض المبشرين المسيحيين إلى مجتمعات لم تدخل بعد في المسيحية.

وهي تتطلب "المكوث في الميدان ليدل هذا المفهوم المستعار من الأنثروبولوجيا في نفس الوقت على موضوع الدراسة ومكانها (...) أن تلاحظ يعني ذلك أن تعيش مع، أو على الأقل أن تكون قريبا، أن ترى عن قرب."[1]

يعني ذلك، أن الملاحظة تقنية تتطلب الاقتراب عن كثب من الموضوع المدروس، لمدة متفاوتة قد تدوم ساعات وتصل في حالة البحوث الأنثروبولوجية إلى عدة سنوات.

وبذلك، سيترتب عنها تسجيل لكل التصرفات والحركات والأقوال، بأكبر دقة ممكنة، متطلبة استعدادا ذهنيا من طرف الذي له الفضول لمعرفة ما يحيط به من ظواهر.

هي وسيلة للحصول على المعرفة العلمية. غير أنه يجب التفريق بين الملاحظة العادية أو الطبيعية التي يقوم بها الأفراد الفضوليون بشكل عام، والملاحظة العلمية

---

[1] Jean-Claude Combessie, **La méthode en sociologie**, Alger, Editions Casbah, 1998, p.15

التي تُعتبر أول مرحلة للحصول على المعرفة العلمية، والتي هي من اختصاص أهل العلم، لها أدواتها وإجراءاتها العلمية الصارمة.

☒ الملاحظة في العلوم الطبيعية:

كانت ومازالت الملاحظة التقنية بامتياز في العلوم الطبيعية منذ القديم. فعلى سبيل المثال، لما كتب Aristotle كتابه: الحيوان، فقد استند إلى مجموعة من الملاحظات، التي قام بتجميعها ملاحظة بملاحظة.

نجده قد أولى أهمية قصوى للملاحظة التي تُعتبر نقطة الانطلاق لأي بحث علمي جاد. وفي هذا السياق، إدراك الحقيقة لا يكون إلا من خلال الحس الذي يُعتبر مرحلة أساسية عند الشروع في البحث العلمي. وتدريجيا، يتم الانتقال إلى المجال الحقيقي للعلم المتمثل في تحديد المفاهيم والبرهنة عليها من خلال اللجوء إلى التصنيفات والتعميمات.

وكانت تتم الملاحظة آنذاك بالعين المجردة. غير أنها كانت تُعتبر(ومازالت تُعتبر) كأول مرحلة لأي معرفة علمية. وباكتشاف أدوات تتلاءم وطبيعة مجال المعرفة، تطورت علوم الطبيعة: التلسكوب في علم الفلك والميكروسكوب في البيولوجيا الذي لديه "مبدأ بسيط متمثل في تكبير"[1] الأمور الملاحظة، وذلك "بتجاوز المساحة الملاحظَة خارجيا، الوصول إلى ما لا تستطيع العين المجردة بلوغه: البكتيريا والميكروبات والفيروسات"[2]. وهكذا، لم يكن ممكنا لعلوم الطبيعة أن تحرز هذا التقدم الذي هي عليه اليوم لو لا الاختراعات العلمية الخاصة بأدوات القياس.

وقد وضع Francis Baconأسس التفكير العلمي الحديث التي ما زال يُعمل بها إلى يومنا هذا، محددا أهمية الملاحظة كمرحلة أولى وأساسية في البحث العلمي، مناديا بالقطيعة مع أساليب بحث العصور الوسطى.

---

[1] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, Paris, Dalloz ,11e édition, 2005, p.394

[2] Ibid.

ونجده من "أعنف من هاجموا الاتجاه النظري الخاص بقياساته العقيمة عند الفلاسفة المدرسيين السابقين".[1]

هذا الاتجاه النظري كان يُعمل به منذ العصور القديمة إذ كان الهدف منه هو المعرفة من أجل المعرفة، من خلال التأمل في الحقيقة. غير أنه يجب على الباحث في العلم الحديث أن يعتمد على "ملاحظة الظواهر ومشاهدتها تجريبيا"[2].

فملاحظة الظواهر مرحلة مهمة في البحث العلمي. غير أنه يجب البرهنة عليها عن طريق التجريب، وليس بمجرد التحدث عنها كما كان يُفعل من قبل أو التأمل فيها.

وبالرغم من النتائج العلمية التي توصل إليها Bacon، غير أنه لم يكن يولي أهمية للفرضيات التي سماها "باستباق الطبيعة"[3]، أي أنه اعتبرها استنتاجات لا تعتمد على نتائج البحث العلمي ولا ترتكز على ما يحدث في الواقع.

☒ الملاحظة في العلوم الإنسانية:

إذا كانت الملاحظة في علوم الطبيعة تعتمد على أدوات للقياس، فإن الأمر مختلف في العلوم الإنسانية.

ثم إن كانت الظواهر الطبيعية تتكرر بنفس الشكل إن تجمعت نفس الظروف، فإن الظواهر الإنسانية مختلفة عن ذلك كل الاختلاف؛ فلا يمكن أن تتكرر نفس الظواهر بنفس الشكل. وبالتالي، لا يمكن القيام بنفس الملاحظات في كل مرة، مما يخلق مشكل التعميم في العلوم الإنسانية وضرورة الأخذ بالحسبان لسياقات تتغير في كل مرة. في هذا الصدد، يرفض Durkheim"كل ما لا يمكن ملاحظته".[4]

[1] يمنى طريف الخولي، مرجع سبق ذكره، ص.67[1]

[2] يمنى طريف الخولي، مرجع سبق ذكره [2]

[3] نفس المرجع السابق، ص.74[3]

[4] Raymond Boudon, **Etudes sur les sociologues classiques**, Paris, Presses Universitaires de France, 1998, p.94

فهو ينطلق من فكرة أن العلم هو دراسة العلاقات بين ظواهر يمكن ملاحظتها. فعلى سبيل المثال، في كتابه الشهير "الانتحار"، وضع فرضية وجود علاقة بين المحيط الاجتماعي وظاهرة الانتحار.

ولفهم هذه الظاهرة، فقد درس السياق الديني والعائلي والسياسي والاقتصادي ليبين العلاقة القائمة بين هذه السياقات مع حدة الانتحار. كما أنه لم يهتم بإنشاء علم الاجتماع كعلم فحسب، لكنه اهتم أيضا بظهور المجتمع الصناعي واختفاء الأطر الاجتماعية القديمة وأزمة القيم والمعتقدات الجماعية التي ظهرت.

فتصريحه بأنه يجب دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء، يعني "تقريب دراسة هذه الظواهر إلى الظواهر الطبيعية أو الفيزيقية"[1].

في هذه الحالة، على الباحث أن يبتعد عن كل الأفكار المسبقة وعن أحكام القيمة حتى يتسم بحثه بالموضوعية. كما نجد لدى Comte موقفا محافظا فيما يتعلق بمسألة خطر التجريد الذي ينجر عن استخدام التحليل الرياضي في العلوم الإنسانية، الذي حسب تصوره "وهو معزول عن ملاحظة الطبيعة، ليس له إلا طابع ميتافيزيقي."[2]

فهو لا يشك في أن علم الاجتماع لم يصل بعد إلى تكميم الظواهر الاجتماعية. أما منهجه فهو وضعي، معتمدا على الاستقراء والاستنباط في ذات الوقت وأساسه ملاحظة الظواهر بعيدا عما هو تأملي ومجرد، ثم القيام بالمقارنة فالتجريب، منظرا لعلم جديد الذي سماه بعلم الاجتماع محاولا اكتشاف القوانين التي تحكم المجتمع علميا.

فضرورة اتباع نفس مسار البحث المعمول به في علوم الطبيعة وتطبيقه على العلوم الإنسانية، هو سعي عن تأكيد موضوعية هذه الأخيرة وعن مكانتها العلمية، علما بأن الذي يقوم بالبحث هو متشبع بنسق من القيم والمعايير والتي قد تكون حاجزا أمامه عند القيام ببحثه. لذلك، عليه أن يتخلى عنه.

---

[1] Thomas Gay, **L'indispensable de la sociologie**, France, Studyrama, 2004, p.19

[2] Madeleine Grawitz, op.cit., p.83

قبل Comte، قام ابـن خلـدون (1332-1406) مؤسـس علـم الاجـتماع، بتحديـد "موضوعه بالعمران البشري والاجتماع الإنـساني، كـما حـدد أحـوال العمـران في الملـك والكسب والعلوم والصنائع".[1]

كما تحدث عن العمران البدوي والعمران الحضري وعن الاجتماع الإنـساني، وعـن الحضارة والتمدن والمدينة.

يعتبر التراث الخلدوني جـد متنـوع، ويعتـبر فكـر ابـن خلـدون مرجعـا أساسـيا في الدراسات الحالية الغربية والعربية.

فقد بنى نظرية الدولة استنادا إلى ما لاحظه أثناء أسفاره مـن انحطـاط للـدول في الأندلس وظهور أخرى في المغرب. وقد وضح "الثوابت (the constancies) التي تميـز مسار المجتمعات والدول والقوانين التي تحدد مراحلها المختلفة".[2]

ويتم بناء الدولة لديه عبر ثلاث مراحل: البداوة، ثم الحـضارة فالانحطـاط، حيـث تتميز كل فترة بظروف عيش خاصة بكل واحدة منهـا، مـن معـاش وصـفات وصـنائع وطرق عيش بشكل عام.

وهذا التغير في ظروف العيش هو الذي يؤدي بالانتقال من مرحلة إلى أخرى.

والطريقة التي اتبعها ابن خلدون لتجميع كـل هـذه المعلومـات عـن المجتمعـات المختلفة هي "الملاحظة والمشاهدة الحـسية للظـواهر الاجتماعيـة في الـشعوب التـي أتيح له الاحتكاك بها والعيش بـين أهلهـا. ثـم الوسـيلة الأخـرى التـي اسـتعملها هـي تعقب هذه الظواهر في تـاريخ هـذه الـشعوب نفـسها في العـصور الـسابقة لعـصره، وتعقب أشباهها ونظائرها في تاريخ شعوب أخرى لم يتح له الاحتكـاك بهـا ولا الحيـاة بين أهلها".[3]

[1] زكي الميلاد، **المسألة الثقافية، من أجل بناء نظرية في الثقافة**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العـربي، 2005، ص. 22

[2] Noureddine Khendoudi, **La théorie de la civilisation chez Malek Bennabi**, Alger, Editions El-Borhane, 1993, p.25

[3] الصغير بن عمار، **الفكر العلمي عند ابن خلدون**، الجزائـر، الـشركة الجزائريـة للنـشر والتوزيـع، الطبعـة الثالثة، 1981، ص.71

وهكذا، ومن أجل تجميع كل المعطيات، استند ابن خلدون إلى الملاحظة وبالتحديد الملاحظة بالمشاركة في معناها الأنثروبولوجي الحديث، إذ شارك في حياة هذه المجتمعات، ولاحظ طرق عيش أفرادها، ووصف المعاش فيها ووجوهه من الكسب والصنائع والعلوم والفنون، كما فعل Boas وغيره من الأنثروبولوجيين عند دراستهم للشعوب البدائية في القرن العشرين.

ثم إنه قارن بين حضارات في طور التكوين وأخرى في طريق الزوال، متبنّيا المنهج المقارن كما جاء به لاحقوه من الأنثروبولوجيين.

وهذا يقودنا مرة أخرى إلى التساؤل عن ماهية الروح العلمية وكيف تتجسد عبر الملاحظة العلمية التي تختلف عن مجرد المشاهدة، والتي تمر بثلاث مراحل متباينة كما وضحها * Selye: "كوني ألاحظ معناه أنني أشاهد أو أعاين؛ ثم كوني ألاحظ معناه أتعرف أو أحدد إن كان الشخص أو الشيء معروفا أم غير معروف؛ وأخيرا كوني ألاحظ معناه أنني أقوم بقياس أو بتقييم الشخص أو الشيء."[1]

في دراسة تهتم بمعرفة الممارسات السحرية لدى الطلبة، تمثلت أول مرحلة في الملاحظة في رؤية ما يوجد حولنا من أشياء أو أشخاص بالتوجه إلى بعض الطلبة (مثلا في الإقامات الجامعية) لمعرفة مدى ممارستهم للطقوس السحرية. تمثلت ثاني مرحلة في التعرف على ما هو موجود، بالقيام بإحصاء المواد والأدوات المستخدمة لهذا الغرض والتعرف عليها. وفي الأخير، تتمثل ثالث مرحلة في تقييم ما لوحظ بوضع شبكة

---

*في نفس السياق، وضح Bachelard في كتابه: **الفكر العلمي الجديد** كيفية القيام بالملاحظة العلمية حيث يشير إلى أنها بحاجة إلى مجموعة من الاحتياطات التي تقود إلى التفكير قبل المشاهدة، وبذلك يتم إصلاح الملاحظة الأولى، بحيث لا تكون أبدا الملاحظة الأولى هي الصحيحة. وهذا يدفعنا بلا ريب إلى التفكير في أن الملاحظة ليست بالعملية البسيطة، حيث تمر بعدة مراحل حتى يتم تجميع ملاحظات موضوعية دقيقة تعكس بحق الواقع الملاحَظ.

[1] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص.ص 31-32

ملاحظة تصنف فيها مثلا المواد المستخدمة، العبارات التي تُستخدم في الطقوس السحرية، الجو الفيزيقي السائد، ردة فعل الممارسين لهذه الطقوس، الخ...

غير أن الملاحظة العلمية لا تكفي لوحدها كاستعداد للروح العلمية.

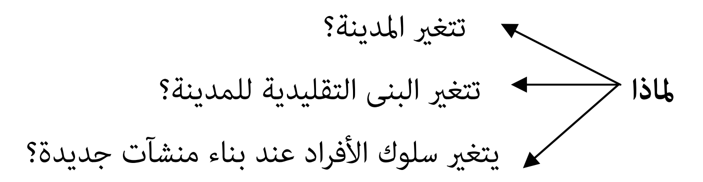
ب-المساءلة:(questioning)

الملاحظة تقنية أساسية لتجميع المعطيات. غير أنها غير كافية لتجميعها برمتها، لأن طبيعة الملاحظة يجب أن تتماشى والتساؤلات التي يطرحها الباحث في البداية. كما أنه تتمخض عنها تساؤلات أخرى. ففي نفس الدراسة المذكورة أعلاه، ينطلق الباحث من سؤال: لماذا يقوم الطلبة بممارسات سحرية؟

ولا يتعلق الأمر بمجرد طرح أسئلة، بل بمساءلة تمكن من تجاوز الملاحظات الأولية التي لا تتجاوز ما هو مرئي وما يبدو بديهيا. فالروح العلمية تعيد النظر فيما لوحظ للوهلة الأولى والذي قد يعتبره البعض من المسلمات التي لا يُعاد النظر فيها بتاتا. **نتساءل هنا عن أصل الظواهر، الأسباب التي تؤدي إلى حدوثها بالارتكاز على سؤالين أساسيين اثنين: "لماذا؟ وكيف؟"**[1]

في دراسة لمعرفة تأثير العمران الحديث في المجتمعات التقليدية:

-سيرتبط السؤال: **لماذا** بالأسئلة الموالية:



-في حين، سيرتبط السؤال: **كيف** بالسؤالين المواليين:

كيف ← تتغير المدينة التقليدية؟

← يؤثر نمط المدينة الحديث على تصرفات الأفراد في المجتمعات التقليدية؟

[1]Luc Bonneville et autres, op.cit., p.25

بالرغم من أن السؤال الأول يبحث عن أسباب الظاهرة والسؤال الثاني يبحث عـن الميكانيزمات والعلاقات الترابطية التي تؤدي إلى حدوثها، فهما سؤالان اثنان مرتبطـان كـل الارتبـاط لفهـم الظـاهرة المدروسـة. وبـدون المـساءلة، لمـا وصـلت البـشرية إلى الاكتشافات والاختراعات التي نعرفها اليوم.

ج-الاستدلال:(reasoning)

يُعتبر**الاستدلال** استعدادا آخـر للـروح العلميـة. هـو اسـتخدام العقـل والتفكـير لتحليل ظاهرة ما وتأويلها. **ويؤكد Bachelard أن:** "جوهر التفكير هو فهم أننا لم نكن قد فهمنـا بعـد".[1] فبـالتفكير يـتمكن الباحـث مـن فهـم وإدراك الأشـياء والظواهر التي كانت تبدو بديهية ومفهومة.

وهناك طريقتان اثنتان استخدمهما العلماء (وما زالـوا يـستخدمونهما) للحـصول على المعرفة العلمية ألا وهما: الاستقراء والاستنباط.

1- الاستقراء:(deduction)

يُعتَبَر **الاستقراء** "تعميما، أي عملية يتم من خلالها تعميم ما لوحظ على فـرد أو بعض الحالات الخاصة".[2]

إذا، تكون الانطلاقة في الميدان أو الملاحظة حيث يتم بناء النموذج النظري.

ويُستخدم عادة هذه الطريقة في الدراسات الاستكشافية حين "يقـوم البـاحثون بخطواتهم الأولى في الميدان الذي يكتشفونه لأول مرة".[3]

أضف إلى الطابع الاستكشافي، خاصية أخرى والمتمثلة في الطابع الكيفي للدراسـة حيث يكون الهـدف منهـا الحـصول عـلى معطيـات كيفيـة، تكـون محـصورة في "منطق بناء، أي الاستدلال بالاستقراء."[4]

---

[1]Gaston Bachelard, **Le nouvel esprit scientifique**, Algérie, ENAG Editions, 1994, p.219

[2] Madeleine Grawitz, op.cit., p.16

[3]Raymond Quivy, Luc Van Campenhoudt, **Manuel de recherche en sciences sociales**, Paris, Dunod, 1995, p.144

[4] Luc Bonneville et autres, op.cit., p.155

في هــذه الحالــة لا ترتكــز المعرفــة العلميــة عــلى التحقــق مــن الفرضــيات المصاغة في البداية، كما هـو الحـال في الاسـتنباط، بـل عـلى "الاستكـشاف وعـلى بنـاء النظريات".[1]

وعلى هذا الأساس، تُمنح "الأسبقية لجمع الملاحظات عن الظواهر بهدف الاستنتاج الممكن للافتراضات العامة المؤدية إلى بعض الانسجام."[2]

فيجب الاستناد إلى الميدان للقيام بملاحظات علمية دقيقة بغية تنظيمها لاستخراج افتراضات عامة تمكننا من بناء نظرية.

والجدير بالإشـارة إليـه، أن هـذه الطريقـة "تقلـب" المقـاييس التـي اعتـاد عليهـا الباحثون حيث يتم "عكس نمط بناء الموضوع".[3]

فطبيعة الدراسة الكيفية وطبيعتها الاستكشافية تفرض عـلى الباحـث "أن يكتفـي بالأهـداف"[4]، بـدون تحديـد فرضـيات في البدايـة، إذ يكتفـي بتحديـد الـسؤال العـام للبحث والأهداف التي يود تحقيقها فحسب. فالباحث في هذه الحالة، له فكـرة عـن موضوعه توجه عمله بدلا من فرضيات ينطلق منها.

وبالفعل "تتحدد الفرضيات تدريجيا من خلال عملية التحليل. ليس هذا كل شيء، حيث ستحدد كذلك بدقة أكبر أسئلة البحث، كما ستُعد النظرية تدريجيا".[5]

وحتى الفرضيات التي عادة ما ينطلق منها الباحـث في النمـوذج الكلاسـيكي، تـتم صياغتها تدريجيا استنادا إلى المعطيات المجمّعـة مـن الميـدان وهـي صـياغة "تنطلـق

---

[1]Ibid., p.159

[2] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص .50

[3] Jean-Claude Kaufmann, **L'entretien compréhensif**, Paris, Editions Nathan, 2001, p.19

[4]موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص.152

[5] Luc Bonneville et autres, op.cit., p. p 159-161

من"تحت"، من الميدان. وحسب عبارة Anselm Strauss فهي"Grounded Theory"* القادرة بشكل خاص على فهم السيرورة الاجتماعية"[1].

من خلال الاستقراء، يتم التحليل بشكل موازٍ مع مرحلة جمع المعطيات بشكل مستمر، وتُستخرج الفرضيات تدريجيا من الميدان. وهكذا، إلى أن يصل الباحث إلى قوانين عامة تتحكم في الموضوع محل الدراسة، لأن الاستقراء باختصار هو ذلك "التفكير (التدريجي) الذي من خلال حالات خاصة يصل إلى حقيقة قانون عام"[2].

فتكون الانطلاقة أساسا استنادا إلى سؤال عام يتم من خلاله النزول للميدان. ولا تتضح الفرضيات إلا بشكل تدريجي.

عند تطبيق الطريقة الاستقرائية، يتوجب الامتثال للمراحل الأربع التالية:

- تحديد الموضوع
- ملاحظة الواقع بتجميع المعطيات من الميدان
- تنظيم المعطيات المجمعة
- تأويل النتائج بتفسيرها وفهمها للوصول إلى بناءات تفسيرية".[3]

تتمثل أول مرحلة في تحديد موضوع البحث الذي يجب أن تكون طبيعته استكشافية. أما المرحلة الثانية فتتمثل في ملاحظة الظاهرة في الواقع بتجميع دقيق للمعطيات من الميدان.

تتمثل ثالث مرحلة في تنظيم المعطيات المجمعة التي هي شرط منهجي أساسي في هذه السيرورة، بتصنيفها وإعداد تجميعات في بناءات نموذجية يعكس كل واحد منها جانبا دقيقا ومميزا للواقع المدروس.

---

* هي النظريات المتجذرة

[1] Jean-Claude Kaufmann, op.cit., p.09

[2] Marie-Dominique Popelard, Denis Verant, op.cit., p.p 61-62

[3] Joël Guibert, Guy Jumel, **Méthodologie des pratiques de terrain en sciences humaines et sociales**, Paris, Armand Colin, 1997, p.p 5-6

وفي الأخير، تتمثل المرحلة الرابعة في تأويل النتائج المتوصل إليها، وذلك بصياغة نموذج تفسيري خاص بها والمتمثل في مجموعة مفاهيم توصل إليها تعكس مجتمعة القانون الذي يتحكم في الظاهرة، وبشكل أبسط الوصول إلى صياغة النظرية.
كان هذا الاستقراء.

2-الاستنباط:(deduction)

أما **الاستنباط** الذي من خلال معرفة قانون عام، يمكن تحديد حالات خاصة تندرج ضمن هذا التعميم، ففي هذه الطريقة -التي تعتبر النموذج الكلاسيكي لجل الدراسات-يتم "البناء من خلال مسلمة أو مفهوم كنموذج لتفسير الظاهرة المدروسة".[1]

في هذه الحالة، يبدأ الباحث بصياغة الإشكالية ويحدد من البداية الفرضيات، ويقوم استنادا إليها باستخراج المفاهيم عند قيامه بالتحليل المفهومي، باستخراجه للأبعاد فالمؤشرات التي لها علاقة بجوانب الموضوع.

ويرى Blanchet أن مراحل هذا المنهج هي كالتالي: "من خلال ملاحظات، تتم صياغة فرضية والتي من خلالها يتم الاستنباط الذي يرتبط بالتجريب لمراقبة صحة الفرضية".[2]

تستند هذه الطريقة من الناحية العلمية إلى إطار تفسيري لفهم الظاهرة من خلال مفاهيم خاصة بها. وانطلاقا من الإشكالية، يتم تحديد الفرضيات، ثم يتم الانتقال إلى الميدان للتأكد من صحتها لأن القاعدة الأساسية في هذه الطريقة هي ذلك "المنطق المُعاد بناؤه"[3]، إذ ننتقل من مفاهيم خاصة بنظرية ما، ننزل إلى الميدان للتحقق منها، من النظري إلى الإمبريقي فالنظري. وذلك ما يبرر قانونها العام المتمثل في المرور من العام إلى الخاص، أي الانتقال من افتراضات خاصة بالنموذج النظري المتبنى، من خلال

[1] Raymond Quivy, Luc Van Campenhoudt, op. cit, p.143

[2] Paul de Bruyne, Jacques Herman, Marc de Schoutheete, **Dynamique de la recherche en sciences sociales**, France, PUF, 1974, p.88

[3] Ibid., p.89

نسق من المفاهيم الخاصة به إلى البحث عن تطابقها في الميـدان. وسـيمنح Popper للاستنباط "وظيفة تبرير القوانين بعد صياغتها".[1]

وهكذا، طبيعة البحث وطبيعة المعطيات المجمعة هي التي توجه اختيار الطريقة المناسبة. فإذا تمّ الانتقال من الخاص إلى العام يتم الاعتماد على الاستقراء. أما إذا تـمّ المرور من العام إلى الخاص، فيجب انتهاج الاستنباط.

بيد أنه يجب التنويه إلى نقطة في غاية الأهميـة والمتمثلـة في أنـه لـيس الاسـتقراء وحده هو الكفيل بالوصول إلى الحقيقة العلميـة، ولا الاسـتنباط لوحـده هـو الكفيـل بذلك.

فعندما يتصور البعض أن الاستنباط هو الطريقة الوحيدة التـي توصـلنا إلى إدراك الحقيقة العلمية، يتم الاعتقاد بأن هذا الأخير يحـدث عـن طريـق تجميـع المعطيـات باستمرار اعتمادا على قطب نظري ما. وهذا يستبعد النقد الذي يمكن أن يوجّه لهـذا الأخير، في الجهد المبذول للحصول على المعرفة العلمية.

ولما يتـصور الـبعض الآخـر أن الاسـتقراء هـو الطريقـة الوحيـدة لإدراك الحقيقـة العلمية، فهـذا ينفـي الـدور الـذي يُمـنَح للنظريـات المتوصـل إليهـا وعـدم إخـضاعها "للتجربة" باستمرار.

وبـالرغم مـن تميـز كـلا الطـريقتين الاثنتـين عـن بعـضهما الـبعض، إلا أنـه يمكـن اعتمادهما مع بعض.

أكثر من هـذا، يبـدو أن هـاتين الطـريقتين الاثنتـين متكاملتـان ضـمنيا في الكثـير مـن الدراسات. وبالتالي، يبدو أن كلا مـن: الاسـتقراء والاسـتنباط يكمـل أحـدهما الآخـر، كـل واحد حسب هدف الدراسة، في جدلية تستند إلى قواعد علمية تخدم أهداف الدراسة.

فعندما يُستخدم الاستقراء، فإنه يعتمد على ملاحظات استُخرجت من الميـدان بغيـة الوصول إلى قوانين تفسرها، على معارف قام الباحث بتجميعها، إذن على معارف قبلية.

---

[1] Dominique Popelard, Denis Verant , op.cit., p.63

وبذلك، فالاستقراء هو في الواقع **استقرائي-استنباطي** لأن المعرفة العلمية لا تنطلق من العدم؛ فهي تبنى استنادا إلى معلومات موجودة من ذي قبل. لذلك، لا يمكن التحدث عن طريقة استقرائية تبني الحقائق تدريجيا استنادا إلى ما يوجد في الميدان، وإغفال -في الوقت ذاته-أن هذه الحقائق ترتكز كذلك على التجربة الشخصية والمعارف القبلية.

د- المنهج:(method)

بشكل عام، تُجمع العلوم حسب ثلاثة نماذج، انطلاقا إما من:

- **تخصصات،** حيث أصبحت العلوم اليوم أكثر فأكثر تخصصا، وحتى إننا نجد في التخصص الواحد عدة تخصصات فرعية داخلها. فعلم الاجتماع مثلا يتفرع إلى عدة تخصصات فرعية كعلم اجتماع العمل وعلم اجتماع التنظيم وعلم اجتماع الصحة وعلم الاجتماع الثقافي وعلم اجتماع الممارسات اليومية، إلخ....

- **مشاكل،** حيث يحاول كل تخصص حل مشاكل مرتبطة بطبيعة موضوع العلم الخاص به.

- **مناهج،** حيث يوظف كل تخصص منهجا أو مجموعة من المناهج التي تكون خاصة به أو يتقاسمها مع تخصصات أخرى *.

و**المنهج** هو "التساؤل عن الطريق الذي سيتبعه البحث، مجموع إجراءات التي تؤدي إلى إجراء محدد."[1]

بدون أن تكون لدينا براهين قاطعة على البدايات الأولى للعلم، غير أن من المؤكد أن بداياته الأولى كانت عندما أراد الإنسان السيطرة على الطبيعة، باستخدامه مناهج علمية تعتمد على التفكير والتقصي العلمي.

---

* فمثلا يستخدم علم النفس المنهج التجريبي الذي يتقاسمه مع علوم الطبيعة.

[1]**Dictionnaire de philosophie**, op.cit., p.182

يحدد الباحث المنهج الذي يستخدمه ليوضح الطريقة التي يستخدمها لمعالجة موضوعه، محددا بذلك كيفية القيام بذلك، للوصول إلى معرفة الواقع وفهمه، باعتباره "استراتيجية عامة التي يستخدمها لشرح أو فهم ظاهرة ما".[1]

وعندما نتساءل عن المنهج، فإننا "نتساءل عن الطريق الذي يسلكه بحث ما."[2]

في العلوم الإنسانية، هنالك مناهج كمية وأخرى كيفية. إذا عدنا قليلا للوراء، فإن إدخال الرياضيات لفهم الظواهر الطبيعية هو الذي مثّل القطيعة بين القرون الوسطى والقرن 17.

فبدأ العلماء يتحدثون عن أهمية الرياضيات التي منحت صبغة جديدة للعلم فيما بعد، حيث يؤكد Galilée على ضرورة إخضاع الطبيعة للرياضيات.

ليس هذا فحسب. نجد Heidegger يربط ميلاد العلم الحديث بالمشروع الرياضي للطبيعة الذي يحول كل شيء إلى مجرد أجسام مادية تتشابه فيما بينها، وحتى وإن اختلفت، فهذا الاختلاف يكمن في فروق كمية بسيطة.

بالرغم من هذا التصور الحديث للعلم، فإنه علينا ألا نتجاهل دور الرياضيات في إضفاء صبغة علمية موضوعية دقيقة على البحوث العلمية.

هذا ما حدث أولا لعلوم الطبيعة ابتداء من القرن 18، ثم للعلوم الإنسانية فيما بعد حيث كانت الأولى نموذجا للثانية حاولت الأخيرة الاقتداء به.

فلإثبات موضوعيتها ودقتها، وجدت العلوم الإنسانية نفسها أمام طريق مسدود: إما أن تستخدم المناهج الكمية أو أن تبقى في طي النسيان.

وعليه، ظهرت مناهج كمية وأخرى كيفية، تختلف من حيث هدف استخدامها.

1) المناهج الكمية: (quantitative methods)

تهدف المناهج الكمية إلى "قياس الظواهر(...و) إن أغلب البحوث في العلوم الإنسانية تستعمل القياس."[3]

[1] Luc Bonneville et autres, op.cit., p .50

[2] **Dictionnaire de philosophie**, op.cit.

[3] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص.100

كما أن من شروط استخدام هذه المناهج أن "الملاحظات تصبّ على مجموعة من العناصر يمكن المقارنة بينها".[1] وبذلك، يمثل هذان المعياران الاثنان شرطين أساسيين اثنين لتبني المناهج الكمية. يعني القياس استخدام كل المؤشرات التي يستخدمها الإحصاء للقيام بمقارنة المعطيات المجمعة من الميدان.

أما أن تصبّ الملاحظات على مجموعة عناصر للمقارنة بينها، فيعني الأمر هنا أن نتعامل مع عدد كبير منها، بغية اكتشاف علاقات رياضية للمقارنة بينها، وذلك لا يمكن أن يتم على عدد صغير من العناصر.

فالغرض من استخدام المناهج الكمية هو الحصول على حقائق تبين العلاقة بين عدة متغيرات على مجموعة كبيرة من الأشخاص تمتد من بعض المئات إلى الآلاف، خصوصا عند القيام بعملية سبر الآراء.

وهذا ما فعلهDurkheim عند دراسته لظاهرة الانتحار، لما ربط هذا الأخير بدرجة انتشار الطلاق في مجتمع ما، رابطا ذلك بطبيعة الانتماء الديني للأفراد في مجتمعات أوروبية مختلفة.

2) المناهج الكيفية: (qualititative methods)

هي مناهج تهدف أساسا "فهم الظاهرة موضوع الدراسة، بحصر معنى الأقوال التي تم جمعها أو السلوكات التي تمت ملاحظتها."[2]

لذلك، لا يتطلب الأمر عددا كبيرا من العناصر كما هو الأمر بالنسبة إلى المناهج الكمية، لأن الأمر يتطلب فهم المعاني والسلوكات والمواقف، ولا يمكن القيام بذلك على نطاق واسع، إذ إن ذلك سيتطلب وقتا وجهدا طويلا. كما أن الهدف لا يتمثل في تجميع معطيات كمية، بل معطيات كيفية تهدف أساسا إلى فهم الظاهرة موضوع الدراسة.

---

[1] Raymond Boudon, op.cit., p.31

[2] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره

فالهدف الأساسي من استخدام المناهج الكيفية هو استخراج المعنى عند وصول الباحث إلى مرحلة التحليل. ولن يتأتى ذلك إلا عبر "عمليات تقنية كالتسجيلات وتقطيع النصوص ووضع المعطيات في جداول. كما يمكن أن تكون هذه العمليات فكرية، كنقل مفهوم إلى آخر وتجميعات حدسية واستقراءات تعميمية، إلخ...".[1]

ومهما بدت المناهج الكمية صارمة ودقيقة، إلا أنها لا يمكن أن تفسر كل الظواهر. هذا يعني بأن هناك بعض مجالات البحث التي يمكن أن تُكمم وأخرى لا يمكن إلا أن تتبنى إحدى المناهج والإجراءات الكيفية.

غير أنه نظرا لتعقد بعض الظواهر، فإن الباحث قد يلجأ في آن واحد إلى المناهج الكمية والمناهج الكيفية، فلا مانع من ذلك، ولا يوجد تعارض في هذه المسألة.

بذلك، أطروحة التمييز بين الكمي والكيفي يصعب تأكيدها. وحتى إنه في بعض الحالات، يمكن توظيف المناهج الكيفية لدراسة ظاهرة ما في مكان المناهج الكمية نظرا "لأسباب تتعلق بمرونتها، الثمن والسرعة."[2]

مثال على نموذج لدراسة في هذه الحالة، هو دراسة قامت بها Mirra Komavorsky تتعلق بتأثير البطالة على مكانة رب الأسرة، انصبت على 59 حالة فقط.

وخلصت إلى نتيجة مفادها بأن "رب الأسرة لا يصبح هو المتسلط في أسرته، وهنالك إضرار بالجو الأسري في حالة الأسر التي كانت تسودها علاقات متساوية بين الزوج والزوجة، بينما مكانة رب الأسرة لا تتأثر في حالة وجود علاقات سلطوية للزوج على الزوجة".[3]

---

[1]Pierre Paillé, Alex Mucchielli, **L'analyse qualitative en sciences humaines et sociales**, Paris, Armand Colin, 3eme édition, 2012, p.15

[2]Raymond Boudon, **Les méthodes en sociologie**, Paris, Presses universitaires de France, 7ème edition,1988, p.116

[3] Raymond Boudon, op. cit. p.117

كان بإمكان الباحثة أن تقوم بدراسة كمية لمقاربة الظاهرة المدروسة. إلا أن هذه الدراسة الكيفية كانت كبديل للدراسة الكمية التي كانت ستكلفها تكاليف باهظة، كما أن الملاحظات كانت أكثر دقة.

٥- التفتح الذهني: (open-mindedness)

لما يتقيد الباحث ببعض الاستعدادات الفكرية التي تعكس الروح العلمية والتي قمنا بتحديدها أعلاه، فإنه بلا ريب سيتبنى طرقا جديدة في التفكير تختلف عما يحدده الحس المشترك، متجاوزا بذلك الأحكام المسبقة والذاتية والتصورات التي كانت لديه مسبقا، وهذا ما يسميه Bachelard **بالمعرقلات الإبستمولوجية** (epistemological obstacles).

في البحث عن المعرفة العلمية ومحاولة فهم وتفسير الظواهر، يرتبط المعرقل الإبستمولوجي **بالأفكار النقيضة** التي هي "أفكار جاهزة وأحكام القيمة والبديهيات الخاطئة"[1] التي يجب تجاوزها لتتقدم المعرفة العلمية، بالتحلي **بالحياد** (neutrality) أمام الظواهر المدروسة التي يجب التعامل معها كما هي، "كأشياء" حسب تعبير Durkheim، وليس كما يجب أن تكون عليه.

فالابتعاد عن الأفكار النقيضة بكل ما تضمه من معارف تنتمي إلى عالم الحس المشترك وطرق التفكير المتعود عليها هو الكفيل بضمان التعامل مع الواقع بكل ما يحمله من متغيرات وأبعاد ومؤشرات. تلك الأفكار النقيضة هي التي تكوّن معرقلا أمام **التفتح الذهني**، لأنها تحمل أفكارا جاهزة سابقة للمعرفة العلمية والتي تمثل تمثلات عن الظواهر قيد الدراسة.

غير أنه من المعروف في التراث العلمي أن الحدس كتمثل للواقع كما يبدو للوهلة الأولى (بدون تفكير استدلالي وروح نقدية) وجه الكثير من الأبحاث في بدايتها (وما زال يفعل ذلك).

---

[1]Madeleine Grawitz, op.cit., p.44

ثم، سيشرع الباحث في الدخول في تلك الحلقة الدورية الضرورية للتحلي بالروح العلمية الضرورية، وسيتكون لديه تصور جديد عن كيفية تحليل وتأويل الظواهر محل الدراسة.

و- الموضوعية: (objectivity)

لم تحدد **الموضوعية** كتصرف يجب أن يتحلى به الباحث من أجل التحلي بروح علمية كآخر محور اعتباطيا. فالموضوعية مسيرة طويلة يصل إليها الباحث وهو يلاحظ، يتساءل ويسائل، يفكر بشكل نقدي معيدا النظر ومشككا في المعارف والمعلومات المجمعة، معتمدا على منهج أو مناهج مناسبة ومتفتح الذهن. وحتى وإن عرضنا الموضوعية كمحور أخير مرتبط كل الارتباط بالروح العلمية، إلا أنها في الواقع تصحب مسار البحث منذ بدايته. تتطلب الموضوعية الحياد، بالتخلي عن كل ما يقترحه الحس المشترك من أفكار وتمثلات وتفسيرات حيث يعتبرها Bachelard عملا بيداغوجيا صعبا.

غير أن لمفهوم الموضوعية عدة معان. فقد يعني عند البعض "الحياد، وبالنسبة إلى آخرين فإنها تعني الابتعاد عن المصالح الذاتية".[1]

كما أنها تُعرف على أنها تلك "القدرة التي لدى فرد، وهو يبحث ليس على ملاحظة الواقع المحيط به بكل حياد فحسب، بل القدرة كذلك على تفسيره كما تقترح ذلك فعلا."[2]

بناء على هذه المفاهيم، فإن الموضوعية تتطلب الحياد من جهة، والابتعاد عن المصالح الذاتية من جهة ثانية، وهي مرتبطة من جهة ثالثة بوصف وتفسير الواقع بكل صدق. **فالصدق، بمعنى** وصف الظاهرة بكل أمانة وبدون تشويه أو تزييف للواقع هو خاصية أخرى تحدد ما تصبو إليه الموضوعية.

---

[1] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص.39.

[2] Luc Bonneville et autres, op.cit., p. 28

ومفهوم الموضوعية يرجعنا إلى مفهوم نقيض له ألا وهـو **الذاتيـة** (subjectivity) التي ترتبط بدورها بمفهوم آخر ألا وهو "المصلحة"[1]، التي ستوجه من البدايـة اختيـار الباحث للموضوع، ثم هي التي ستؤثر في اختيار طريقة البحث. وهذا يجعلنـا نـصل إلى نقطة مفادها أنه لا يجب أن يُفهم أن للذاتية وجه سلبي فحسب. فالمصلحة هي التي ستوجه الباحث محاولاً تـدريجياً تجاوزهـا، والمفـروض أن يكـون دائـم التـساؤل والشك في النتائج الأوليـة التـي توصـل إليهـا، خـصوصا إذا اعتمـد عـلى الاسـتدلال في الدراسات الكيفية. وكـون الباحـث دائـم البحـث عـن تجـاوز الحـس العـام والأفكـار المسبقة، فإن ذلك يمثل خطوة علمية جبارة نحو الموضوعية. وبذلك، فسيرورة العلـوم بشكل عام على اختلاف تخصصاتها ومجالاتها لم تصل بعد إلى الموضوعية، فهي تسعى إلى تحقيقها.

والباحـث ليس شخصا منعزلا عن المجتمـع؛ فهـو يحمـل أفكـارا وتـصورات ونـسقا رمزيا يعبر عن شخصيته وانتمائه لمجتمع ما، لجماعة ما. وبالتالي، فهـو يتـأثر بمحيطـه الذي ينهل منه قيمه ومعتقداته. وهنا، يتساءل Weber عن إن كان بالإمكان "وجـود علم موضوعي، بمعنى غير مشوه بأحكام القيمة، أعمال محملة بالقيم. فالعلم يهدف إلى تحقيق صلاحية شمولية كهدف خاص."[2]

فأحكام القيمة توجه مسار البحـث وتوجـه حتـى اختيـار المواضيع كعمليـة انتقـاء. وهناك أمر آخر يتحكم في موضوعية الطريقـة المنتهجـة، ألا وهـو "نيـة الباحـث"[3]. فـإذا "كان هدفه معرفيا محضا، فهو لا يخضع لنفس التـأثيرات التـي يخـضع لهـا باحـث آخـر يوجهه هدف تطبيقي".[4] وعلى الباحث أن يستعد للتخلي عن الذاتيـة، باسـتخدام **الفكـر النقدي** الذي سيمكنه تدريجيا من تجاوزها محاولة منـه للوصـول إلى الموضـوعية. هـذه

[1]موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص.40

[2]Raymond Aron, op.cit., p.507

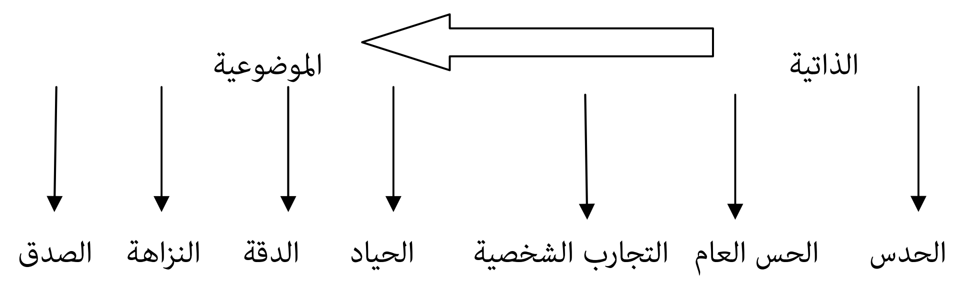
[3]Jean de Bonville, **L'analyse de contenu des médias**, Editions De Boeck, Bruxelles, 2006, p.11

[4]Ibid.

الذاتية مهمة في بداية البحث لأنه على أساسها مثلا سيتم اختيار موضوع البحث. غير أنه على الباحث التخلي عنها تدريجيا حتى يتسم بحثه بالدقة والحياد والصدق.

ومن خلال الرسم الموالي، ستتضح لنا كيفية تجاوز الذاتية:

شكل رقم 1: كيفية تجاوز الذاتية



ما يمكن استنتاجه عند عرضنا لمجموع الاستعدادات المفتاحية التي يجب أن يتحلى بها الباحث، هو أن هذه الاستعدادات بالرغم من تباينها، إلا أنها متداخلة ومتكاملة كإجراءات منهجية تقنية دقيقة تسهم في تكوين الروح العلمية وفي تقدم العلوم.

4) البحث العلمي:(scientific research)

وهكذا يتحقق **البحث العلمي** عند التحلي بمجموعة من الاستعدادات الفكرية والعملية بغية الوصول إلى معرفة الواقع. وفي هذه السيرورة، يصل الباحث إلى المعرفة العلمية التي هو في صدد البحث عنها. وقد يصبو في بحثه عن المعرفة العلمية الإجابة عن مشكلة بحثه، إما القيام ببحث أساسي أو بحث تطبيقي.

فإذا كان يهدف بشكل عام تطوير المعرفة العلمية، فإنه سيقوم **ببحث أساسي** (fondamental research). في هذه الحالة، يسهم بمعارف نظرية تجمع الأوساط العلمية على مصداقيتها. فيبحث مثلا عن تطوير مفهوم أساسي في نظرية معينة، خصوصا عند بروز ظواهر جديدة تتطلب تساؤلات وزوايا جديدة للمعالجة.

أما إن كـان بـصدد البحـث عـن حـل لمـشكلة مـا، فهـو سـيقوم **ببحـث تطبيقـي** (applied research). وبالتالي، يمثل كـل مـن إنتـاج المعـارف العلميـة والبحـث عـن الحقيقة والروح العلمية والبحث العلمي عنـاصر أساسـية لا اسـتغناء عـن أحـدها في عرض الطريقة العلمية التي يجب الامتثال لها، حتـى يتـسم البحـث العلمـي بالدقـة والصرامة.

كان ذلك عن كيفية عرض الطريقة العلمية، بتحديد شروطهـا ومحـدداتها. أمـا في الفصل الموالي، فسأقوم بعرض الأقطاب المنهجية للممارسة العلمية.

الفصل الثاني

الأقطاب المنهجية للممارسة العلمية

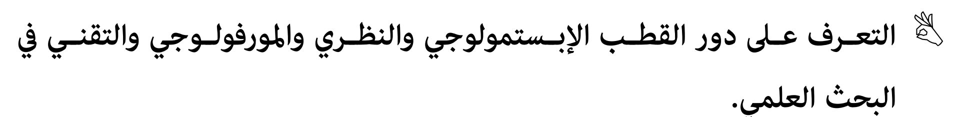
1) القطب الإبستمولوجي
2) القطب المورفولوجي
3) القطب التقني
4) القطب النظري

الأقطاب
المنهجية للممارسة العلمية

أهداف الفصل



- **التعرف على وظائف الإبستمولوجيا.**



- **التعرف على دور القطب الإبستمولوجي والنظري والمورفولوجي والتقني في البحث العلمي.**

يجب أن يعرض التفكير المنهجي عدة زوايا عبر عدة إجراءات إبستمولوجية ونظرية ومورفولوجية وتقنية. والتفكير في **منهجية عامة** (general methodology)يمكن تطبيقها على كل العلوم أمر ممكن التحقيق بالرغم من تنوع وتعدد الحقول العلمية. ووجود بعض الخصوصيات في بعض التخصصات العلمية هو الذي يجعل بعضهم يعتقد استحالة بناء منهجية عامة. غير أن المنهجيات "الخاصة" بمعنى المرتبطة بحقل معرفي محدد، لا تتعارض إطلاقا مع المنهجية "العامة" التي تصبو إليها البحوث العابرة التخصصات.

وعند مساءلتي لبعض المختصين في مجالات علمية مختلفة عن مجال العلوم الإنسانية، اتضح لي بأنهم يجمعون بشكل عام على الخطوات المنتهجة في الأخيرة،

باختلاف التسميات وبوضع بعض العناصر في غير المكان الذي اعتدنا عليه نحن كباحثين في حقل العلوم الإنسانية.

فمثلا، يضع الباحثون في الرياضيات أهمية الموضوع والهدف منه وأسباب اختياره وما توصلت إليه الدراسات السابقة في نفس الموضوع المعالج في المقدمة، بينما نحن في العلوم الإنسانية نحدد -بشكل عام- لكل نقطة من هذه النقاط محورا خاصا كما أنهم لا يخصصون محورا خاصا بالإشكالية التي تظهر في موضوعهم بشكل ضمني. وهذه الاختلافات لا تنقص من صحة الأعمال والنتائج المتوصل إليها، اللـه م كونها اختلافات منهجية لا تفند فكرة إمكانية بناء منهجية عامة.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى، تعقد الإشكاليات في العلوم الإنسانية نظرا للمواضيع الجديدة التي تبين أهمية معالجتها، خصوصا مع الثورة المعلوماتية وتجلياتها والممارسات الثقافية الجديدة يجعل حتمية التعامل بحذر مع رباعية الأقطاب أو اللحظات(instancies) المنهجية: الإبستمولوجية والنظرية والمورفولوجية والتقنية [*]، والتأكد من كل قطب بشكل نقدي ومستمر من بداية الدراسة إلى نهايتها.

والواقع أن هذه الأقطاب المنهجية الأربعة لا تمثل قطيعة بينها، بل هي أقطاب متداخلة ومتفاعلة بينها مما يمنح تلك الصبغة الديناميكية للبحث العلمي.

وهنا، يجد الباحث نفسه في صراع مع الأحكام المسبقة والحس المشترك والمسلمات غير المبرهن عنها، محاولا تجاوزها في سيرورة علمية كثرما تكون مليئة بالثغرات والعراقيل.

[*] تجدون جزءا من هذا الفصل في: لمياء مرتاض-نفوسي، **هندسة التحليل الكيفي**، الأردن، دار أسامة، 2018

1) القطب الإبستمولوجي:(epistemological pole)

للقطب الإبستمولوجي أهمية كبرى في المسار العلمي إذ يُعتبر محركه. والتفكير في قيمة المعرفة العلمية المتوصل إليها يرجعنا إلى "مسألة طبيعة المعرفة وشروط إنتاجها, فهي تنتمي بذلك إلى الإبستمولوجيا."[1]

برهنت الممارسة العلمية في الحقول العلمية المختلفة أن "العلم هو دائما معرّض للخطأ، الشروط التي عن طريقها يمكن فرز الحقيقي عن الخطأ، بالمرور من معرفة أقل صحة إلى معرفة أكثر صحة، وكما يقول Bachelard معرفة "مقتربة" بمعنى مصححة".[2]

يتطلب الأمر إعادة النظر المستمرة في المعارف المتوصل إليها؛ فالمعرفة العلمية في تطور مستمر، ولا أحد يمكنه أن يجزم اليوم أنها وصلت إلى ذروتها. فكم من اكتشاف علمي وصلنا وكم من اكتشاف علمي لم يخطر حتى على بالنا!

ونحن نعرف اليوم مع Kuhn بأن تطور العلم "لا يتم بتراكم المعارف، بل بتحول المبادئ المنظمة للمعرفة."[3] فالمبادئ التي أدت إلى تطور العلم الكلاسيكي لم تعد ذات فائدة لتطور العلم الحديث.

البحث العلمي هو مسيرة مستمرة بين القطيعة (مع أحكام القيمة والحس المشترك) والبناء، عبر تحديد مواضيعه بشكل قاطع من خلال "صياغة وتحويل موضوع المعرفة في حد ذاته، والبناء المنظم وإثبات صحة الظواهر الملاحظة"[4]، عبر تحديد شكل الموضوع الذي لا يتعلق بمحتواه بل باللغة المستعملة فيه. فتُضفى على الموضوع تلك الصبغة

[1]Michelle Lessard, Hébert Gabriel Goyette, Gérald Boutin, **La recherche qualitative**, Montréal, Editions Nouvelles AMS, 1997, p.16

[2] Pierre Bourdieu, Jean-Claude Chamboredon, Jean-Claude Passeron, **Le métier du sociologue**, Paris, Editions Mouton et Bordas, 1968, p.27

[3] Edgar Morin, **Science avec conscience**, France, Fayard, 1982, p. 273

[4]Paul de Bruyne, Jacques Herman, Marc de Schoutheete, op.cit., p.47

العلمية التي تميز حقلا علميا معينا. على هذا المستوى، يتم تحديد "بناء الموضوع العلمي بتحديد التصورات الخاصة بواقع هذا الموضوع."[1]

وشكل الموضوع الذي يُبنى علميا يرتبط أكثر ما يرتبط باللغة العلمية (أكثر من محتواه)، إذ في الأساس "تعلم العلم هو تعلمنا للغته"[2] مما يمنح صرامة للبحث. ولكن ليست أي لغة مستخدَمَة بأي طريقة كانت؛ ففعالية العلم "ترتبط بدقة هذه العملية"[3] التي تحددها بشكل أساسي الإشكالية، بمعنى "ما يمكن أن يُخضِع للتساؤل المنظم جوانب الواقع التي لها علاقة بنسق من الأسئلة".[4]

فالمواضيع التي يتناولها حقل علمي ما لا تُبنى من البداية؛ هي بناء يخضع لمعايير القطيعة مع الأحكام المسبقة والمسلمات غير المبرهن عليها، بناء صارم يمر بمراحل وعبر الملاحظة (observation): الموضوع الواقعي والموضوع المتصور والموضوع المبني. ولا يتأتى التمييز بين هذه الأزمنة الثلاثة إلا عبر القطيعة الإبستمولوجية التي تتم عبر المسافة التي تُؤخذ بشكل مستمر مع الموضوع العلمي في "صراع دائم. في كل لحظة يجب الحذر من الأفكار المسبقة، مما لا نشك فيه."[5]

وبذلك، يضمن القطب الإبستمولوجي ذلك التفكير النقدي لكل ما تنتجه المعرفة العلمية عبر تحديد صارم للموضوع العلمي وتحديد الإشكالية، بالقيام بنقد مستمر مع المعارف التي تنتمي إلى الحس المشترك. وبذلك، يجب أن يضمن القطب الإبستمولوجي بشكل مستمر القيمة الإبستمولوجية للطريقة المنتهجة.

---

[1] Michelle Lessard, Hébert Gabriel Goyette, Gérald Boutin, op.cit., p.14

[2] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص.52

[3] Paul de Bruyne, Jacques Herman, Marc de Schoutheete, op.cit., p.49

[4] Ibid. p. 154

[5] Madeleine Grawitz, op.cit., p.381

2) القطب المورفولوجي: (morphological pole)

تتمثل وظيفة **القطب المورفولوجي** في تحديد الشكل العام والبنية الخارجية للموضوع، محددا قواعد بنائه. **يتم ذلك عبر تحديد شكل الموضوع العلمي الذي يتجسد من خلال ثلاث خصائص:** العرض والسببية والموضوعية.

يُعتبر **العرض** (exposition) الوظيفة التي يتجسد عبرها القطب المورفولوجي بشكل جلي، بحيث يتم "نشر وتوزيع مكاني للأطروحات والأحداث والمفاهيم والاقتراحات والقوانين، الخ... مكان لترابط المعنى وإعداد شكل النظريات والإشكاليات المفيدة للبحث".[1]

فيتجسد العرض **بالأسلوب** (style) الذي يميز باحثا عن آخر، بالطريقة التي يعرض بها نتائجه، **إذ قد يكون** "أدبيا أو أكاديميا أو جدليا أو رمزيا أو مسلماتيا أو شكليا."[2]

فالأساليب متعددة لها بناؤها الخاص، ولا ينقص أحدها عن الآخر فيما يخص الصرامة العلمية. فقد ينتهج الباحث **الأسلوب الأدبي** الذي هو بعيد كل البعد عن الأسلوب العلمي المبني على قواعد تقنية صارمة. وقد ينتهج **الأسلوب الأكاديمي** الذي يقوم بالقطيعة مع الحس المشترك. وقد يتبنى **الأسلوب الجدلي** بغية تقديم الحجج. وقد يتبنى **الأسلوب الرمزي** الذي يُبنى على استخدام الرموز في مجال الرياضيات مثلا. وقد ينتهج **الأسلوب المسلماتي** المبني على تقديم البديهيات. وفي الأخير، قد يتبنى **الأسلوب الشكلي** الذي يصبو إلى تحقيق التجريد. كما أن الأسلوب يرتبط "بالنسق النظري المناسب في مجموعه"[3] وليس بارتباطه بمشكل خاص، بحيث يتم التأكد من صرامة النموذج النظري وليس (كما هو الحال في القطب النظري)،

---

[1]Paul de Bruyne, Jacques Herman, Marc de Schoutheete, op.cit., p.152

[2]Ibid., p.p 152-153

[3]Ibid., p.154

القيام بتأكد إمبريقي عند مقارنة النتائج المتوصل إليها بافتراضات النموذج النظري المتبنى.

3) القطب التقني: (technical pole)

يهتم هذا المستوى بالمعطيات المجمعة من الميدان حيث ستتحول إلى معلومات مهمة تخدم هدف الدراسة وإشكاليتها. وفي هذا السياق، تستخدم العلوم الإنسانية عدة تقنيات تُوظف كل واحدة منها تبعا لهدف الدراسة، إذ قد يصبو الباحث تجميع معطيات كيفية أو معطيات كمية أو الاثنتين معا.

لذلك، فهذه التقنيات توظَّف في أطر عامة لمقاربة الواقع والظواهر الإمبريقية يسميها كل من Jacques Herman و Paul de Bruyne Marc de Schoutheete **بأطر الاستثمار** وهي أربعة: دراسة الحالة والدراسات المقارنة والدراسات التجريبية (سواء في الميدان أو في المخبر) ونماذج المحاكاة الحاسوبية(computer model simulation)، من خلال استخدام تقنيات مناسبة لمقاربة الواقع محل الدراسة.

4) القطب النظري:(theoretical pole)

للقطب النظري بدوره أهمية قصوى في تدقيق الأقطاب المنهجية للممارسة العلمية. من الناحية المنهجية، يمكن هذا القطب من "تنظيم الفرضيات وتحديد المفاهيم (...) وهو يسهم في تحضير وتوجيه جمع المعطيات (...) كما أنه يقوم بوظيفة التحليل بتفسير المعطيات بمقابلتها بالفرضيات المصاغة".[1] فيمكّن هذا القطب من توجيه صياغة الفرضيات وبناء المفاهيم، مقترحا قواعد لتفسير الظواهر.

وحتى وإن كان على المستوى المورفولوجي يتم تنظيم وعرض المعطيات، فإن هاتين العمليتين الاثنتين "تنضمان إلى عمليتين أخريين متصلتين بالقطب النظري: تحليل المعطيات وتفسير النتائج".[2]

[1] Michelle Lessard, Hébert Gabriel Goyette, Gérald Boutin, op.cit., p.17
[2] Ibid., p.61

وعكس ما يعتقده بعضهم، يمكن أن تُنقد نظرية ما بتحليلها لاكتشاف بعض البديهيات التي وضعتها ونقاط الضعف فيها.

ولا يجب أن يبقى مشكلة النظريات في الأساس هو "تفضيلها البقاء في حالة انغلاق"[1] بحيث ترى أنها الوحيدة القادرة على تفسير الواقع ولا أخرى سواها.

فيمكن أن تُنتقد ويتم ذلك على مستويين اثنين:

- "النقد الداخلي للنظريات بمعنى نقد الترابط المنطقي للاقتراحات التي تقدمها النظرية
- النقد الخارجي للنظريات، حتى في مقابلة النظريات ببعضها البعض."[2]

فيما يخص النقد الداخلي للنظريات، فقد تشتمل البعض منها على اقتراحات تتعارض وطبيعة الظاهرة المدروسة، ثم قد تكون بعض المفاهيم غير مبنية بشكل جيد كمفهوم العقلنة؛ وهذا النقد يؤدي إلى التطور العلمي.

أما فيما يتعلق بالنقد الخارجي، فيتعلق الأمر بمقابلة النظريات بمعطيات الميدان التي قد لا تتفق معها، كالنظرية التي تتبنى مسلمة أن التنمية يجب أن تكون مرفقة بخلق الأسرة النووية. فقد بين الواقع عكس ذلك، حيث "في الهند، المرور من اقتصاد التبادل إلى اقتصاد السوق أدى إلى تقوية البنى الأسرية التقليدية"[3].

ويرى Popper أنه يمكن التأكد من صلاحية النظريات من خلال عدة إجراءات: اختبارات العلمية والتفنيدية والتجربة الحاسمة.

أ) الاختبارات العلمية:(scientificity tests)

تتم هذه الاختبارات عن طريق التحقق من النظريات بانتقادها، عن طريق **الاختبارات المنطقية**، انطلاقا من مبدأ أهمية الاستنباط كطريقة تفكير

---

[1] فردريك معتوق، **منهجية العلوم الاجتماعية عند العرب وفي الغرب**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1985، ص.11.

[2] Raymond Boudon, François Bourricaud, **Dictionnaire critique de sociologie**, Paris, PUF, 1982, p.430

[3] Ibid.

تتمتع بصلاحية كبيرة عبر التأكد من انسجامها، وتحديد طبيعة النظرية والطابع المجدد لها حيث لا يجب أن يكون لها نظير.

ثم، عن طريق **الاختبارات الإمبريقية** بحيث يجب معرفة إن كانت النظرية تصمد أمام التطبيقات التجريبية، إذا كانت لها مصداقية أو بالعكس إن كانت مفنَّدَة. وفي الأخير، عن طريق التحكم في نتائج الاختبارات بإعادة التجربة مرات عديدة وعدم التسرع في تحديد النتائج النهائية.

ب) التفنيدية:(falsifiability)

لا يمكن التحقق من نظرية لأسباب منطقية، إذ تظهر دائما على شكل تصريح شامل. ولتفنيدها، يجب القيام بانتقاد هذا التصريح الشمولي بتصريح مضاد بواسطة مثال معاكس.*

ج) التجربة الحاسمة:

هنا، يؤكد Popper على أن العدد الكبير لفشل محاولة تفنيد (تكذيب) النظرية هو دليل على نجاحها، فيرفع من احتمال صدقها. كما أنه يوضح بأن **النظرية العلمية** تتميز بعدم اكتراثها للأمثلة المضادة (against-examples) وبتفتحها على مواجهة نظريات أخرى.[1]

ما يجب الإشارة إليه هو أن تراكم المعلومات لا يعني ظهور علم جديد. فتراكم المعلومات وجمع بعض "القطع" حول ظاهرة ما لا يعني التنظير لها، فالأمر أكثر تعقيدا. وهكذا، يضمن القطب النظري بشكل مستمر كيفية بناء النظريات، التحديد الدقيق والملائم للمفاهيم ونقد المعطيات المجمعة.

وهذا الواقع الذي يعيشه البحث في حقل العلوم الإنسانية يطرح مسائل متعددة، أعرضها في الفصل الموالي.

---

* إذا انطلقنا من تصريح بوجود طيور سوداء فحسب في جزيرة ما، علينا إيجاد طائر أبيض لتفنيد التصريح الشمولي الأول.

[1]Dominique Popelard, Denis Verant, op. cit., p.p 64-67

الفصل الثالث

واقع البحث في العلوم الإنسانية

1)واقع البحث في العلوم

2)نقاط التشابه والاختلاف في البحث في علوم الطبيعـة والعلوم الإنسانية

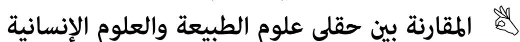
3)واقع البحث في العلوم الإنسانية

واقع البحث

في العلوم الإنسانية

أهداف الفصل


- رصد لواقع البحث في العلوم الإنسانية


- المقارنة بين حقلي علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية

تراكم المعلومات حول ظاهرة ما لا يعني التنظير لها، كما لا يعني ذلك ظهور علم جديد. وقد ينجح الأمر في العلوم التي تستند إلى التجربة، والتي تعود ركائزها إلى Francis Bacon **الذي حدد مراحل البحث العلمي بثلاث:**

1) ملاحظة الظواهر.
2) تحديد الفرضية المستنبطة بالاستقراء.
3) مراقبة صحة الفرضيات من خلال مقابلتها مع مجموعة من الظواهر.

يُعتَبَر Bacon واضع أسس التفكير العلمي الحديث باعتماده على المنهج التجريبي كطريقة للتحقق التجريبي من المعلومات المجمعة، بتصنيفها ومقارنتها ببعضها البعض، مما أعطى دفعا لتطور الأبحاث العلمية بالرغم من الانتقادات الموجهة إليه. غير أن جدة أبحاثه تكمن في القطيعة مع الأفكار السائدة في زمانه.

هذا فيما يتعلق بالتجريب وتجميع الملاحظات في علوم الطبيعة. بيد أن واقع المعرفة فيما يخص العلوم الإنسانية مختلف عن الواقع الأول.

مشكل التنظير في العلوم الإنسانية راجع إلى أننا لا نستخدم التجربة دائما للتأكد من النتائج ولتعميمها كما هو الحال بالنسبة إلى علوم الطبيعة؛ فهنالك مشكل عدم صحة التعميم في العلوم الإنسانية لتميز ظواهرها.

والمعرفة العلمية خصوصا في العلوم الإنسانية لا تصل أبدا إلى ذروتها، إذ هنالك "أسئلة جديدة تُطرَح كلما تطور التاريخ وعلم الاجتماع(...وبذلك) لا يمكن وضع تاريخ أو علم اجتماع كامل".[1]

هذه خاصية البحث في العلوم الإنسانية التي تطورت من خلال الأزمات التي واجهتها المجتمعات في مراحل مختلفة، كالثورة الفرنسية والثورة الصناعية، وحاليا تأثير وسائل الإعلام والاتصال الجديدة في الجمهور وفي البنى التقليدية في المجتمعات خصوصا العربية-الإسلامية.

تشهد المجتمعات تغيرات كثيرة، تُطرَح على أساسها أسئلة كثيرة متجددة، مما يجعل من التنظير مهمة معقدة في العلوم الإنسانية.

وحتى إن العلوم الحديثة بشكل عام تعاني من مشكل التنظير نظرا لطغيان الفكر التقني عليها. فلم تعد تولى أهمية للتنظير لأن العلوم أضحت "تقنية". ولم تكتسب هذه العلوم مكانتها الحالية إلا بعدما أضحت تجريبية وتقنية ورياضية، بسبب دهشة الإنسان وهو يجد نفسه يواجه هذا الكم الهائل من الاكتشافات العلمية والتقنية الذي تقدمه له التقنية الحديثة.

في هذا السياق، يرى Weber أن "العلوم الإنسانية موجَّهَة بالأسئلة التي يطرحها العلماء على الواقع، وأهمية الأجوبة مرتبطة بشكل كبير بأهمية الأسئلة."[2]

فالعلم والتنظير موجَّهان حسب طبيعة الأسئلة التي يطرحها العلماء في مرحلة تاريخية معينة.

[1] Raymond Aron, op.cit., p.503

[2] Ibid., p.509

كان وزال الهدف من أي معرفة علمية هو إدراك الواقع، ببساطته أو بتركيبه. غير أن الواقع متشعب ويمكن إدراكه عبر عدة تخصصات، بل وحتى بتضافر عدة تخصصات نظرا لتعقده.

وقد حازت علوم الطبيعة أو العلوم المسماة "بالصلبة" على مكانتها، منذ أن قامت بتحديد مواضيعها ومناهجها والمشاكل التي تسعى إلى حلها. بيد أن المسألة أعقد لما يتعلق الأمر بالعلوم الإنسانية؛ فهي ما زالت تعاني الأمرين في تحديد مكانتها.

فهل يمكن في الوضع الراهن التحدث في ذات الوقت عن وحدة العلوم (سواء أتعلق الأمر بعلوم الطبيعة أو بالعلوم الإنسانية) وعن تعدد العلوم؟ وهل حتى التفريق بين علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية أمر جائز إبستمولوجيا؟

هل وصلت المعرفة العلمية إلى أوجها؟ أم أنها كما يقول Weber في بحث مستمر للحصول عليها؟

هل يتعلق الأمر بفروق منهجية وإبستمولوجية، أم أن الأمر يستند إلى أحكام قيمة كانت ولا تزال موجودة؟

وهل أثر هذا الواقع في واقع التنظير في العلوم الإنسانية؟

المسألة معقدة ومازال النقاش قائما حولها.

1) واقع البحث في العلوم:

لم يعد ينظر إلى التنظير كما كان من ذي قبل. وقد تطرق إلى هذه المسألة الكثير من المفكرين حيث نجد Aristotle قد قسم العلوم إلى ثلاثة أقسام: علوم نظرية وعلوم عملية وفي الأخير علوم شعرية، معتبرا العلوم النظرية أشرف العلوم، غايتها المعرفة من أجل المعرفة بدون أن يكون لها هدف نفعي أو أخلاقي.

ولم يكن يولي أهمية للتجربة التي كان يعتبرها "اصطناعية" متمسكا بالمسلمات العامة. غير أنه لم تكن قطيعة في فكره بين الحسي والعقلي حيث كان يبرهن بشكل عقلاني على التغيرات المختلفة التي تحدث، مرتكزا على مفاهيم أساسية والمتمثلة في: المادة والصورة والفعل والقوة.

فالحرفي يحول المادة إلى صورة، بمنح الأولى الشكل أو الصورة التي يود الحصول عليه. وبالتالي، فالصورة فعل يتحقق بالقوة على المادة، محددا في آخر المطاف الحالة النهائية والعلة الغائية التي يستهدفها الحرفي من أعماله.

ثم، عرف التنظير تطورات جذرية بفعل اللجوء إلى التجربة، خصوصا مع أبحاث Bacon في كتابه: "الأورجانون الجديد" -كإشارة إلى أورجانون Aristotle الذي أضحى قديما ولم يعد يتماشى مع مستلزمات عصره- المنهج التجريبي، مهاجما القياس الأرسطي، حيث كان من "أعنف من هاجموا الاتجاه النظري الخاص بقياساته العقيمة عند الفلاسفة المدرسيين السابقين"[1]، إذ كان هؤلاء يعتقدون بقدرتهم على حل كل المشاكل عن طريق مجرد التأمل فيها والكلام عنها.

وقد أكد Bacon على مسألة بالغة الأهمية في المنهج التجريبي ألا وهي استخدام الملاحظة، معتمدا بداية على "الجزئيات ليخرج بنتيجة كلية هي قانون من قوانين الطبيعة."[2]

فالاستقراء يمنح للباحث تلك المبادئ الأساسية "للقيام بالتجربة وتنويعها وتطبيقها، إلخ...".[3]

وفي الواقع، ما كان يهم Bacon الأكثر هو "الحالات السلبية"، من خلال تحديد قائمة الغياب أو النفي بعرض الأمثلة المضادة التي من شأنها أن تنفي الفرضيات المصاغة.

والملاحظ أن Bacon قد أهمل وتغاضى عن دور الرياضيات، لأنها بالنسبة إليه "استنباط خالص وتجريب ينأى بالباحث عن الطبيعة والتجريب"[4]، مفوتا عليه الثورة

---

[1] يمنى طريف الخولي، مرجع سبق ذكره، ص.67

[2] نفس المرجع السابق، ص.68

[3] Marie-Dominique Popelard, Denis Vernant, op.cit., p.58

[4] يمنى طريف الخولي، مرجع سبق ذكره، ص.73

العلمية التي بدأت ملامحها تبرز من هنا وهناك، ثورة تدرج في مشروعها الصياغة الرياضية لإدراك الظواهر التجريبية.

استمر تأثير Aristotle في الأوساط العلمية حتى القرون الوسطى، إلى أن جاء Descartes معلنا عن ميلاد منهج جديد[1]*، يتناقض كل التناقض مع منطق Aristotle وسلطة الكنيسة التي كانت لها السلطة والحجة المقدسة، مستبدلا إياهما **بالعقل** (reason). **ويقترح أربع قواعد لتجاوز المنطق الأرسطي:**

"1-لا يجب القول بأن هذا الشيء أو ذاك حقيقي بالحدس

2-تقسيم كل صعوبة التي سأقوم بمعالجتها

3-توجيه أفكاري بالترتيب بداية بالأشياء الأبسط والأسهل

4-القيام بتعداد دقيق وفحوصات جد عامة حتى أتأكد من عدم نسيان شيء."[2]

تؤكد القاعدة الأولى على أن الحقائق لا تُدرك بالحدس الذي يجعل من الأفكار والتخمينات على أنها بديهيات، وبالتالي لا يُشك في حقيقتها. فلا يجب التسرع و"الأخذ بالاعتبار إلا الذي يبدو واضحا ولا يمكن الشك فيه بتاتا."[3]

أما القاعدة الثانية فتشير إلى أهمية التحليل الذي يمكّن من تجزئة الصعوبات إلى عناصرها، مما يسهل عملية حل المشكل.

وعلى العكس، ترتكز القاعدة الثالثة على التركيب عن طريق التفكير في الأمور الأبسط والسهلة الإدراك. وفي الأخير، ترتكز القاعدة الرابعة على التعداد الدقيق وعلى رؤية عامة شاملة حتى لا تُنسى أي تفاصيل. و"التريّث المنهجي الذي يُفرض عبر الطارئ هو الذي يتحكم في هذه القواعد الأربع."[4]

---

* يعرض ديكارت منهجه الجديد في كتابه: **خطاب المنهج (Le discours de la méthode).**

[2] Marie-Dominique Popelard, Denis Verant, op.cit., p.6

[3] René Descartes, **Discours de la méthode**, Tunis, Cérès Editions, 1995, p.20

[4] Guillaume Vannier, **Les grands courants de la pensée moderne**, Paris, Armand Colin, 1999, p.17

وحسب Descartes، يمكن تطبيق هذا المنهج ليس على الهندسة التي تعوّد المختصون فيها تطبيق هذا المنهج فحسب، بل على كل الحقول العلمية المحتواة في شجرة المعرفة التي قام فيها المفكر بتصنيف العلوم إلى علوم الميتافيزيقا الموجودة في الجذور، ثم الفيزياء الموجودة في الجذع، ثم كل من الطب والميكانيكا والأخلاق الموجودة في الأغصان. وبالفعل، نجد Descartes قد وجد في هذا المنهج فائدة علمية كبيرة بحيث قرر "تطبيقه بشكل منفعي على الصعوبات التي تلاقيها العلوم الأخرى".[1]

وبالتالي، يعتبر خطابه حول المنهج "نظرية حقيقية للمعرفة (...) مع هدف بلوغ اليقين الرياضي"[2] نظرا لتميزه بالدقة، مهاجما بشدة الخطابة القائمة على فن الإقناع.

حاول الإنسان منذ الأزل التكيف مع الطبيعة والتصدي لها باكتشاف تقنيات تساعده على البقاء. وهذا التاريخ طويل يعود إلى مرحلة ما قبل التاريخ، حيث قُسم الأخير إلى مراحل حسب الأدوات والمواد المستخدمة في كل مرحلة منه.

غير أن الإنسان بداية كان فنانا قبل أن يكون صانعا. والدليل على ذلك هو قدم النقوش الموجودة والتي كانت تستخدم مواد كالحجر والعاج. حتى مصطلح تقنية باليونانية كان يعني الفن والتقنية في آن واحد. غير أن بين اللفظين الاثنين اختلاف جوهري. بينما "التقنية هي لخدمة حاجات الممارسة، الفن مجرد وليست له أهداف نفعية".[3]

الفن موجود من أجل الفن، كتعبير عن خلجات النفس، هو صادق ولا تهدف الأعمال الفنية في الأصل إلى تحقيق غايات نفعية. بينما لما بدأ الإنسان التفكير في التصدي للطبيعة والتكيف معها، ظهرت فكرة صناعة أشياء وأدوات وتقنيات تمكنه من تحقيق هذا الهدف.

---

[1] Guillaume Vannier, op.cit., p.22.

[2] Céline Bryon-Portet, **Sciences humaines, sciences exactes, Antinomie ou complé-mentarité**, Communication, volume 28/1/2010, Canada, p.p 243-264

[3] Armand Cuvillier, **Cours de Philosophie**, Tome 1, France, Librairie Armand Colin, 1954, p.4

غير أن التكيف مع المحيط خاص بالإنسان. فنجده "يتكيف معه بتحويله، بالعمل، بالتقنية (...) الأداة هي مصنوعة أو على الأقل محوَّلَة، مشكَّلَة، مكيَّفَة لهدف محدد من أجل استخدام عام".[1]

فالتكيف يستدعي تغيير الطبيعة، ملامحها وتحويلها بطريقة عنيفة أحيانا. ولكن، ما علاقة التقدم التقني بمكانة العلم الراهنة؟

أصبحت التقنية مستقلة عن العلم في "سياق التعقيل العولمي، وصارت هي التي تحدد له (للباحث) أفق العمل بحسب الحاجيات التي تحددها السوق الاستهلاكية، وبحسب المشاريع التجارية التي تخطط لها كبرى الشركات".[2]

لم يعد العلم الحديث يرتكز على قاعدة نظرية يعتمد عليها لاكتشاف تقنيات جديدة. كانت التقنية إلى وقت ما تطبيق لما توصل إليه العلم. أما الآن، فقد أضحت للتقنية استقلالية وأصبحت هي التي تحدد مسار العلم حسب طلب السوق. فقد أضحى العلم مجرد سلعة تُطلب، يتم إنتاجها (باكتشاف تقني ما) ويتم تصديرها لصاحب المشروع الذي قام بتمويل البحث. ويتم عادة الأمر عن طريق شركات كبرى أو متعددة الجنسيات.

كما أن هذه الاكتشافات المستمرة والتي لم يعد يتحكم الإنسان في مسارها والتي لم تعد تأخذ بالحسبان الجانب الأخلاقي في البحث العلمي، مآلها أنها أصبحت تنفلت من سيطرة الإنسان باسم العلم والتقدم العلمي.

وفي هذا الصدد، لHeidegger رأي حول العلم وما آل إليه البحث العلمي.

---

[1] Armand Cuvillier, op.cit., p.159

[2] عبد الرزاق بلعقروز، **العولمة في الخطاب الفلسفي العربي المعاصر**، ص.ص31-47 في:
سلسلة أعمال الملتقيات، **العولمة والهوية الثقافية**، جامعة قسنطينة، مخبر علم الاتصال للبحث والترجمة، 2010

فلم تعد تولى أهمية للنظرية، و"العلوم الحديثة فرضت نفسها بعدما أصبحت تجريبية وتقنية ورياضية. ثم إن غياب التأمل بالنسبة للإنسان المعاصر يجد سببه في الانبهار أمام التقدم الباهر للتكنولوجيات الجديدة".[1]

الصبغة التي تميز العلم الحديث هو ليس في كون إضفاء الطابع الرياضي على العلوم التجريبية، بل في ظهور مفهوم جديد للطبيعة المدروسة التي تحول كل الظواهر الطبيعية إلى مجرد أرقام وكتل وأجسام، تتميز عن بعضها البعض من خلال مجرد متغيرات كمية. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، أضحى الطابع التقني هو الذي يميز العلم الحديث. ماذا يعني ذلك؟

لم تعد تولى أهمية للنظرية، فالعلم الحديث بعيد كل البعد عن التأمل الذي كان يميز العلوم إلى وقت ليس بالبعيد.

والباحث أضحى يقوم بتجاربه داخل مخبره، يقترح إطارا تفسيريا للظاهرة المدروسة دائما داخل المخبر، بطغيان الطابع التقني والتطبيقات التقنية على العلم الحديث.

فأضحى يتدخل في كل هذه المستويات ليوجه وييسر بحثه حسب ضوابط تقنية، من منطلق السيطرة على الطبيعة والعالم. وما يحدث اليوم هو أن "إيديولوجية التقانة العلمية تتغذى من عدم قدرة الإنسان الحديث أن يتعرف بواسطة الفكر على القوى المتخفية بين ثنايا التقنية المعاصرة".[2]

ما يريده الباحث هو السيطرة على الطبيعة، بشكل تقني، باستخدام أدوات أو تقنيات عليه أن يتقن استخدامها. وفي هذا السعي نحو السيطرة على الطبيعة والتحكم التقني باستخدام هذه الأدوات، فإنه بدون أن يعي يصبح عبدا لهذه التقنية. كيف ذلك؟

هنا لا يتحدث Heidegger عن البعد الأداتي للتقنية كمجرد أداة يستخدمها الإنسان لتحقيق غاية ما، بل يتحدث عن جوهرها الميتافيزيقي الذي "يفسره شعور البشر بأن إرادتهم تتجاوز أشياء من صنع أيديهم، حيث أصبح الإنسان مكبلا في كل

---

[1] حسن مصدق، **النظرية النقدية التواصلية**، بيروت، المركز الثقافي العربي، 2005، ص.100

[2] حسن مصدق، مرجع سبق ذكره، ص102

مكان بقيود التقنية، لأنها تنمو بسرعة ومفاجئة. أصبحنا اليوم مدينين للكهرباء وآلات الطبخ والغسيل ومكيفات الهواء لا نقدر على الفرار منها".[1]

فبدلا من أن يكون استخدامه للتقنية هو بغية التحكم فيما يحدث في محيطه، أصبح الإنسان هو عبدا لها، لأن نتائج استخدام بعض التقنيات وخيمة وتعود بالضرر ليس على الفرد فحسب، بل على المجتمع برمته.

تكمن خاصية تحليل Heidegger في أنه يمكن إسقاط تصوره للعلم والتقنية على كل مجالات الحياة: الاقتصادية والاجتماعية وحتى العلمية، ليوضح في الأخير المنهجية التقنية التي أضحت تسيطر على مسار البحث العلمي.

ما يميز المجتمعات الغربية عن مجتمعاتنا هو ذلك التطور الذي تشهده على الساحة التقنية والعلمية، والذي اقترن تاريخيا بالعقلانية التي ظهرت مع ظهور التصنيع بأوربا.

بدأ الإيمان بالعقل منذ فلسفة الأنوار في القرن الثامن عشر، حيث أسهم مفكروها بأفكارهم التي تدعو إلى "الإيمان بالتقدم الإنساني والإيمان بالعقل والحذر من الدين والتقليد."[2]

هذا الإيمان الجديد امتدت جذوره إلى زماننا، بتمجيد العقل والفكر العقلاني. اتسم هذا العهد بتمجيد التقدم المقترن بالعقل في جميع مجالات الحياة، وكان "العلم يعد بالتقدم العقلي والأخلاقي للجميع".[3] فكانت دعوة للإيمان بالعقل وبتحدي كل ما هو تقليد وسلطة ودعوة كذلك إلى التفكير.

استنادا إلى هذا التصور، كان العقل هو الذي سيحل محل الأسطورة والمعتقد الديني، حيث كان يعتبر الأخيران معرقلين للتقدم. غير أنه كانت مبالغة في تقديس

---

[1] حسن مصدق، مرجع سبق ذكره، ص.102

[2] **Dictionnaire de philosophie**, 1964, op.cit.

[3] يورغن هابرماس، **التقنية والعلم كإيديولوجيا**، ترجمة: إلياس حجوج، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1999، ص.6

العقل إلى درجة أن الأمور انقلبت إلى عكس ما كانت تصبو إليـه؛ فقـد تحـول العقـل إلى أداة عبادة وتأليه.

حول عصر الأنوار-بدون وعي- هذا العقل التنويري إلى "أسـطورة دينيـة جديـدة من نوع علماني أو دنيوي."[1]

في تمجيده للعقل ولخصائصه وإسهامه في سيرورة التقدم في المجتمعات والمـشروع الحداثوي بأوربا، وبعدما نفى الدور التضليلي للدين والأسـطورة، سـينتج هـذا العقـل بدوره أسطورة تُمجَّد وتقدَّس. ولم تكن هذه الوضعية محصورة في القرن الثامن عـشر، بل امتد هذا التصور التقديـسي للعقـل والعقلانيـة إلى يومنـا هـذا. إن هـذا المـشروع الحداثوي بالرغم من الانتقادات الكثيرة الموجهة إليـه، قـد وجـد مـن يـدافع عنـه في القرن الواحد والعشرين، إذ نجد Habermas يصفه بأنه "مشروع لم يكتمل بعد".[2]

يدافع Habermas عن هـذا المـشروع ويبـين قيمتـه ولا يتفـق مـع تيـار مـا بعـد الحداثة الذي لا يمنح تلـك المكانـة الرفيعـة للعقـل، وتحطيمـه للعلاقـة الجدليـة بـين الحداثة والعقلانية بتبيين التأثير السلبي للتقنية والبيروقراطيـة، مـما ينجـر عـن هـذا الفهم الجديد للعالم الحديث فشل المشروع الحداثوي.

غـير أن Habermas يـرى بـأن هـذه الأزمـة يمكـن حلهـا بـاللجوء إلى **العقلانيـة التواصـــلية** (communicational reason) التـــي تقابلهـــا **العقلانيـــة الأداتيـــة** (instrumental reason).

يعترف Habermas بأن التقنية الحديثة أضحت طاغية على الحياة الاجتماعيـة في المجتمعات الحديثة وأنه لا مفر منها، وحتى إنـه أضـحت لهـا شرعيـة تـستمدها مـن طبيعة النظام الرأسمالي، مشخصا الحداثة الأوربية على أنهـا عقلانيـة أداتيـة، اسـتنادا إلى تحديـد Weber للعقلانيـة والمتجليـة في "ازديـاد الحـسابية والبحـث عـن الـربح

[1] حمد جمال باروت، **الدولة والنهضة والحداثة**، سوريا، دار الحوار، 2004، ص.77

[2] حسن مصدق، مرجع سبق ذكره، ص.119

والسيطرة المنظمة على كل جوانب الحياة الإنسانية، على أساس قواعد قللت من الاعتماد على القيم التقليدية المتوارثة."[1]

هذه العقلانية هي ميزة الحداثة التي عرفتها أوربا بتجسدها على مستويات الحياة المختلفة. في الاقتصاد، بفعل النظام الرأسمالي الذي يميز تنظيم وسير المؤسسات؛ وفي السياسة، بفعل النظام البيروقراطي الذي يهدف تجاوز الأنظمة التي تستند إلى أسس تقليدية أو كاريزمية؛ وفي الأخير، على مستوى البحث العلمي بوضع علم وضعي يستند إلى "الموضوعية (...) برفض أحكام القيمة".[2]

غير أن ما يميز الوضع في المجتمعات الحديثة هو ذلك **العقل الأداتي** الذي "يخضع للحساب الواعي الذي يدرس كيفية الوصول إلى أهداف بحد ذاتها موضوع حساب وغير خاضعة لطابع قيمي، بل لطابع عملي. يتشخص نوع هذه العقلانية في تعامل الإنسان مع الطبيعة وتتجسد في العلم والصناعة والتكنولوجيا الحديثة."[3]

هذه العقلانية هي التي تميز المجتمعات الرأسمالية الحديثة والتي أصبح فيها هذا العقل هو المهيمن. تم تقليص دوره إلى مجرد أداة لتحقيق أهداف معينة، كما تفعل التقنية الحديثة في محاولة سيطرتها على الطبيعة وعلى البشر. فكل فعل إلا ويخضع لمصلحة معينة، بعيدا عن أي اعتبار أخلاقي أو قيمي.

في هذه المجتمعات، فقدت القيم والمعايير مكانتها والدور التوحيدي التواصلي الذي كانت تؤديه إلى وقت ما، مما أفقد المجتمع توازنه، حيث أضحى منقسما إلى قسمين اثنين: "الأول يخص العالم المعيش الذي تقوم بنياته على اللغة والتواصل، والثاني يخص عالم الأنساق الذي يخضع بالأساس للعقلنة الحسابية التي تتميز بالوظيفية والأداتية."[4]

---

[1] حسن مصدق، مرجع سبق ذكره، ص.110

[2] Raymond Aron, op.cit., p.503

[3] حسن مصدق، مرجع سبق ذكره، ص.133

[4] نفس المرجع السابق، ص.114

هنالك هوة بين العالمين الاثنين. من جهة، العالم المعيش الذي يعمل بفعل الدور الذي تؤديه اللغة في سيرورة التواصل بين الأفراد. ومن جهة أخرى، عالم الأنساق الذي يتسم بالعقلنة المطبقة على كل جوانب الحياة والذي يطغى عليه طابع الحسابية والمصلحة. فما هو الحل الذي يقدمه لنا Habermas للقضاء على هذه الهوة الموجودة بين العالمين الاثنين؟

لسد هذه الفجوة، يقول Habermas إنه يجب العودة إلى "المعايير التي ستسد الفجوة لكونها الوحيدة القادرة على إدراج الأنساق في الحياة المعيشية، والحفاظ على لحمة المجتمع وإعادة التوازن بينهما".[1]

فنحن نعيش في عالم فقدت القيم والمعايير دورها في توجيه سلوك الأفراد، في عالم عمت فيه الفردانية وقل فيه التواصل الاجتماعي، لينتج عن هذا الوضع تفكك النسيج الاجتماعي وحالة الاختلال الوظيفي للبنى الاجتماعية التي أصبحت في حالة فقدان توازن. وللقضاء على هذه الوضعية، يقترح Habermas مفهوم **العقل التواصلي** الذي هو تصور خاص يرى عن طريقه المفكر أنه سيتم "تنظيم عملية التفاعل بين أفراد المجتمع ويصوغ فهم الجماعة لذاتها. ويظهر هذا النوع من العقلانية في المجال الأخلاقي والسياسي الذي ينظم الشرائع والمعايير الجاري العمل بها".[2]

يُعتبر العقل التواصلي مشروعا بديلا يتم من خلاله التفاعل بين أفراد المجتمع، يطبق على مجالات الحياة المختلفة وتحديدا على مستوى الأخلاق والسياسة. كيف يكون ذلك؟

يتجسد ذلك العقل التواصلي من خلال التفاعل كنشاط تواصلي بين الأفراد "بواسطة الرموز والقواعد الإجبارية التي تحدد ما يتوقعه طرف من سلوك الطرف الآخر. وتستمد هذه الرموز معانيها من اللغة الجارية."[3]

---

[1] حسن مصدق، مرجع سبق ذكره، ص.117

[2] نفس المرجع السابق، ص.133

[3] نفس المرجع السابق، ص.109

سيتم تواصل الأفراد من خلال استخدامهم للغة المتفاهم عليها، فيتم التفاعل بينهم. حتى وإن كانت حالة العقل التواصلي حالة افتراضية، غير أنه لا يخفى على أحد الدور الذي تؤديه اللغة بشكل عام والتواصل بشكل خاص في التفاعل بين الأفراد. ويؤثر هذا التصور للعقلانية في واقع الاكتشافات العلمية والتقنية، حيث تُمنح قيمة وأولوية للعلوم التجريبية كعلوم تستند إلى الإنجازات التقنية. من هذا المنظور، يريد Habermas البحث عن "حل عقلاني للتقنية التي أُطبقت على العالم المعيش واستفردت به من جميع الجهات. فهو يقر بأننا نعيش عصر الرأسمالية المتقدمة القائمة على التقنية، بل إن شرعيتها أصبحت مستمدة منها. فلا سبيل إذا للهروب منها إلى الماضي."[1]

أصبحنا لا نستطيع الاستغناء عن التقنية في حياتنا اليومية والمطبقة على كل جوانبها، حيث أضحت جزءا لا يتجزأ من الواقع المعيش، وخلق واقع جديد في مجال "التنفيذ التقني المتميز بسرعة التغيرات".[2]

هنالك ثورة تقنية وعلمية تعززها الاكتشافات التقنية من جهة، ومن جهة أخرى سرعة التغيرات التي تحدث على هذا المستوى والتي تعزز وتقوي من وتيرة هذه الاكتشافات المتواصلة، ولهذه السرعة في التغيرات دلالة رمزية حيث تعدو "كل آلة جديدة رمزا للمعاصرة".[3]

هذا من جهة. ومن جهة أخرى، لهذه الثورة التقنية العلمية نفس دور الثورة الصناعية، فهي "ثمرة التقاء ديناميكيات واكتشافات متعددة ومختلفة"[4]، لكنها أكثر تأثيراً في الحياة الاجتماعية وأكثر هيمنة على المجتمعات، خصوصا على التي

[1] حسن مصدق، مرجع سبق ذكره، ص.108

[2] Alain Touraine, **La société post-industrielle**, Paris, Editions Denoël, 1969, p.84

[3] Ibid.

[4] سمير أمين، برهان غليون، **حوار الدولة والدين**، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1996، ص.158

تستهلكها فحسب، إذ قامت "بكسر كل التوازنات المحلية والدولية القديمة، وأفقدت القسم الأعظم من مجتمعات العالم قدرتها على التحكم بمصيرها".[1]

يرى Marcuse بأن "التكنولوجيا تمكن من تأسيس أشكال جديدة للمراقبة وللتلاحم الاجتماعي وفي نفس الوقت أكثر فعالية ومتعة. ويوجد شكل لهذا الاتجاه الشامل: لقد امتد لمناطق العالم الأقل نموا وحتى ما قبل الصناعية، خالقة تماثلات بين نمو الشيوعية والرأسمالية".[2]

لا يجب أن ننسى بأن النسخة الأصلية لكتاب: **"الإنسان ذو البعد الواحد"** قد صدرت عام 1964، في فترة كانت تتسم بوجود نظامين مهيمنين اثنين: الاشتراكي والرأسمالي. لذلك، فالمؤلف يشير إلى كليهما. ويقول بأن التكنولوجيا خلقت أشكالا جديدة للمراقبة والهيمنة، وأعتقد بأنه يقصد بذلك تلك الهيمنة الرمزية الخفية التي تمس حتى التصورات، والتي امتدت إلى الدول الأقل نموا من الدول المصنعة وحتى إلى الدول التي لم تعرف التصنيع. وهنا إشارة إلى العولمة التي خصت مجال التكنولوجيا والتي لم يتكلم عن بعدها العولمي آنذاك، لأنه لم يكن النظام الشيوعي قد انهار وقتها، ولم تكن هناك ثورة علمية وتكنولوجية بذلك الامتداد الذي نشهده اليوم.

كما يشير Marcuse إلى الطابع التقني الذي أضحى سائدا في المجتمعات خالقا علاقات جديدة معيدا إنتاجها باستمرار، وإلى الطابع العقلاني الذي يميز هذا الواقع، حيث "أعاد المجتمع إنتاج نفسه عبر مجموعة من الأشياء والعلاقات أكثر فأكثر تقنية، بعبارة أخرى، النضال من أجل البقاء، استغلال الإنسان والطبيعة أصبحا أكثر فأكثر علمية وعقلانية. يجب أن يوضع المعنى المزدوج "للعقلانية" في هذا السياق (...) ترتبط العقلانية التقنية والعلمية واستغلال الإنسان ببعضهما البعض في أشكال جديدة للمراقبة الاجتماعية"[3]، حيث تمتد هذه المراقبة الاجتماعية إلى المستوى العالمي.

[1] سمير أمين، برهان غليون، مرجع سبق ذكره، ص.157.

[2] Herbert Marcuse, **L'homme unidimensionnel**, traduit par : Monique Wittig, Paris, les Editions de Minuit, 1968, p.24

[3] Ibid., p.187

فأضحى العلم يُطبق على مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة، مهيمنا على تصرفات الأفراد مما يجعلهم غير مستقلين وغير أحرار في اختياراتهم. كما نجد Marcuse ينتقد التجريب الذي تقوم به بعض الدول، مبينا بأن السياق أضحى شموليا مصرحا بأن "هذا العالم الإمبريقي هو اليوم كذلك عالم غرف الغاز ومعسكرات الاعتقال، عالم هيروشيما وناغازاكي، عالم البانتغون والكريملان، عالم المدن النووية والتجمعات الصينية، عالم كوبا، عالم غسيل المخ والمجازر".[1]

يوضح هذا الاستشهاد مدى خطورة الاكتشافات العلمية التي إن طُبقت في الميدان، فإنها في الأخير لا تمكّن أصحاب القرار إلا بالقيام بالمراقبة والهيمنة.

نجد في هذا السياق * Fukuyama يشير إلى خطورة استخدام التكنولوجيات الجديدة، محددا كيف أن الناس قد فهموا خطورة الأمر لما انفجرت أول قنبلة نووية بالمكسيك الجديد عام 1945. غير أنه لم يشر بتاتا إلى القنبلتين النوويتين اللتين انفجرتا باليابان واللتان أتتا على الأخضر واليابس وحصدتا أرواح الآلاف من الأشخاص، ناهيك على التشوهات الجسدية التي عانت منها أجيال من اليابانيين وما زالت تعاني منها إلى يومنا هذا.

ويفسر لنا برهان غليون جوهر الوضعية الحالية، التي بالنسبة إليه لا تتمثل في "انهيار التجربة الرأسمالية (ولكنها تكمن في) تقدم الثورة التقنية والعلمية وتدميرها للنظم الاجتماعية والاقتصادية التي لا تتمتع بالمزايا الضرورية للتأقلم معها واستيعابها أو السيطرة على مضاعفاتها".[2]

---

[1] Herbert Marcuse, op.cit., p.227

* انظر في هذا الصدد:

Francis Fukuyama, **La fin de l'homme**, traduit par : Denis-Armand Canal, Paris, La Table Ronde, 2002, p.267

[2] سمير أمين، برهان غليون، مرجع سبق ذكره، ص.162.

كان ومازال للثورة التقنية والعلمية تأثير في البنى الاجتماعية والاقتصادية في جميع المجتمعات، خصوصا في مجتمعات العالم الثالث لأنها لا تنتج التقنية والعلم، بل تستهلكهما فحسب.

واستنادا إلى مقولة Bunge: "لما لا توجد نظرية لا يوجد علم"، فإنه كان لبناء النظرية دور جوهري في البحث العلمي حيث كانت إلى وقت ليس بالبعيد هي الهدف الأساسي من القيام به.

استمر النزاع حول دور النظرية خصوصا في حقل العلوم الإنسانية، وفي إمكانية صياغة نظرية شمولية تمكن من إدراك الظواهر "الكبرى" برمتها وليس أجزاء منها.

حتى إن المسألة تعلقت بمكانة هذه العلوم في حد ذاتها (بداية بمكانة علم الاجتماع ثم تعمم الإشكال إلى العلوم الإنسانية الأخرى) مقارنة بالعلوم الدقيقة والمسماة "بالصلبة" (hard).

فقد حاول Descartes وضع منهج يمكن تطبيقه على كل العلوم، باختلاف مواضيعها وحقول البحث فيها. غير أن مسألة وجود علم شمولي تعثرت بفعل هيمنة وصدارة الرياضيات.

وجاءت مجموعة من المفكرين لتفند دور"الخيال" (imagination) في المسار العلمي، حيث ندد به كل من "سبينوزا وليبنيز معتبران إياه مصدرا للوهم (...) واستمر هذا الوضع إلى عصر الأنوار الذي منح للعقل مكانته المرموقة"[1]، إلى أن جاء القرن التاسع عشر مع الوضعية التي مثلها Comte. قسم هذا الأخير تطور العقل البشري إلى ثلاث مراحل: الحالة اللاهوتية والحالة الميتافيزيقية والحالة الوضعية، حيث يرمي العلم الوضعي عرض الحائط كل تفسير من خلال قوى غير مرئية أو من خلال مبادئ مجردة؛ "فهو يبنى على التفسير الذي يمنح للظواهر الموضوعية المجمعة".[2]

---

[1] Céline Bryon-Portet, op.cit.

[2] Mostefa Boutefnouchet, **Introduction à la sociologie, les fondements**, Algérie, Office des Publications Universitaires, 2eme édition, 2012, p.202

يستند الوضعيون إلى تحديد "القوانين العامة التي تتحكم في الظـواهر مـن خـلال ملاحظة معطيات التجربة."[1]

غير أن بعض الملاحظات لا تكفي لصياغة القوانين، إذ يجب أن تتكـرر الملاحظـات المجمعة؛ فلا يمكن إدراك الواقع بشكل مباشر إلا من خلال إدراك انتظام العلاقـة بـين الظواهر وديمومتها، مما يؤدي إلى سن قوانين. هذه الأخيرة هي نتاج "استقراء موسـع الذي يطبق على كل الحالات المتضمنة في القانون العلاقة المؤكَدَة، مـن خـلال حـالات فحسب."[2]

وبالتالي، تكون للقوانين التي تسن على هذا المنوال "مكانة تعميم إمبريقي"[3]. وبمـا أن الهدف النهائي من القانون هو التنبؤ، فلا يمكن أن يضمن تحقيـق هـذا الهـدف إلا إذا تكررت الملاحظات واتسمت بالديمومة.

وللتأكد من انتظـام العلاقـات بـين الظـواهر ومـن صرامـة البحـث العلمـي، يلجـأ الوضعيون إلى استخدام التحليل الإحصائي وإلى التكميم.

وقد لاقى علم الاجتماع العديد من المعـرقلات مـن طـرف الوضـعيين أنفـسهم، إذ يصعب القيام بدراسات موضوعية ويقينية حيـث يكـون عـالم الاجـتماع هـو الـدارس وهو في ذات الوقت من نفس طبيعة موضوع الدراسـة؛ فنجـد Norbert Elias يبـين أن هنالك تناقض جلي بين العلوم "الـصلبة" (hard) والعلـوم "الناعمـة" (soft)حيـث يصنف الأولى ضمن ""فئة التجـاوز"، بمعنـى في فئـة التحليـل الموضـوعي والتـي هـي بعيدة عن المشاعر حيث ينعتها على أنها "علمية"، بينما يضع الصنف الثاني في مسافة وسط بين "التجاوز" وفئة "الالتزام"، ممثلة طريقة ذاتية ومحملة عاطفيا".[4]

أضف إلى ذلـك مـسألة في غايـة الأهميـة، إذ إن الأمـر يمـس أيـضا مكانـة العلـوم "الصلبة" وعلاقتها بالعلوم "الناعمة"، حيث "كلما رفضت العلـوم الدقيقـة الخـصائص

[1] Mostefa Boutefnouchet, op.cit., p.202.
[2] Paul De Bruyne, Herman Jacques, Marc De Schoutheete, op.cit., p.133
[3] Ibid., p.135
[4] Céline Bryon-Portet, op.cit.

التي تميز العلوم الإنسانية والاجتماعية، كلما عززت الأخيرة موقفها وقعدت لتفردها وتميزها."[1]

ظهرت "الروح العلمية الجديدة" إثر ظهور نظريات حلت مكان نظريات كلاسيكية كان يعمل بها لوقت طويل، المستندة أساسا إلى المنطق الأرسطي والفيزياء غير النيوتونية؛ فحول فكر Newton البحث العلمي إلى ثورة علمية حقيقية.

فقد كان يعتقد –استنادا إلى تصور Aristotle- أن العالم قسمان اثنان: عالم تحت القمر الذي يتكون من أربعة عناصر وهي: التراب والماء والهواء والنار، وهو في تحلل وتكون وتغير، وعالم فوق القمر بمعنى القمر وما يوجد فوقه من كواكب وأجرام ونجوم؛ هو عالم محدود ومتناه وبالتالي هو عالم الثبات والتناهي.

ففكرة وجود عالم لا متناه كانت غير واردة، حيث كان ينظر إلى الكون على أنه أزلي وغير قابل للفساد.

غير أن هذه الأفكار التي راجت لعشرين قرنا بدأت تتغير بعد القرن الخامس عشر لما طور Galilée المنظار، مراقبا عن طريقه ما يحدث في الفلك، مؤكدا على فكرة مفادها أن الكون عرضة للتغير. كما أنه أقام قوانين تحدد كيفية سقوط الأجسام وأن الأصل في الأجسام هو الحركة (خلافا لما كان يقوله Aristotle). غير أنه تبعا ل Aristotle فقد كان Galilée متخوفا من فكرة اللامتناهي، مانحا للكون حركة دائرية.

ثم جاء بعده Newton ليحدث ثورة علمية من خلال الأفكار التي كان ينشرها، مبينا قوة الجاذبية لشرح الحركة، حيث تكون هي (أي الجاذبية) المسؤولة عن سقوط الأجسام وحركة الكواكب على حد سواء.

المعلوم أن الأفكار التي طورها Newton لم يكن هو الأول الذي تحدث عنها، غير أنه كان الأول الذي أسس على أساسها نسقا علميا متناسقا ومتكاملا. فقد استفاد من

[1] Céline Bryon-Portet, op.cit.

جهود سابقيه وطورها، مستعينا بالرياضيات لصياغة قوانينه الثلاثة للحركة والمتمثلة في:

"1- كل جسم يظل على حاله سكونا أو حركة في خط مستقيم، ما لم يجبره مؤثر خارجي على تغيير حالته.

2-معدل التغير في العزم يتناسب مع القوة المؤثرة في الجسم، ويكون اتجاه العزم هو نفسه اتجاه القوة المؤثرة.

3-لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومعاكس في الاتجاه."[1]

فقد قام ببناء أسس الديناميكية بتبيين علاقة الكتلة بالسرعة، مميزا بين مفهومي: الكتلة والوزن، إذ "الكتلة هي مقدار ما يحتويه الجسم من مادة، أما الوزن فهو مقدار جذب الأرض للجسم."[2]

كما أسس نظريته عن "التفاضل أو حساب اللامتناهي"[3]، مدمجا الرياضيات لتفسير الظواهر الفيزيائية، كما أنه اهتم بالبصريات، فقام باكتشاف ألوان الطيف السبعة، وغيرها من الاكتشافات المتعددة.

بيد أن الفيزياء الكلاسيكية قد بينت حدودها التي كانت ترتكز على مبدأ بقاء المادة، حيث أكد Einstein في نظريته النسبية على أن الكتلة تتغير.

وبينت بعض الفرضيات في القرن العشرين التي أثبتت صحتها استنادا إلى تحليل رياضي (الذي طالما كان إثباتا علميا ومقياسا صارما) "حدوث فناء للمادة في الأعماق السحيقة للفضاء (...) وأن عملية الفناء تحدث في أعماق النجوم تلقائيا، بتلقائية تفكك ذرات المواد ذات النشاط الإشعاعي ذاتها".[4]

---

[1] ج.د. برنال، **موجز العلم في التاريخ**، إعداد: الفيشاوي سعد، بيروت، دار الفارابي، 1982، ص.ص 83-84

[2] نفس المرجع السابق، ص.85.

[3] نفس المرجع السابق، ص.89.

[4] نفس المرجع السابق، ص.114.

بيد أن هذه ليست بالفروض التي أثبتت صحتها كل الصحة، ولكنها تـرجح إلى أن الكون ليس نسقا ميكانيكيا مغلقـا كـما كـان يعتقـد إلى زمـن لـيس بالبعيـد، كـما أن "التسليم بكمية المادة فيه ليس أمرا بسيطا (... و) كميـة المـادة يمكـن تقـديرها عـلى أساس حركة الكواكب".[1]

عبر هذه الأمثلة التي تعرض تطور الفكـر العلمـي بإيجـاز، يتـضح لنـا بأنـه لـو لا الشك لما توصلت البشرية إلى المعارف التي تعرفها اليـوم، كـما يتـضح لنـا بـأن تطـور المعرفة العلمية لم يكن خطيا؛ هو تطور مليء بالمعرقلات والقطائع والتصحيحات.

كما يتبين لنا أمر في غاية الأهميـة ألا وهـو أن المعرفـة العلميـة لم تـصل بعـد إلى ذروتها ولا يمكن أن تصل إلى ذلـك يومـا؛ هـي دومـا في صراع دائـم بـين هـدم وبنـاء. وتتعلق هذه المسائل بتطور البحث العلمي في مجال علوم الطبيعة.

وإن بين هذا الواقع أمرا فهو أن العراقيل كانت مـصاحبة لتطـور البحـث العلمـي بشكل عام، وأن المعرقلات والعقبات لم تكن حكرا على تطور البحث العلمي في مجال العلوم الإنسانية.

عانت هذه الأخيرة من نفس المعرقلات التي صاحبت تطور الفكر العلمي في علوم الطبيعة، إلا أن هذه المعرقلات كانت أكثر بروزا في العلوم الإنسانية.

من بين المعرقلات الأساسية التي أدت إلى تأخر بروز العلوم الإنسانية كعلوم قائمـة بحد ذاتهـا، لكـل واحـد منهـا اسـتقلاليته ومواضـيعه ومناهجـه والمـشاكل التـي يـود معالجتها، أن الأحكام المسبقة متجذرة في فكر الباحث الذي هو في ذات الوقت يعالج مواضيع من نفس طبيعته حيث تطغى في الكثير من الأحيان الذاتية. هذا مـن جهـة. ومن جهة أخرى، يجب ألا ننسى بـأن هـذه العلـوم في البحـث الطويـل عـن مكانتهـا وإبراز علميتهـا، توجهـت إلى تبنـي المنـاهج التـي نجحـت بـشكل ملحـوظ في علـوم الطبيعة وعلى رأسها المنهج التجريبي.

---

[1] ج.د. برنال، مرجع سبق ذكره

بيد أننا نعلم صعوبة تطبيق هذا المنهج على كل العلوم نظرا للطبيعة البشرية التي تجعل من الأفراد متغيري السلوكات والاتجاهات والمواقف، وبذلك يصعب -وحتى يستحيل في الكثير من الأحيان- إعادة التجربة.

كما أن مسألة البرهنة معقدة في العلوم الإنسانية، إذ الكثير من المسائل النظرية والإبستمولوجية يمر عليها الباحثون مرور الكرام ولا يولون لها أهمية.

2) نقاط التشابه والاختلاف بين البحث في علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية:

لطالما بحثت العلوم الإنسانية عن مكانتها العلمية، ولم تنفصل عن العلوم الأخرى وعن بعضها البعض وتتخصص كعلوم قائمة بحد ذاتها إلا ابتداء من القرن التاسع عشر. وقد اقترنت هذه التخصصات التي تولدت عن كل واحد منها تخصصات فرعية اقترنت بدورها بالتطورات التي عرفتها المجتمعات الغربية. وعلى سبيل المثال انفصل علم الاجتماع عن الفلسفة، الديمغرافية عن علم الاجتماع، وتخصص علم الاجتماع ببعض المواضيع الأمر الذي أدى إلى ظهور تخصصات فرعية داخله كعلم الاجتماع الديني والثقافي والتربوي والسياسي، إلخ...

تختلف العلوم الإنسانية عن علوم الطبيعة، اختلافا نظريا وإبستمولوجيا عن بعضها البعض. يبرر Passeron هذا الاختلاف بكون العلوم الإنسانية "علوما تاريخية: تتقاسم نفس النظام الإبستمولوجي، وبالتالي تتميز إبستمولوجيا عن علوم الطبيعة. لا توجد إمكانية بلوغ مكانة العلم "العادي"، ذي النموذج الموحد في العلوم الاجتماعية. وبذلك، التعدد النظري والتنافس بين النظريات التي هي صالحة هو الشكل العادي للحصول على المعرفة في العلوم الاجتماعية".[1]

---

[1] Claire Saillour, **Passeron et le pluralisme irréductible des théories en sciences sociales**, www.implications-philosophiques.org/.../passeron-et-le-pluralisme-irreductible-des-théories-en-sciences-sociales, consulted on August 28 th, 2018

فالعلوم الإنسانية تاريخية بالأساس بينما علوم الطبيعة تجريبية، مما يجعل منطق بناء الحجة مختلفا من حقل إلى آخر. بالنسبة إلى Passeron، ما يميز العلوم الإنسانية هو بعدها التاريخي الذي لا يمكن التغاضي عنه، وهذا البعد التاريخي هو الذي يميز التنظير في حقل العلوم الإنسانية محددا السياق الذي ظهرت وستطبق فيه. بينما في علوم الطبيعة بفعل قدرتها على بناء الحجة وعلى إمكانية إعادة التجربة، فإن القوانين التي تتحكم فيها هي قوانين "شمولية"، لا ترتبط لا بالسياق ولا بالفضاء الذي نشأت فيه. وبالتالي، التأكد من مدى صحة الافتراضات في كلا الحقلين الاثنين مختلف في كليهما.

بالتأكيد أن لكل من حقل علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية أسسه الإبستمولوجية الخاصة التي يرتكز عليها. وفي سعيها لتحديد وحتى فرض مكانتها العلمية، تسعى العلوم الإنسانية منذ انفصالها عن علوم الطبيعة إلى تقليد مناهج وتقنيات البحث في الأخيرة، معتبرة إياها نماذج يُقتدى بها.

ويكمن الفرق بين حقلي علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية في أن الأولى تبحث في الفضاء الفيزيقي بمعناه الواسع، بكل ما يتضمنه من ظواهر طبيعية التي تكون محل دراسة تخصصات معينة، كعلم الفلك والبيولوجيا والكيمياء أو الفيزياء، التي يُوظف فيها المنهج التجريبي بشكل يكاد يكون شاملا، ما عدا بعض العلوم التي تستخدم الاستنباط كالرياضيات.

أما العلوم الإنسانية فهي تخص بالدراسة الإنسان، فهم تصرفاته والمعنى الذي يمنحه إياها. ومن بين فروعها نجد علم الاجتماع الذي يبحث عن تفسير الظواهر الاجتماعية وعلم النفس الذي يصبو إلى دراسة الظواهر النفسية.

ولكن، **كيف هي طريقة عمل علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية؟**

علوم الطبيعة "تحاول اكتشاف العلاقات بين الظواهر أو المواضيع المادية".[1]

[1] Maurice Angers, **Initiation à la méthodologie des sciences humaines**, Alger, Editions Casbah, 2015, p.50

وبغية تحقيق هذه الوظيفة، فقد استخدمت علوم الطبيعة كل التقنيات المتقدمة التي توصلت إليها البشرية. فبعدما اختُرع المجهر لدراسة الكائنات الدقيقة التي تعجز العين المجردة من ملاحظتها، اختُرع المجهر الإلكتروني الماسح الأرضي الذي يمكّن من التكبير 1000000 مرة. كما اختُرع التليسكوب لملاحظة الأجرام السماوية، والذي منذ اختراعه وهو يعرف تطورات تؤدي باستمرار إلى تحسين عدسته لملاحظات أكثر فأكثر دقة، وغيرها من الاكتشافات التقنية التي أدت بشكل تراكمي إلى اكتشافات علمية. وعلوم الطبيعة في تطورها استخدمت وما زالت تستخدم المنهج التجريبي بكل مراحله العلمية مما يؤدي إلى التحكم في التجربة وإعادة إنتاجها كلما استدعت الضرورة.

أما في العلوم الإنسانية ولو أن المنهج التجريبي يُوظف في بعض الحقول العلمية داخله خصوصا في علم النفس، إلا أن الظواهر التي تدرسها هذه العلوم تستند إلى دراسة تصرفات البشر.

فيما يخص نقاط التشابه بين موضوعي الحقلين الاثنين، تكمن النقطة الأولى في أن لكليهما "**تاريخانية** (historicity) (...) بحيث عرفت الأرض تطورا، وللإنسان تاريخ فردي وجماعي".[1]

ثم، إننا نعرف بأن الملاحِظ (أي الباحث) في العلوم الإنسانية هو من نفس طبيعة الملاحَظ (أي المبحوث)، مما ينتج عن هذا الأمر من تعقد وصعوبة في تجاوز الذاتية والحس المشترك. غير أننا ندرك حاليا "من خلال نتائج بعض التجارب الفيزيقية على الجزيئات (particles) أن وجود الباحث يؤثر في دراسة الظاهرة".[2]فهنالك **تفاعل بين الباحث وموضوعه**. وفي الأخير، تتمثل نقطة التشابه الأخيرة في أن موضوع علوم الطبيعة "نوع من الاستقلالية"[3]، شأن ذلك شأن الكائن البشري.كان ذلك عن نقاط التشابه بين موضوعي علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية. أما عن نقاط الاختلاف، فيكمن

[1] Maurice Angers, op.cit., p.53.

[2] Ibid.

[3] Ibid.

الاختلاف الأول في كون الإنسان "**يشعر** * **بوجوده**"[1]، أما الكائن المادي (الذي هو موضوع علوم الطبيعة) فهو لا يشعر بذلك. وهكذا، يمكن أن يقوم الباحث بأي تجربة على الكائن المادي بدون أن يتدخل الأخير في التجربة، بينما الكائن البشري ليس سلبيا أمام الباحث في العلوم الإنسانية، إذ يمكنه أن يعدّل من التجربة أو الدراسة من خلال مراوغته مثلا أو عدم التصريح بتصريحات حقيقية عن مسألة ما.ثم، تتمثل نقطة الاختلاف الثانية في كون الكائن البشري "**يمنح معنى** لما يحيط به"[2]، يفهمه ويفسره، ولا يمكن هذا الأمر للكائن المادي أو الطبيعي.أما نقطة الاختلاف الثالثة فتكمن في كون "**الباحث أو الباحثة هو من نفس طبيعة الموضوع** في العلوم الإنسانية"[3]. وهنا الخطر أكبر مقارنة بالبحث في علوم الطبيعة (حيث يكون الموضوع في الأخيرة مختلفا عن طبيعة الباحث)، إذ يجب على الباحث أن يكون حذرا لما يقوم بفهم وتأويل النتائج، حيث التجارب الخاصة بالباحث ودوافع القيام بتصرف ما أو منح تصور معين حول مسألة تخص موضوع البحث، ليس شرطا أن تكون نفس تجارب ودوافع وتصورات المبحوثين.

وبما أن طبيعة الموضوع والباحث هي نفسها في العلوم الإنسانية، الوصول إلى الحياد مسألة صعبة، بمعنى الوصول إلى تأويل النتائج (خصوصا في البحوث الكيفية) بشكل بعيد عن الأحكام المسبقة واتجاهات الباحث الإيديولوجية والثقافية والعقائدية. ومما يزيد من تعقد هذه العلاقة، أن "نتائج علوم الطبيعة تخصنا بشكل أقل مباشرة من تلك الخاصة بالعلوم الإنسانية".[4]

* التغليظ من عندي

[1]Maurice Angers, op.cit., p.51

[2]Ibid.

[3]Ibid.

[4] François Dépelteau, **La démarche d'une recherche en sciences humaines**, Canada, Editions De Boeck, 2010, p.83

فاكتشاف أن العنكبوت الأنثى تقتل زوجها بعد الزواج منه يبدو أمرا طبيعيا واكتشافا علميا مهما، بينما إن اكتشفنا بأن بعض النساء يقتلن أزواجهن بمجرد التزوج منهم فهذا الاكتشاف حتى ولو كان مبنيا على وقائع وحالات مدروسة، فإنه سيجعل حتى من هم في الأوساط العلمية يشمئزون منه.

لذلك، يجب الحذر من التأويلات المتسرعة غير المبنية على الحقائق العلمية، التي وحدها نتائج البحث والتحليلات الدقيقة هي الكفيلة بالوصول إلى نتائج علمية موضوعية بعيدة عن الأحكام المسبقة والتجارب الشخصية.

ويتضاعف الخطر لما يتعلق الأمر بالدراسات الكيفية، لاسيما تلك التي يلجأ الباحث فيها إلى المقابلة. فالنزول إلى الميدان يعني أن "تكون للباحث الرغبة في التمسك بشدة بالأحداث، القيام بمناقشة مع المبحوثين، فهْم أكبر للأفراد وللعمليات الاجتماعية."[1]

يعني ذلك أن يكون الباحث شغوفا لمعرفة الميدان كما هو بكل تفاصيله، وأن يبتعد عن الأفكار المسبقة التي قد توجه تحليله وتأويله إياه. كما عليه أن يحب ما هو عازم القيام به وإلا سيتحول الميدان إلى مجرد مكان لعمل هو مجبر على القيام به ويسرع فيه ليكمله، بدون مراعاة لشروط الدقة والموضوعية والصرامة العلمية، معتقدا بأن لديه تجربة كافية. لذلك، معرفته لهذا الميدان تجعله متسرعا في إعطاء النتائج التي يحاول قدر الإمكان أن تتماشى والأفكار المسبقة التي انطلق منها.

أضف إلى ذلك، أن "الأفراد أو الجماعات **ليسوا صورا طبق الأصل** عن بعضهم البعض"[2]؛ فكل فرد له خصوصيته واتجاهاته التي ستنعكس حتما على تصوراته فسلوكاته حول موضوع البحث. لذلك، ملاحظة نفس الظاهرة على أفراد آخرين لا يوصلنا في كل مرة إلى نفس النتائج، هذا في حقل العلوم الإنسانية. أما في حقل علوم

---

[1] Stéphane Beaud, Florence Weber, **Guide de l'enquête de terrain**, Paris, La Découverte, 2010, p.13

[2] Maurice Angers, op.cit.

الطبيعة، فالتجربة **يمكن إعادة إنتاجها** في نفس الظروف لمرات عديدة والتي ستؤدي حتما إلى نفس النتائج دائما، لأن طبيعة وخصائص الموضوع هي واحدة لا تتغير.

فمثلا يمكن القيام بتجربة كيمائية على تربة معينة، وفي كل مرة تُعاد فيها هذه التجربة سيصل الباحث حتما إلى نفس النتائج بدون أي مقاومة. غير أن موضوع عدم رضا العمال عن ظروف العمل قد يصطدم ببعض العراقيل، كرفض بعض العمال القيام بمقابلة معهم أو مقاومتهم في الإجابة عن بعض الأسئلة مما سيعرقل وتيرة البحث ونتائجه.

وهنا تظهر نقطة اختلاف أخرى، ألا وهي كون الموضوع في علوم الطبيعة **بسيطا** بينما في العلوم الإنسانية فهو **معقد**. وهذا يدفعنا إلى تحديد نقطة اختلاف أخرى ألا وهي كون الموضوع في علوم الطبيعة يقبل القياس بينما في العلوم الإنسانية "**فيصعب قياسه**"[1].

ففي علوم الطبيعة يمكن استخدام مجموعة من الوسائل والأجهزة **لقياس الظاهرة** وملاحظتها مما يمنح النتائج دقة مؤكدة، باستخدام مثلا المجهر لملاحظة الأجسام التي لا تُرى بالعين المجردة. أما في العلوم الإنسانية، فليست كل الظواهر قابلة للقياس، كدراسة تسلط الضوء على تأثير التغيرات الاجتماعية في النسق القيمي داخل الأسرة الجزائرية التي لا يمكن إدراكها بقياسات كمية. وتعقد الموضوع في العلوم الإنسانية يعني أنه "لفهم ظاهرة إنسانية، يجب الأخذ بعين الاعتبار عدة عوامل هي التي تؤثر فيها."[2]

فالظاهرة الإنسانية معقدة لتداخل المتغيرات فيها في جل الأحيان وصعوبة عزلها عن بعضها البعض، ليس كما هو حال الظواهر التي تدرسها علوم الطبيعة حيث يسهل إلى حد كبير تحديد المتغيرات التي تؤثر فيها.

---

[1] Maurice Angers, op.cit., p.52 .

[2] François Dépelteau, op.cit., p.79

فعنـد دراسـة: "تـأثير التغـيرات الاجتماعيـة في النـسق القيمـي داخـل الأسرة الجزائرية"، يصعب تحديد المتغير الأساسي في هذه السيرورة.

والسؤال الذي يجب طرحه في هذه الدراسة هو: "كيف تتغير؟" حيـث يـدفعنا إلى البحـث عـن العوامـل المـؤثرة بـشكل مباشر في سـيرورة التغـير الاجتماعـي، بتحديـد العوامـل الخارجيـة ولكـن أيـضا العوامـل الداخليـة التـي أدت إلى هـذه التغـيرات الاجتماعيـة. علينـا أن نـدرك التغـيرات التـي تحـدث عـلى مـستوى بنـى المجتمـع ومؤسساته التقليدية والحديثة، حيث سـتندمج هـذه التغيـيرات المجـزأة مـع بعـضها البعض مؤدية إلى التغير الشامل.

فكل العوامل مرتبطة ومتداخلة مع بعضها البعض، فهي تعمـل ككـرة ثلـج بحيث كل تغير يؤدي إلى حدوث تغير آخر إلى أن تكـبر الكـرة. فعـلى الباحـث هنا أن يتفادى دراسة بعد أو عامل واحد في الظواهر الإنـسانية. وتعقـد هـذه الظـواهر لا يجـب أن يجعـل الباحـث يـسعى إلى تبـسيطها ليتفـادى هـذه "التراكمية المعرفية" التي هي بحاجة إلى مـن يكتـشف زواياهـا المختلفـة، وألا تكون له تلك النظرة "التبسيطية" للظواهر المدروسة. عليه أن يضاعف الجهـد لاكتـشاف خبايـا الظـاهرة *. أضـف إلى ذلـك، أن الموضـوع في علـوم الطبيعـة "**يقبل بالسببية** بينما في العلوم الإنسانية فهو يقبل **بالتحليل التفسيري**"[1]. ففي الكثير من الأحيان يعجز الباحث عن عزل بعض الظواهر المتداخلة عن بعضها البعض وتحديد المتغـيرات المـستقلة التـي تـؤدي حـتما إلى حـدوث المتغـيرات

* فقد انطلقت إحدى الطالبات التي أشرفت على مذكرة الماستر الخاصة بهـا إلى الميـدان بدراسـة لمعرفـة أسباب أزمة الاتصال بين الزوجين. وكانت الفكرة التي انطلقت منها هي أن الأسباب والمشاكل المالية هـي المسبب الأساسي لتلك الأزمة. وعند انتهائها من عملها، اتضح بأن تلك الأسباب ما هي إلا عامـل ثـانوي في حدوث أزمة الاتصال بين الزوجين. أما السبب الأساسي فهو يكمن في وجود مـشاكل جنـسية بـين الطـرفين هي التي تؤدي بشكل عام إلى حدوث تلك الأزمة.

[1] Maurice Angers, op.cit., p.52.

التابعة. بينما في علوم الطبيعة وبفضل التجربة يمكن التحكم في الظاهرة وتحديد المتغيرات، خصوصا المتغيرات المستقلة أو أسباب حدوث الظاهرة.

يكمن الهدف الأساسي للبحث في علوم الطبيعة في اكتشاف القوانين التي تتحكم في الظواهر اعتمادا على مبدأ السببية. وقد اتضح بعدها أن العلوم الإنسانية تجد صعوبة في تحديد القوانين التي تتحكم في الظواهر الإنسانية. ويرجع السبب الأساسي في هذا الاختلاف إلى أن "الإنسان حر"[1] بمعنى أنه يتصرف كما يشاء، وهذه التصرفات والتصورات التي يحملها عن الأشياء والظواهر والمواقف تختلف من فرد إلى آخر. وبذلك، فهو "لا يخضع للقوانين الاجتماعية، النفسية والقوانين الأخرى"[2]؛ هو حر في تصرفاته. وهذا الأمر يجعل الباحث في حقل العلوم الإنسانية يدرك أن ما لاحظه من تصرفات ومواقف سابقة للمبحوثين ليست بالضرورة أن تكون نفسها في المستقبل.

وفي الأخير، "وضعت العلوم الإنسانية نموذجا للتحليل الفهمي (...) أما هذه المسألة فهي لا تُطرح في علوم الطبيعة لأن الموضوع لا ينتج معان".[3]

ففي العلوم الإنسانية، تُؤخذ بعين الاعتبار المعاني التي يمنحها المبحوثون لتصرفاتهم واتجاهاتهم وتصوراتهم لموضوع الدراسة. أما في علوم الطبيعة، فالأمر غير جائز لأنه أصلا الكائنات المادية أو الطبيعية لا تنتج معان. يتضمن البحث في العلوم الإنسانية مقاربة تأويلية التي تتضمن البعد الفهمي للظواهر، ببحثها عن المعاني التي يمنحها المبحوثون لأفعالهم.

و**الفهم** (comprehension) "يمر من خلال مفاهيم أو علاقات في حالة التصرف الإنساني"[4] على الباحث أن يدركها، ولكن ليس بشكل حدسي، بل بإعادة بناء هذه المفاهيم أو العلاقات، بينما في علوم الطبيعة فإنها أكثر تفسيرية من كونها فهمية.

---

[1]François Dépelteau, op.cit., p.87

[2]Ibid.

[3]Maurice Angers, op.cit., p.53

[4] Raymond Aron, op.cit., p.504

وهكذا، يتضح لنا أن للموضوع في علوم الطبيعة نقاط تشابه مع موضوع العلوم الإنسانية، كما أنه يختلف معه في نقاط أخرى، إذ تبين طبيعة الموضوع في الأخيرة مدى تعقد هذه العلوم عن علوم الطبيعة، من خلال تطورها وانفصالها عن الثانية ومحاولة فرض مكانتها العلمية بين العلوم الأخرى. وبالرغم من أن علوم الطبيعة قد عانت هي الأولى من مشاكل عدة، إلا أن العلوم الإنسانية عانت وما زالت تعاني الكثير، على وجه الخصوص لما يتعلق الأمر بالبرهنة على دقتها وموضوعيتها، حيث يضاعف فيها الباحث الحذر من الانحياز إلى الأفكار المسبقة، بحيث تكون القطيعة الإبستمولوجية مع الحس المشترك مهمة ليست بالسهلة.

3) واقع البحث في العلوم الإنسانية*:

ظهرت مشاكل جديدة مع تطور المجتمعات، خصوصا مع بداية القرن التاسع عشر حيث عايش العالم الغربي تطور الرأسمالية، التي أدت إلى تطور الاقتصاد وتغير العلاقات بين الأفراد وخلق فضاءات جديدة للعمل، وتغير في نمط الاستهلاك وتشكُّل آفاق مستقبلية جديدة لدى الأفراد.

فقد تغير مكان العمل إذ لم يعد تلك الورشة الصغيرة، بل أضحى ذلك المصنع الحديث بكل الآلات والأجهزة الأساسية لعمله مع ما يتطلبه من تقنيات حديثة وأداء جديد للعمل، مما انجر عنه علاقات جديدة في العمل بين الموظفين مع بعضهم البعض وبين الموظفين ورؤسائهم، مما أدى إلى خلق صراعات جديدة داخل فضاء العمل. كما أدى تطور الرأسمالية بخلقها لفضاءات جديدة للعمل إلى خروج المرأة للعمل المأجور. فترتب عن هذا الوضع التفكير في خلق فضاء يحتضن الأطفال بشكل رسمي، مما أدى إلى نشأة دور الحضانة والتفكير كذلك في تكوين الحاضنات. أضف إلى ذلك، أن "العالم الجديد" عرف هجرة مكثفة إليه بفضل فرص العمل التي كان يقترحها مما

* سأتعرض في الفصلين الأخيرين من هذا الكتاب إلى تخصصين اثنين من العلوم الإنسانية، لأبين من خلالهما واقع وآفاق البحث والتنظير في كليهما، عبر عرض نماذج لنظريات ودراسات تخصصهما.

تطلب دراسات ميدانية للبحث عن طرق إدماج الأقليات من جنسيات مختلفة تفاديا للصراعات. هذه نماذج عن بعض التغيرات الحديثة التي عرفتها المجتمعات الغربية التي تطلبت دراسات تنصب عليها وخلق تخصصات علمية تتميز بالمشاكل التي تطرحها.

وبذلك، فقد انفصلت العلوم الإنسانية عن بعضها البعض وانقسمت وتمحور حقل البحث فيها حول بعض الأسئلة المحورية، ثم حول بعض الأسئلة الثانوية، مما خلق تخصصات فرعية داخل التخصص الواحد، محاولة الإجابة –شأنها شأن علوم الطبيعة- عن السؤال الأزلي: لماذا؟

في السياق التاريخي، سبقت علوم الطبيعة (في بحثها في مجال الطبيعة بكل ما يتضمنه هذا الحقل) العلوم الإنسانية في تخصصها بمواضيعها والمشاكل التي حددتها لحلها. فكان على العلوم الإنسانية أن تنتهج نفس المسار، وتخرج من "الملاحظات العمومية وتحدد نطاق عملها حيث العلاقات بين العوامل يمكن أن تظهر بشكل جلي"[1]، وبذلك يُحدد نطاق البحث والملاحظة.

وفي سيرورة البحث عن مكانتها العلمية، تعرضت العلوم الإنسانية إلى بعض المعرقلات والصعوبات الإبستمولوجية التي تعرضت لها علوم الطبيعة.غير أن مشكل **المعرقلات الإبستمولوجية** التي تقف عقبة أمام تطور العلوم بشكل عام يكون بارزا بشكل أكبر لما يتعلق الأمر بالبحث في العلوم الإنسانية. فملاحظة الظواهر الإنسانية وتطبيق المنهج التجريبي عليها يبدو غير مجد لما يتعلق الأمر بقياس الأحاسيس والتوجهات والسلوكات الإنسانية، في غياب إطار "رياضي" يمكّن من قياسها. فالحدس والتجربة قد يكونان مفيدين في بداية البحث، غير أنه يجب تجاوزهما لفهم الظاهرة المدروسة بشكل علمي.

يجب أن يصل الباحث إلى إعطاء معنى للظواهر المدروسة. وهنا، لا يكمن الفرق بين الباحث في حقلي علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية في "التراكم المعرفي، بقدر ما يمنحه

[1] Madeleine Grawitz, op.cit., p.73

كمعنى للمشاكل التي يطرحها."[1]تكمن مهمة الباحث في إدراك الظواهر، ما لا يعرفه عنها بتسخير كل المعارف العلمية التي ستساعده على إعطاء معنى لها، حتى تتقلص الهوة بين ما يعرفه وما لا يعرفه.

وبعدما تعرفنا معا على واقع البحث في العلوم الإنسانية، سأمر إلى قضايا في غاية الأهمية مرتبطة بالنظرية وماهيتها والوظائف التي تؤديها في تطور المعرفة العلمية، ودور الفرضيات والمفاهيم في بنائها، وغيرها من المسائل التي سنكتشفها معا في الفصل الموالي.

[1] Madeleine Grawitz, op.cit., p.75

الفصل الرابع

النظرية ماهيتها وظائفها وبناؤها

1) تعريف النظرية

2) وظائف النظرية

3) دور الفرضيات في صياغة النظرية

4) دور المفاهيم في بناء النظرية

5) علاقة النظرية بالموضوع

6) البعد الإيديولوجي للنظرية

النظرية

ماهيتها، وظائفها وبناؤها

آهداف الفصل

- تحديد ماهية النظرية
- تحديد مكانة النظرية في البحث العلمي ووظائفها
- تبيين نقاط التشابه والاختلاف بين البراديغم والنظرية
- تبيين العلاقة الكامنة بين الفرضيات والمفاهيم في بناء النظرية
- تحديد البعد الإيديولوجي للنظرية

تعتبر النظرية إطارا تفسيريا للظاهرة المدروسة عن طريق نسق مفاهيمي، يحدد علاقة بين متغيرات معينة بغرض التنبؤ بحدوثها، بأخذها مسافة مع المعرفة التلقائية والأفكار المسبقة.

تُعتبر جزءا لا يتجزأ من السيرورة المنهجية، حيث لا يمكن الاستغناء عنها. من خلالها، يتمكن الباحث من الابتعاد عن معوقات الحس المشترك.

في سيرورة البحث، سيقوم الباحث باقتراح فرضيات محاولا اختبارها والتي ستوجهها النظرية. كما يتعين عليه تحديد المفاهيم حتى يتبين دورها في بناء النظرية.

وعليه:

فيم تكمن النظرية؟ ما الفرق بينها وبين البراديغم؟ فيم تتمثل وظائفها؟ لم يحتاج إليها الباحث؟ ما هو دور الفرضيات في صياغة أو إعادة صياغة النظرية؟ ما هو الدور

الذي تلعبه المفاهيم في بناء النظرية؟ كيف ستوظف النظرية في الموضوع المدروس؟ وفيم يتمثل البعد الإيديولوجي للنظرية؟

سأقوم بالإجابة عن هذه الأسئلة في هذا الفصل.

1) تعريف النظرية:

اشتقاقا، تعني كلمة **النظرية** (Theory) باليونانية: **"theoria** بمعنى التأمل، مجموعة منظمة من الأفكار والمعارف. وكانت تعني في العصور القديمة تأمل العالم وبشكل خاص حركة الكواكب".[1]

اصطلاحا، النظرية "مجموعة من المصطلحات والتعريفات والافتراضات لها علاقة ببعضها البعض، والتي تقترح رؤية منظَّمة للظاهرة، وذلك بهدف عرضها والتنبؤ بمظاهرها".[2]

كما يعرفها Popper بأنها "شبكات موجهة إلى القبض على ما نسميه "بالعالم"، بجعله عقلانيا وتفسيره والتحكم فيه".[3]

وهنالك من يعتبرها نسقا افتراضيا-استنباطيا الذي يُبنى من خلال ملاحظة الواقع (Raymond Aron)، حيث يتم بناؤها عن طريق الواقع الملاحظ. كما نجد **النظرية الفهم** (explanation theory) التي "تساعد على فهم مرحلة ما."[4]

فهي ليست مجرد تعريف؛ هي ربط معقد بين مفاهيم معينة، عبر مجموعة من الاقتراحات لفهم الظاهرة، تربطها علاقة ببعضها البعض.

وبالرغم من تعدد وحتى اختلاف التعريفات لمفهوم النظرية، إلا أنها تجمع على أنها تقدم الإطار التفسيري للظواهر المدروسة، مشكلة نسقا من المفاهيم المرتبطة ببعضها البعض عن طريق نسق مفاهيمي، لتفسير الميكانيزمات المتحكمة بالظاهرة، بهدف

[1]**Dictionnaire de philosophie**, op.cit., p.300

[2] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص.471

[3] Karl Popper, **La Logique de la découverte scientifique**, Paris, Editions Payot, 1973, p.57

[4] Raymond Aron, op.cit., p.509

التنبؤ بها. فإذا قام باحث بتبني نظرية Piaget مثلا في دراسة ما، ستمكنه هذه النظرية من إدراك النمو المعرفي لدى الأطفال. وإذا تبنى إحدى نظريات الصراع، فستمكنه مثلا من إدراك طبيعة الصراع الذي هو موجود بين فئة المسؤولين وفئة العاملين إثر نزاعات في العمل. ولن يتأتى استخدام هذه النظرية أو تلك إلا عبر النسق المفاهيمي الذي تتشكل من خلاله، مقدمة إطارا تفسيريا للواقع، "منظمة (بذلك) تمثلنا للواقع"[1].

تعتَبَر النظرية الإطار التفسيري لأي عمل علمي. فعند القيام بتفسير النتائج، لا بد من وجود قطب نظري الذي يبدو كضرورة ملحة وكأساس أي تفسير علمي، حيث أستشهد مرة أخرى بما قاله Bunge في هذا السياق: "عندما لا توجد نظرية لا يوجد علم".

للنظرية أهمية كبرى في تحديد الإطار التأويلي للظاهرة باعتبارها "نمطا لبناء موضوع المعرفة العلمية، وهي شرط أساسي للقطيعة مع التأويلات اللاعلمية للاجتماعي"،[2] حيث تمكن من تفسير الظواهر (الطبيعية أو الإنسانية على حد سواء) بطريقة علمية، واضعة بذلك قطيعة مع التأويلات القبلية التي لا تستند إلى أي سند علمي. فها هو النسق النظري "يضمن تأويلا أكثر تبريرا للظواهر الاجتماعية"[3] التي يحاول الباحث كشف النقاب عنها، كسند تبريري قوي.

على هذا المستوى، يصل التأويل إلى ما يصبو إليه من كشف الروابط بين مختلف العناصر المكونة للظاهرة. فبدون إطار نظري، لا يمكن الوصول إلى تأويل علمي موضوعي للظاهرة. وبذلك، تقترح تفسيرا للواقع، من خلال تحديد مجموعة من المصطلحات توضح العلاقة بين العناصر المكونة للظاهرة بهدف التنبؤ بها كلما توفرت الشروط، كقانون العرض والطلب حيث نذهب إلى القول بأن هنالك توازن بين

---

1 François Dépelteau, op.cit., p.131

2 Paul de Bruyne, Jacques Herman, Marc de Schoutheete, op.cit., p.94

3 Ibid., p.115

العرض والطلب إذا كانت كل الأسباب الضرورية لحدوث هذه الظاهرة متساوية. وبذلك، يمكن التنبؤ بالظاهرة محل الدراسة.

كما تمكن الباحث من **القطيعة الإبستمولوجية** (epistemological break) مع الحس المشترك، ما كانت عليه الأفكار العامة والأحكام المسبقة قبيل استخدام النظرية كإطار تأويلي للظواهر الإنسانية.

والعلوم مهما كان مجال بحثها، تهدف جعل الظواهر "مفهومة على أساس المعنى (meaning) المشترك".[1] يبرز ذلك المعنى من خلال الواقع الملموس الذي يدرك عبر مرجعية نظرية معينة التي ستقوم بعملية "فك التشفير" عن هذا الواقع الملاحظ.

وفي الواقع، المرجعية النظرية المتبناة لا تجعل الباحث حرا في ملاحظاته وبالتالي في تحليله وتأويله؛ فبتوجيه الباحث إلى زاوية معينة، فإنها تربطه وتحدد نطاق تفكيره.

عند القيام بالتقصي العلمي، يجب أخذ مسافة مع المعرفة التلقائية والأفكار المسبقة، ولن يتأتى ذلك كما يؤكد عليه Norbert Elias إلا من خلال "طريقة طرح المشاكل وبناء النظريات".[2]

في مسارها العلمي، النظرية قادرة على أن تقوم بالقطيعة الإبستمولوجية مع الأفكار المسبقة والحس المشترك، عبر نسق من المفاهيم والعلاقات بين الظواهر في لغة علمية لها ضوابطها وقواعدها.

وعن طريق التجريد، يتمكن الباحث من تجاوز ما هو ملاحظ للوهلة الأولى وإدراك الظاهرة بكل ما يتحكم فيها من متغيرات والعلاقة المتبادلة بينها، كجزء لا يتجزأ من عملية التنظير.

وقد عرف مفهوم التجريد (abstraction) عدة تحديدات بداية من Plato الذي "ميز بين الصور أو الأفكار (المجردة والكيانات المثالية التي تلتقط جوهر الأشياء)

[1] Alex Mucchielli, **La nouvelle communication**, France, Armand Colin, 2000, p.47

[2] Jean-Claude Kaufmann, op.cit., p.20

والأشياء في العالم (والتي هي فورية لتلك الأفكار)"[1]. وهو يرى أن هنالك مفارقة بين الشكل والصورة (عكس Aristotle الذي كان ينكر مفارقة الصورة للمادة، وضرورة كل من الصورة والمادة لوجود الأشياء التي تحيط بنا).

التجريد عملية تتطلب استحضار كل الأفكار حول الظاهرة والعلاقة الممكنة بين المتغيرات. في الرياضيات، يتعلق الأمر بتحديد "الأفعال الديداكتية التي تمكن التلاميذ من الدخول في عملية تجريد"[2]. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، لا تولد النظرية من العدم إذ هنالك عوامل تساعد على ظهورها؛ فهي وليدة "الاكتشافات (...) والوعي بوجود اختلالات ما في النماذج المقترحة (...كما يوجد في بعض الحالات) وعوامل خارجية تحدد لحظة القطيعة"[3] مع النموذج التفسيري السائد في فترة ما.

فالأزمة التي يمر بها تخصص علمي ما، هي التي تولّد الحاجة إلى وجود نموذج تفسيري جديد، مما يتطلب تجديد أدوات وطرق الحصول على المعرفة.

والنظرية مرتبطة بسياق الاكتشاف وسياق البرهان. لما تتواجد على مستوى سياق **البرهان** (proof) "يكون الهدف الأول من نشاط البحث التحقق من نظرية ما"[4]. وهذا ما يحدث لما يتبنى الباحث الطريقة الاستنباطية.

أما في سياق **الاكتشاف** (discovery)، فإن الباحث "يهتم بصياغة نظريات أو نماذج من خلال مجموعة فرضيات التي يمكن أن تظهر إبان وبعد البحث."[5] وهذا ما يحدث لما يتبنى الطريقة الاستقرائية.

---

[1] L. Saitta and J.-D. Zucker, **Abstraction in Artificial Intelligence and Complex Systems**, 11 DOI, Springer Science+Business Media, New York, 2013, p.12

[2] Luis Radford, Serge Demers et Isaias Miranda, **Processus d'abstraction en mathématiques**, Imprimeur de la Reine pour l'Ontario et Université Laurentienne, 2009, p.7

[3] Thomas Kuhn, **La structure des révolutions scientifiques**, traduit par : Laure Meyer, France, Flammarion, 1983, p.p 100-102

[4] Michelle Lessard, Hébert Gabriel Goyette, Gérald Boutin, op.cit., p.61

[5] Ibid., p.62

وخلافا لما يعتقده بعضهم، تُعتبر النظرية جزءا لا يتجزأ من السيرورة المنهجيـة، لا يمكن الاستغناء عنها. من خلالها، يتمكن الباحـث مـن الابتعـاد عـن معوقـات الحـس المشترك، بتجاوز الأفكار المسبقة التي تكون طاغيـة عـلى تفكـيره والتـي يـتخلى عنهـا تدريجيا كلما تقدم في بحثه. ويقترح لذلك مجموعة من المفاهيم التي تفسر الظاهرة المدروسة، في نسق لغوي خاص ومتميز، له بناؤه وقواعده. فالحس المـشترك يعتـبر أن الحدس هو الذي يمكننا من إدراك الحقيقـة التـي لا نقـاش فيهـا، ولا داعـي في هـذه الحالة لتقديم البرهان العلمي لتفسير الظواهر. وهنا، "قد يكـون الحـدس صـحيحا و حتى محبذا على أن يشكل نقطة انطلاق فحـسب. وتـتجلى محدوديـة المنطـق الـذي يقوم على الحس العام حين يتحـول الحـدس إلى نقطـة الانطـلاق ونقطـة الوصـول في نفس الوقت."[1]

واعيا بهذه المسألة، يصرحDurkheim بأنـه "يجـب دراسـة الظـواهر الاجتماعيـة كأشياء"[2]، أي أن يتخلى الباحث عن الحس المشترك ويكون موضوعيا كأمر أساسي عند دراسة الظواهر الإنسانية وتأويلها.

فالحدس مهم كتجربة شخصية تفيد الباحث عند انطلاقه في البحث. ولكنـه كلـما تقدم في عمله، كلـما وجـب عليـه أن يتّـسم بالموضـوعية والحيـاد، وأن يتجـاوز قـدر الإمكان أفكاره المسبقة المتمثلة في الأحكام والتجارب الشخصية والمعارف العامة.

تحمل النظرية "قيمة افتراضية عاليـة ومجـردة؛ نظريـة بيـغ بـانغ وحتـى نظريـة الأوتـار (string theory) لم تثبـت إلى يومنـا هـذا، ويمكـن أن تحـل محلهـا نظريـات أخرى"[3].

[1] أ.لارامي، ب.فالي، **البحث في الاتصال، عناصر منهجية**، ترجمة سفاري ميلود وآخرون، قسنطينة، جامعة منتوري، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة، 2004، ص.27

[2] Laurent Mucchielli, **Durkheim, le père fondateur de la sociologie moderne**, dans : **La sociologie, histoire et idées**, France, Editions Sciences Humaines, 2000, p.46

[3] Marion Vorms, **Qu'est-ce qu'une théorie scientifique**, dans : Sous la direction de T.Lepeltier, **Histoire et philosophie**, Cedex, Sciences Humaines Editions, 2013, p.p 170-180

يجعلنا هذا الوضع أمام مفارقة: النظرية هي في ذات الوقت "الشكل الأكثر بلوغا وتنظيما للمعرفة العلمية، والتي يمكن في جوهرها إعادة النظر فيها"[1]، مما يحدد الميزة المؤقتة لها. حقل تطبيقها هو العالم الملاحظ مع تنوع الظواهر فيه، ولكن الأمر لا يتعلق بمجرد تقرير لملاحظات؛ يجب أن تكون للنظرية القدرة على "التنبؤ بالظواهر وعلى تفسيرها"[2].

يجب أن تكون قادرة على القيام بوظيفتين اثنتين: وظيفة تفسيرية ووظيفة تنبؤية عبر استدلال صارم. يجب أن يلاحظ المنظّر انتظاما للظاهرة المدروسة، وليس الاكتفاء بملاحظات "مبعثرة" ومنعزلة والتي لن تمكنه من القيام بتعميمات والوصول إلى سن قوانين، مما سيستدعي تبني الطريقة الاستقرائية.

ويرى Duhem أن "المرور إلى النظري هو المرور إلى التصور الرمزي لظواهر إمبريقية، وليس فقط المرور إلى بيان انتظامها"[3]، بمنحها ميزة رمزية مرتبطة بالدلالات الخاصة لكل مفهوم؛ فمنظرو بنية DNA تمثلوا ووضحوا نظريتهم تبعا لنموذج معروف.

كما تعتبر النظرية افتراضية من حيث إنها "تشير إلى كيانات وعمليات غير ملاحظة، وحيث تكون مكانتها بذلك افتراضية".[4]

إذن، أين يكمن الفرق بين ملاحظة علمية وملاحظة عادية؟

يكمن الفرق بينهما في التفسير، بتحديد "الرابط الانتظامي"[5] للمتغيرات المرتبطة بانتظام الظاهرة المدروسة.

---

[1] Marion Vorms, op.cit.

[2] Ibid., p.172

[3] Ibid., p.173

[4] Ibid.

[5] Ibid., p.174

أضف إلى ذلك، أن قانونا نظريا يجب أن يمكن "في بعض الحالات من التنبؤ بظواهر إمبريقية جديدة لم تلاحظ من قبل. إذن تعود القوة التفسيرية للنظريات إلى مفاهيمها النظرية وإلى خصوبتها النظرية"[1].

يرى Whitehead أن الفكر الإنساني (سواء أكان عاديا أو علميا) يتحكم فيه بناء منطقي بعد تعميمات خاصة، حيث تفسر كل ظاهرة تبعا لتنظيم فكري.

تلعب النظرية دورا مركزيا في العلوم، بتفسيرها الظاهرة المدروسة تبعا لنموذج تفسيري معين، بربطها بين عدة متغيرات المرتبطة فيما بينها بشكل منطقي، بهدف سن قوانين.

بيد أن وضع قوانين معينة هو "أكثر صحة بالنسبة لعلوم الطبيعة أو العلوم الدقيقة، باعتبار مواضيع دراستها التي لا تتعرض إلى احتمال حدوثها (contingency)، كما هو الحال بالنسبة إلى العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية"[2].

تنتج النظرية عن الملاحظات ومجموعة التجارب التي تقام بغرض دراسة ظاهرة ما. بالملاحظة المنتظمة للظاهرة محل الدراسة -حيث تصبح الملاحظات متكررة ويتم التأكد منها بفضل التجريب- يمكن للباحث أن يصل إلى صياغة قوانين، بشكل خاص في علوم الطبيعة أو العلوم الدقيقة، حيث التنظير جد متطور في هذين الحقلين العلميين الاثنين. إلا أن المستوى التنظيري في العلوم الإنسانية ليس بهذه البساطة، لأن ظروف الملاحظة والتجريب تكون في سياق مختلف.

وقد لاحظنا أن الكثيرين يخلطون بين مفاهيم أساسية مرتبطة بشكل أو بآخر بمفهوم النظرية، وتحديدا مع مفهومي: البراديغم والمقاربة. فما هو الفرق بين هذه المفاهيم الثلاثة؟

يرجع انتشار مفهوم البراديغم لـ Thomas Kuhn، حيث وضع تعريفا له في كتابه: "**بنية الثورات العلمية**".

---

[1] Marion Vorms, op.cit.

[2] Luc Bonneville, Sylvie Grosjean, Martine Lagacé, op.cit., p.18

يعني **البراديغم** (paradigm) "كل نسق من العلاقات بين الخاصيات المختارة والمجردة والمبسطة، المبني بشكل واع بغرض الوصف والتفسير والتنبؤ، وبذلك فهو متحكم فيه بشكل كبير".[1]

يُبنى البراديغم بشكل واع، بمعنى أن يأخذ الباحث مسافة عن هذا الواقع المدروس. ولكن، على أي أساس تتبنى النماذج؟

تستقي البراديغمات قدرتها التفسيرية من "مبادئ بنائها وليس من حيث درجة افتراضيتها".[2]

ليس هذا فحسب، البراديغم الجديد يعني "تحديدا جديدا وأكثر صرامة للحقل"[3] العلمي، هو تغيير جذري لوجهة النظر التي كانت قائمة إلى وقت ما.

كما يعتبر بعضهم البراديغمات "كنظريات مصغرة بفعل تحديدها للمبادئ المنتجة والموحدة لنسق من العلاقات، فإنها ترضي بشكل كامل متطلبات الصرامة في البرهان والخصوبة في الاكتشاف والتي تحدد بناء نظريا."[4]

ويعرف Kuhn البراديغم بأنه "ما فوق النظرية (meta-theory)، كإطار تفكير الذي يكون داخله إجماع، لتحديد المسائل الدقيقة التي توجه التجارب التي ستقام والتي تحدد العلم "العادي" إلى حين حدوث تغير ما، والذي هو أكثر من نظرية، هو تغير جذري لوجهة النظر."[5]

---

[1] Pierre Bourdieu, Jean-Claude Chamboredon, Jean-Claude Passeron, op.cit., p.81

[2] Ibid., p.82

[3] Thomas S.Kuhn, **The Structure of Scientific Revolutions**, Printed in the United States of America, by The University of Chicago, Second Edition, 1970, p.19

[4] Pierre Bourdieu, Jean-Claude Chamboredon, op.cit., p.84

[5] Guy Rumelhard, **Problématisation et concept de paradigme, Approche épistémologique, psychologique, sociologique,** Lyon, ASTER, N° 40, 2005

في مرحلة ما من مراحل البحث العلمي، ستتشكل المعرفة العلمية في مجال علمي ما حول البراديغم معين، كإطار تفسيري يُجمِع على مبادئه معظم العلماء بشكل مؤقت على الطريقة الأمثل لفهم الظاهرة. على سبيل المثال، " البراديغم النيوتوني يتأسس على تمثل العالم كنسق ميكانيكي يتحكم فيه عمل قوى"[1]؛ فهذا تمثل فلسفي للعالم.

بالنسبة إلى Kuhn، الحقيقة العلمية هي "نتاج مسار دوري، من طابع سوسيو-تاريخي معقد، **يمر بعدة مراحل. تتمثل المرحلة الأولى** في **"العلم العادي"** (normal science). هذا الأخير مؤشر دال على النضج حيث لا يتساءل فيه عن أسس البراديغم القائم. في هذه الحالة، تتقاسم مجموعة الباحثين المنشغلين بنفس الحقل العلمي البراديغمات والمناهج ومجموعة من القيم.

أما المرحلة الثانية فتتمثل في إيجاد الاختلالات(anomalies). **في مرحلة ثالثة**، سيدخل العلم في حالة أزمة(crisis) . (**في مرحلة أخيرة**) ستكون هناك ثورة في مجال العلم".[2]

تبدو الحقيقة من هذا المنظور أنها تتشكل وتتجلى في حلقة دورية عبر مراحل تاريخية معينة. تبدأ المرحلة الأولى بتبني معظم العلماء تصورات وإجراءات ونماذج للتحليل والتفسير حول الظواهر التي يدرسونها بدون إعادة النظر فيها؛ هذه هي مرحلة **العلم العادي**. مع مرور الوقت، لما يعي العلماء أن البراديغم يتناقض مع بعض المعطيات، سيقومون بمقابلاتها مع ما هو متفق عليه في الأوساط العلمية في تلك الفترة أو الاعتراف غير المباشر بأن البراديغم يحتوي على **اختلالات** كمرحلة ثانية.

وفي الواقع، وجود مقاومة من طرف الأوساط العلمية أمر مهم في البداية، فهي تعني بأن العلماء أخذوا وقتهم ليقروا بوجود اختلالات وأن وقتهم وجهدهم لم يذهب هباء منثورا؛ فالإقرار بتلك الاختلالات وتقبل فكرة أن البراديغمات الحالية مشكوك في

[1] Marie-Dominique Popelard, Denis Vernant, op.cit., p.68

[2] Luc Bonneville et autres, op.cit., p.p 21-22

مصداقيتها يتطلب وقتا. وحتى يقر العلماء بوجود الكثير من الاختلالات التي تتناقض مع البراديغمات التحليلية القائمة، سيدخل العلم في **مرحلة الأزمة**(crisis phase).

وهنا، سيحاول العلماء وضع نموذج تفسيري جديد في مرحلة جديدة للبحث عن الحقيقة ألا وهي مرحلة **الثورة العلمية**(scientific revolution) .

فتبدأ القطيعة مع البراديغم التحليل القديم ليحل محله تدريجيا البراديغم التفسيري الجديد الذي تبناه معظم العلماء، بحثا عن الحقيقة التي تُبنى ويُبحث عنها في معركة دائمة من القطائع والثورات، التي تعيد النظر بشكل مستمر في البراديغمات التفسيرية التحليلية القائمة.

يؤدي البراديغم دورين اثنين في البحث العلمي. فهو يُبنى على إجماع جماعة من العلماء. ثم إنه يحدد المشاكل التي يجب حلها وكيفية التصدي لها. فوجود مجموعة من العلماء المعترف بهم في مجال علمي ما وإجماعهم على براديغم أو براديغمات معينة مسألة مهمة وضرورية للتقدم العلمي، بما في ذلك الإجماع على طبيعة المشاكل التي يجب معالجتها والوسائل الواجب توظيفها لهذا الغرض. كما يتطلب الأمر التخلي عن البديهيات التي تقف عائقا أمام التقدم العلمي والصرامة العلمية، إذ تقف أمام اكتشاف الحقائق المستترة. فبالرغم من قدرتها على التعميم، فإنه سيُعاد النظر بشكل مستمر ومنظم في النماذج المبنية، بالتأكد المستمر من نسق العلاقات الذي تم اكتشافه. فهي وسائل لفهم الواقع، محددة في ذات الوقت القيمة العلمية للمعرفة العلمية.

للبراديغم دور كبير في تفسير الأفعال الاتصالية. هي طريقة لدراسة وإدراك المتغيرات التي تتحكم في الظواهر المعقدة والتي يستحيل فهمها بدون اللجوء إلى براديغم معين."لذلك، يسمح البراديغم بتصوير واقع موضوعي بطريقة مبسطة

والتقاط فقط تلك الأجزاء من الظاهرة التي نعتبرها مهمة، والتي تعني تلك القريبة من الهدف الذي يفترض أن يحققه البراديغم."[1]

هنالك عدة مميزات يتميز بها البراديغم. فهو يمتاز "بالإيجاز والدقة" (concisenes and accuracy)[2]، ممكنا من تفسير الظواهر المعقدة. كما أنه يمتاز "بالعمومية" إذ يمكن من طرح أسئلة وبقدرته فتح مجال لمزيد من المعلومات[3].

ثم إنه يمكن من "توسيع النظرية"[4] بقدرته على نقدها وإضافة افتراضات جديدة لها. كما أنه يسهل "التحقق من الفرضيات"[5] المصاغة في الميدان. أضف إلى ذلك، أنه يمكن من "التشخيص المستقبلي"[6] بالتنبؤ بالنتائج المتوقعة.

وفي الأخير، على مستوى معين، فإن البراديغمات لديها أيضا "قيمة مجربة"[7]، وبالتالي توفر رؤى جديدة من خلال خلق علاقات افتراضية جديدة.

بالرغم من المميزات التي قمنا بتحديدها أعلاه، إلا أن اللجوء إلى البراديغم قد يمثل خطرا على تطور المعرفة العلمية، إذ اللجوء إليها قد يبسط الواقع الذي يكون أعقد مما يظن الباحث. فينتاب الباحث شعور بأنه قد انتهى من عمله ويستعجل في عرض نتائج الدراسة، بدون التحقق منها. وهذا ما ذهب إليه كل من Huberman وMiles عندما حذرا من التسرع من عرض النتائج النهائية لأي دراسة ميدانية كانت، خصوصا لما يتعلق الأمر بالدراسات الكيفية.

[1] Petra Zia Sluková, **Communication of Information**, Prague, Charles University, Institute of Information Studies and Librarianship, p.5, www.informacniveda.cz/.../1172_Modul%20Communication%20o.. consulted on August 18th , 2018

[2] Ibid., p.6

[3] Ibid.

[4] Ibid.

[5] Ibid.

[6] Ibid.

[7] Ibid.

تتمثل مرحلة **التأويل والتحقق من النتائج** في منح معنى للمعطيات التي تم تكثيفها وعرضها (أو تنظيمها)، استنادا إلى بناء علاقات دالة ونماذج تفسيرية.

يتمثل الأمر تحديدا في "المعاني التي تأخذها الأشياء، تسجيل الانتظامات والنماذج والتفسيرات والأشكال الممكنة ووفرة العلاقات السببية والاقتراحات. والباحث الكفء هو ذلك الذي يكون ذهنه متفتحا وناقدا."[1]

وفي الواقع، تفسير النتائج لا يتحدد على هذا المستوى فحسب، بل يبدأ عند شروع الباحث في تجميع المعطيات، إذ يقوم تدريجيا بتحديد نتائج أولية يتحقق منها تدريجيا. فالباحث الذي يقوم بملاحظاته الأولى ويدون ما سمعه أو قرأه فهو يمنح معنى لما يشاهده، يستمع إليه أو يقرؤه. وشيئا فشيئا، فإنه سيلاحظ بعض التجانس في نتائجه الأولى التي دونها، مقترحا تفسيرا لها، مقابلا إياها مع ملاحظات أخرى ليتحقق منها.

فالوصول إلى نتائج لا يعني أن عملية التفسير قد انتهت، إذ على الباحث أن يتحقق منها معيدا النظر في معطياته المجمعة بشكل معمق. وهنا تظهر أهمية صلاحية النتائج، إذ يمكن للباحث أن يناقشها مع بعض المختصين، ليتكون لديه في آخر المطاف تصور عنها. فالمعاني المستخرجة من عملية التفسير يجب أن تُقاس ويُعاد النظر فيها إلى غاية ما يتأكد الباحث من صلاحيتها. وهنا، عليه أن يكون متفتح الذهن بقبوله إمكانية وجود تفسيرات غير تلك التي انطلق منها وأن يتخلى قدر الإمكان عن الأفكار المسبقة، وأن يتحلى بالموضوعية إلى أقصى درجة وأن يقبل مراجعة النتائج الأولى ليتحقق من صلاحيتها، حتى تتدقق أكثر كلما تقدم في التحليل.

بالرغم من نقاط التشابه بين البراديغم والنظرية من حيث إنه يتم التعبير عن كليهما برسم بياني وبمجموعة من المصطلحات الخاصة في كلتا الحالتين الاثنتين،

[1]Matthew B.Miles, A.Michael Huberman, **Analyse des données qualitatives**, traduction : Rispal Martine Hlady, Bruxelles, De Boeck, 2eme édition, 2005, p.30

إلا أن هنالك فروق بينهما. وهكذا نجد Granger الذي يؤكد بأن الفرق بينهما يكمن في ""الدرجة" وليس في "الطبيعة""[1]، بمعنى أن افتراضات البراديغم هي أكثر "دقة" و"خصوصية" من تلك الخاصة بالنظرية حيث تكون الأخيرة أكثر "اتساعا وأكثر طموحا".[2]

أما عن **التناول** أو **المقاربة** أو **المدخل** (approach) فهو يدل على اتجاه الباحث لتناول موضوع ما، "كطريقة لتناول المشاكل بأكثر مرونة من المنهج"[3].

يستخدم هذا المفهوم للدلالة على "المرجعية العلمية أو المعرفية التي يمكن طرح مشكلة البحث وتفسير نتائج دراستها في إطارها."[4] فيربط بين اتجاهات علمية للنظر في المشكلة المدروسة أو لتفسير النتائج المتوصل إليها عند تبني إطار تفسيري لها، بإرجاع المفاهيم المتفق عليها إلى أصولها النظرية. وتوجد مداخل متعددة في العلوم الإنسانية كما هو حال علوم الإعلام والاتصال التي تنهل من العلوم الأخرى بتبني مداخلها النظرية. فهي تنهل من علم النفس النظرية السلوكية لتبني تفسيراتها للظواهر الإعلامية أو الاتصالية لتفسير كيفية تأثير وسائل الإعلام والاتصال في سلوك الأفراد مثلا، أو من علم الاجتماع إحدى نظريات الصراع لتفسر مثلا أسباب أزمة الاتصال بين الزوجين.

أن يتبنى باحث المقاربة الماركسية لفهم أسباب الصراع بين الزوجين، يعني بأنه سيستقي من الماركسية ومن أتباعها بعض الافتراضات لفهم الظاهرة المدروسة، وإدراك الميكانيزمات التي تتحكم في حدوثها.

---

[1] أ. لارامي، مرجع سبق ذكره، ص.161

[2] نفس المرجع السابق

[3] Madeleine Grawitz, **Lexique des sciences sociales**, Paris, Dalloz, 2004, p.25

[4] محمد عبد الحميد، **البحث العلمي في الدراسات الإعلامية**، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الثانية، 2004، ص.29.

وبالرغم من أن مصطلح approach قد يترجم إلى كلمة منهج، فإن له علاقة بالنظرية حسب تحديدي له سابقا. وهذا التحديد لمصطلح المدخل النظري يختلف عن المدخل المنهجي الذي يهتم "باختيار الطريقة أو الأسلوب في معالجته للمشكلة المطروحة للوصول إلى الحقائق الخاصة".[1] وبالتالي، يكتسي الطابع المنظم للنظرية في المسار العلمي أهمية كبيرة؛ فبدونها لا يمكن القيام بدراسة إمبريقية صارمة، من حيث كونها نسقا افتراضيا-استنباطيا الذي يُبنى من خلال ملاحظة الواقع حيث ستكون الملاحظات أكثر اتساقا وأكثر إفادة.

2) وظائف النظرية:

تمكن النظرية من عرض لمحة شاملة عن الظواهر، كيفية بنائها واتساقها، بمنحها إطارا تفسيريا، وفي الأخير تضمن تلك الوظيفة التنبؤية للظواهر. ويرى Bachelard أن الظواهر "ليست بالبسيطة. فهي نسيج من العلاقات"[2] التي يجب اكتشافها وتفسيرها للتمكن من التنبؤ بحدوثها.

على المستوى الإبستمولوجي، تكمن وظيفة النظرية في أنها "الأداة الأكثر قدرة على القطيعة الإبستمولوجية"[3]. وبالفعل، تقوم النظرية بقطيعة مع الأفكار المسبقة والحس المشترك حتى لا تتعثر عملية تطور المعرفة العلمية.

يُحَدَّد دورها في أنها تمنح "جدولا منظما لظواهر المعرفة، تشير إلى طريقة تنظيمها وهيكلتها، تقوم بشرحها، التنبؤ بها، كما تعطي استدلالا لملاحظة ظواهر جديدة. بدون الظواهر، لن يكون للنظريات موضوع".[4]

وهكذا، تقترح النظرية نسقا من المفاهيم لفهم الظاهرة محل الدراسة من خلال المعلومات المجمَّعة عنها، لتوضح كيفية عمل هذه الظاهرة وتنظيمها، بهدف التنبؤ

[1] محمد عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ص.30.

[2] Gaston Bachelard, op.cit., p.188

[3] Paul De Bruyne, Herman Jacques, De Schoutheete Marc, op.cit., p.95

[4] W.M.O ‘NEIL, **Faits et théories**, Paris, Armand Colin, p.280, dans: Paul de Bruyne, Jacques Herman et Marc de Schoutheete, op.cit.

بها. فإذا تبنى باحث ما نظرية الصراع الطبقي التي قام بصياغتها Marx لفهم مثلا طبيعة الصراع داخل الأسرة الجزائرية، فإنه سيستخدم النسق المفاهيمي الذي وضعه Marx لفهم هذه الظاهرة. وعلى هذا الأساس، يكمن دورها في منح إطار تفسيري للظواهر التي هي محل الدراسة. وطبيعة الظواهر وموضوعها هو الذي يحدد النظرية المتبناة في حالة البحوث الاستنباطية.

حسب Merton، تؤدي النظرية أربع وظائف أساسية. تتمثل الوظيفة الأولى في **الاكتشاف بالصدفة** (serendipity).

في البحث الإمبريقي، يمكن أن يواجه الباحث واقع "غير منتظر" الذي سيوقظ فضوله العلمي، حيث سيكون هذا الواقع متناقضا مع النظرية المتبناة والوقائع المتوصل إليها، مؤديا إلى "نظرية جديدة أو توسيع للنظرية".[1]

أضف إلى ذلك، أن الحدث المكتشف يجب أن يكون جوهريا إلى درجة أنه "يجب أن يؤثر في النظرية العامة".[2]

هنالك ظواهر موجودة منذ الأزل. بيد أنه كان يكفي أن يرى Newton في الأجسام الساقطة معلومات جوهرية التي مكنته من صياغة نظرية الجاذبية، حيث تتصور الأخيرة كالقوة المسؤولة على سقوط الأجسام وحركة الأجرام السماوية.

إذن، اكتشاف غير منتظر ومفاجئ وجوهري، يوقظ فضول الباحث، حيث سيوجهه إلى طريق فرضية جديدة هو الذي يحدد الاكتشاف بالصدفة. هذه الأخيرة تفترض "روحا متعودة على اكتشاف غير المنتظر"[3].

تكمن ثاني وظيفة للنظرية في **إعادة بناء النظرية** (recasting of the theory).

---

[1] Robert K.Merton, **Eléments de théorie et de méthode sociologique**, traduit par : Henri Mendras, Paris, Armand Colin, 1997, p.p 43-44

[2] Ibid., p.44

[3] Vivianne Châtel, **La logique de la découverte en recherche qualitative,** Newsletter Studienbereich Soziologie, Sozialpolitik und Sozialarbeit, N° 13, University of Fribourg, Switzerland, 2013, p.p 35–39

لما يقوم الباحث بملاحظات، فيجب أن يعلم أنه سيتغافل عن بعض التفاصيل التي تكتسي أهمية بالغة. وبالفعل، بعض التفاصيل ستبدو له بدون فائدة وبذلك سيقوم بتجاوزها وعدم أخذها بالاعتبار. في هذه المرحلة، سيدرك أن التفسير الذي يقدمه عن الظاهرة غير كاف، وهنا تبرز "ضرورة تغيير بيان التصور المقدم حول الظاهرة. وسنكون مجبرين على إدراج متغيرات لم تدرج بشكل منهجي".[1]

يؤدي هذا الوضع الجديد إلى إعادة بناء النظرية، من خلال ملاحظة أحداث لم تؤخذ من قبل بالحسبان، والتيقن بضرورة إدراج متغيرات جديدة في الدراسة. وتلعب التقنيات دورا مهما في إعادة التوجيه النظري لأنها "تفتح آفاقا جديدة للبحث، وبالتالي للنظرية"[2]. فإذا أخذنا على سبيل المثال تقنية الاختبار المتكرر(panel technique) التي الهدف منها "دراسة تغيرات الآراء والمواقف والسلوكات"[3] ، تتطلب هذه التقنية القيام بمقابلات متكررة أو تقسيم استمارات بشكل متكرر، لتحديد التغيرات في الآراء والمواقف وأسبابها بغرض "الوصول إلى نتائج يمكن تعميمها"[4].

والملاحظات المتوصل إليها من خلال النزول إلى الميدان (الذي تستخدم فيه التقنيات المختلفة في العلوم الإنسانية) ستؤدي إلى كم معين من المعلومات، التي "ستقترح فرضيات جديدة"[5]، أمر لن يكون ممكنا إلا باستخدام تقنيات ملائمة لطبيعة الدراسة، لأهدافها ولطبيعة المعلومات المراد تجميعها، مما سيمنح توجها جديدا للانشغالات النظرية. هنا تكمن الوظيفة الثالثة للنظرية والمتمثلة في **إعادة التوجيه النظري** (theoretical reorientation).

أما الوظيفة الرابعة للنظرية، فتتمثل في **توضيح المفاهيم** (clarification of concepts). يحتل توضيح المفاهيم مكانة مهمة في المنهجية، لأن مفهوما محددا

---

[1] Robert K.Merton, op.cit., p.47

[2] Ibid., p.52

[3] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.759

[4] Ibid., p.760

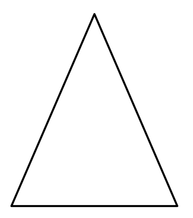
[5] Robert K.Merton, op.cit., p.53

بشكل جيد سيوجه أسئلة الدراسة نحو زاوية دراسة محددة بشكل دقيق. بيد أن ما يتغافل عنه بعض الباحثين هو "إهمال تحليل المتغيرات".[1]

ونظرا لمتطلبات منهجية، يجب أن تكون المفاهيم محددة بوضوح تام، من خلال البحث الإمبريقي الذي جعلها تصل إلى درجة معينة من الدقة والوضوح.

والمفهوم ليس مجرد كلمة. لتحديده، يجب الأخذ بالاعتبار عدة أبعاد، عن طريق رسم وضعه كل من Ogden وRichards، حيث تم تبسيطه لمتطلبات التحليل كما يلي:

تسمية (DENOMINATION)



(COMPREHENSION) الفهم (EXTENSION) توسع

بالنسبة إلى التسمية، توجد ثلاث حالات. تتمثل **الحالة الأولى** في اختيار اسم يستخدم في الحياة اليومية، حيث يتعين على الباحث "منحه مكانة مفاهيمية".[2]

نستخدم كلمات من القاموس اليومي التي يمكن أن تستخدم في تخصص ما، كالوزن والسرعة والقلق. لكل كلمة من هذه الكلمات تعيين محدد حين استخدامها في سياق علمي.

[1] Robert K.Merto, op.cit., p.56

[2] Hervé Dumez, **Méthodologie de la recherche qualitative**, France, Vuibert, 2013, p.160

تتمثل الحالة **الثانية** في "اختراع كلمة"[1] التي لم تستخدم بتاتا من قبل، ومنحها دلالة معينة، كمفهوم العصبية الذي حدده ابن خلدون والذي هو مرادف للتماسك الاجتماعي، والمتمثل في القوة الرئيسية التي تحدث المرور من حالة إلى أخرى، من مجتمع إلى آخر، مانحا للتغير وتيرة دائرية.

أما **الحالة الثالثة** فتكمن في "الجمع بين كلمات"[2] حيث بالجمع بين كلمتين اثنتين ستظهر دلالة جديدة.

أما **الفهم** فيتمثل في "تعريف المفهوم"[3]، تعريف يجب أن يكون دقيقا حيث سيتم تعيين خصائصه.

وفي الأخير، يشمل **التوسع** "الحالات الإمبريقية التي سيطبق (أو لا يطبق) عليها المفهوم"[4]، للنظر في أي حالة إمبريقية يمكن أن يطبق المفهوم المعني، إذا أمكن توسيعه، ومتى يجب إنهاء هذه العملية، علما بأن هنالك مفاهيم لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر، حيث يجب التفكير في طريقة تجعلها ممكنة الملاحظة.

3) دور الفرضيات في صياغة النظرية:

والنظرية حتى تثبت صحة افتراضاتها، يجب أن تتواجه مع التجريب. فإذا ما اكتشف أنها تحتوي على بعض الثغرات أو الأخطاء، فهذا لا يمثل نقطة ضعف، بالعكس يمكن ذلك من إعادة النظر فيها وفي مبادئها.

لهذا الغرض، سيقوم الباحث "باقتراح فرضيات (مبادئ) محاولا اختبارها"[5] والتي ستوجهها النظرية.

فما هو دور الفرضيات في صياغة أو إعادة صياغة النظرية؟

---

[1] Hervé Dumez, op.cit.

[2] Ibid.

[3] Ibid., p.161

[4] Ibid., p.162

[5] Alex Mucchielli, **Les sciences de l'information et de la communication**, Paris, Hachette Livre, 4eme édition, 2006, p.88

لم يكن ليتطور العلم لولا ذلك البناء النظري الذي رافقه في مسيرته. والطريقة العلمية تخضع لضوابط ومحددات، فهي تنطلق من "بعض المعلومات التي تضبطها الإشكالية إلى تحديد إبستمولوجي للمشاكل، ثم انطلاقا من هذه المشاكل إلى نسق من الفرضيات التي تكوّن قاعدة أي تنظير كان."[1]

هنالك علاقة جدلية بين النظرية والبحث الإمبريقي، حيث يتمثل دور هذا الأخير في التأكد من فرضية (أو فرضيات) النظرية المتبناة.

عن طريق النظرية (مهما كانت درجة نضجها) يتم تحديد إطار الملاحظة، كما يستند إليها للتأكد من الفرضيات (أو تفنيدها) في الميدان، حيث سيتم منح إطار تفسيري لما تمت ملاحظته. فالنظرية تقود الفرضيات في مسار معين حيث تتم صياغة الأخيرة بتوجيه من النظرية. وبالتأكيد أن المعرفة العلمية لا تنطلق من العدم؛ هنالك معارف قعدت لانطلاقها ولتطورها. بيد أن الأفكار الجديدة تكون لصيقة في بدايتها بالحدس الذي سيوجه تفكير الباحث نحو مسار معين، مرتكزة على ما هو معروف لحظة التقصي العلمي، من خلال مسار استقرائي يحاول عن طريقه الباحث تعميم ما تمت ملاحظته، من خلال التجربة وإعادة القيام بها لعدد كاف من المرات، حتى يتم في مرحلة ما التأكد من صلاحية التعميمات على الحالات المدروسة. ولكن، لما تصل المعرفة العلمية في مجال معين إلى درجة "النضج" ويتم تحديد مبادئها بشكل واضح ونهائي وتأخذ شكل نظرية، ستنتج المعرفة العلمية بعد هذه المرحلة عن "تفكير استنباطي."[2]كيف يكون ذلك؟

سيمكن التفكير الاستنباطي من التأكد من افتراضات النظرية التي ستقاس في الميدان، عند القيام بتحقق إمبريقي أساسه الانطلاق بفرضيات وتبيين مدى تطابق النتائج المتوصل إليها بافتراضات النظرية، بمعنى المرور من العام (أي من النظرية التي تحققت من حالات متكررة ومنتظمة) إلى الخاص المتمثل في الحالة التي تخضع

[1]Paul de Bruyne, Jacques Herman, Marc de Schoutheete, op.cit., p.95

[2] Marie-Dominique Popelard, Denis Verant, op.cit., p.60

للتحقق الإمبريقي. ولن يتأتى ذلك إلا بفضل **الفرضية** (hypothesis) والمكانة التي منحت لها في **المنهج التجريبي** باعتبارها ليس مجرد إجابة مؤقتة عن سؤال البحث، بل باعتبارها تحديدا موضوع التحقق الإمبريقي بانتهاج الاستنباط.

طُبق **المنهج التجريبي** بداية في حقل علوم الطبيعة، ثم استُخدم في حقل العلوم الإنسانية. يعتمد على "استقصاء العلاقات السببية في ظاهرة أو مشكلة ما بين عدد من المتغيرات المحددة والنتائج المرتبطة بها، من خلال المقارنة بين مجموعات تجريبية ومجموعات ضابطة وتحليل الفروق بينها".[1]

يستهدف هذا المنهج استنتاج العلاقات السببية بين متغيرين اثنين (بشكل عام) للتأكد من صحة الفروض المقترحة، بتبيين مدى تأثير **المتغير المستقل** (السبب) على **المتغير التابع** (النتيجة). لأجل ذلك، نقوم بإجراء "التجربة التي يتم من خلالها معالجة متغير أو أكثر بتغيير محتواه عدة مرات"[2]. هذا هو المتغير المستقل.

أما لتحديد المتغير التابع، فيجب "دراسة آثار المتغير المستقل في المتغير الذي يتلقى تأثيره".[3] وأثناء الشروع في هذه العملية، قد تعترض التجربة متغيرات أخرى تتدخل في مسار التجربة وتؤثر في نتائجها. وبالتالي، تتدخل في النتائج المتوصل إليها إلى درجة أن الباحث لا يتأكد كل التأكد من أن هذا هو المتغير المستقل الذي يؤدي بدون ريب إلى حدوث ذلك المتغير التابع. هي متغيرات **متداخلة** أو **معترضة** أو ما يسمى أيضا **بالمتغيرات الخارجية**. لذلك، على الباحث تحديدها وعزلها للتحكم بشكل دقيق في التجربة.

يُعتبر المنهج التجريبي نموذجيا في دراسة الظواهر الطبيعية التي يمكن قياسها، تجريبها وحتى إعادة التجربة في المخبر بتوفير الظروف الطبيعية لها. أما في حقل

---

[1] مصطفى محمود أبو بكر، أحمد عبد الله اللحلح، **مناهج البحث العلمي**، الإسكندرية، الدار الجامعية، 2009، ص.61.

[2] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص.102.

[3] نفس المرجع السابق

العلوم الإنسانية فلا يُطبَّق إلا في حالات معينة تتطلب القياس. يمكن إخضاع الطبيعة للقياس متى شاء الباحث. أما في العلوم الإنسانية فهذا الأمر يتعذر في حالات كثيرة، نظرا لأن الهدف من الدراسة ليس بالضرورة قياس الظاهرة، ثم لأن القياس على الأفراد لا يتم إلا بموافقتهم (بشكل عام) ليكونوا جزءا من التجربة. ثم، لأن تعقد الظواهر الإنسانية يجعل تحديد المتغيرات ليس بالمهمة السهلة.

وعلى هذا الأساس، هذا المنهج كأي منهج لا يُطبق لدراسة أي ظاهرة، لمجرد أن الباحث أراد أن يطبق إحدى المناهج المرتبطة تاريخيا بعلوم الطبيعة، حتى يضفي نوعا من العلمية لبحثه ويمتثل للمناهج المستخدمة في حقل هذه الأخيرة.

يمتثل تطبيق هذا المنهج لطبيعة الظاهرة المدروسة والهدف منها. فلا يمكن مثلا تطبيقه إذا كنا في صدد دراسة تهتم بالبحث عن أصالة وثائق، عُثر عليها في إحدى الكهوف التي كان يختبئ فيها عناصر من جيش التحرير الوطني أثناء حرب التحرير الجزائرية. لذلك، على الباحث أن يطبق منهجا آخر ألا وهو المنهج التاريخي الذي يتماشى وطبيعة الموضوع المعالج.

وقد ارتبط التقعيد لمكانة الفرضية عندما بدأ التأسيس للمنهج التجريبي وعند تبيين مراحله المختلفة. فهو يمر بداية **بالملاحظة** (observation) التي تُعتبر أقدم شكل لجمع المعطيات، استخدمها العلماء لتجميع المعطيات من الميدان الذي هو رهن الدراسة. والأداة التي بواسطتها يتم تجميع المعطيات اعتمادا على الملاحظة هي **إطار الملاحظة**: إما من خلال **شبكة الملاحظة** أو **دفتر المشاهدات**. في القديم، لم تكن موجودة التقنيات التي نعرفها اليوم والتي تُستخدَم حاليا في علوم الطبيعة، على اختلافها كالتليسكوب، الميكروسكوب،.... كأدوات فعالة. وعليه، كانت تُبنى المعرفة العلمية بشكل مباشر بدون توسط تقنيات الملاحظة المعروفة اليوم.

ارتبطت الملاحظة منذ البداية بالاكتشاف، بعلاقتها بالرحلات العلمية والسفر إلى مناطق لم تُكتشف من قبل، كسفر Marco Polo إلى الصين وبعض المبشرين المسيحيين إلى بلدان لم تدخل بعد في المسيحية.

وهي تتطلب "المكوث في الميدان ليدل هذا المفهوم المستعار من الأنتروبولوجيا في نفس الوقت على موضوع الدراسة ومكانها(...) أن تلاحظ يعني ذلك أن تعيش مع، أو على الأقل أن تكون قريبا، أن ترى عن قرب."[1]

يعني ذلك، أن الملاحظة تقنية تتطلب الاقتراب عن كثب من الموضوع المدروس، لمدة متفاوتة قد تدوم ساعات وتصل في حالة البحوث الأنتروبولوجية إلى عدة سنوات. وبذلك، سيترتب عنها تسجيل لكل التصرفات والأقوال والحركات بأكبر دقة ممكنة. هي تقنية لتجميع المعطيات تستخدم في علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية على حد سواء.

كان ذلك عن المرحلة الأولى من المنهج التجريبي والمتمثلة في الملاحظة. أما المرحلة الثانية فتتمثل في **الفرضية** باعتبارها إجابة مؤقتة عن سؤال البحث.

تمكننا الفرضية من توجيه بحثنا وأدواتنا نحو زاوية بحث محددة، فتتحدد على أساسها المفاهيم. يتم التأكد من الفرضية عن طريق استخدام الملاحظة*، وستولد "الفكرة الجديدة التي ستقبل (لأنه قد تم التأكد من صلاحيتها) والتي ستدمج في المدونة (corpus) النظرية، والتي ستولد بدورها فكرة جديدة التي ستخضع نتائجها إلى القياس، وهكذا دواليك".[2] وتكون بالتالي فكرة مسبقة تخضع للقياس الإمبريقي، وبالتالي لأسس علمية صارمة.

فالفكرة هي الانطلاقة لأي بحث علمي، يضبطها التفكير العلمي والمعايير المنهجية المتعارف عليها.

فالفرضية هي التي تتحكم في التفكير العلمي وتوجه التجربة إلى اتجاه معين، مقترحة تفسيرا سببيا يربط بين متغيرات معينة، تحدد طبيعتها وطبيعة الترابط

---

[1] Jean-Claude Combessie, op.cit., p.15

* في العلوم الإنسانية، يعني ذلك أيضا النزول إلى الميدان والتحقق من الفرضيات المصاغة.

[2] Marie-Dominique Popelard, Denis Verant, op.cit., p.60

بينها، كتفسير مسبق للعلاقة بينها حيث يبدو للباحث للوهلة الأولى أنها تتحكم في الظاهرة المدروسة، والتي ما عليه سوى التحقق منها.

هذه الفرضية ستستنطق الظاهرة التي هي محل التجربة للتأكد منها أو لتفنيدها. غير أن ذلك يستدعي أن يستنطق الواقع الملاحظ بدون أن توجهه الأفكار المسبقة، التي هي في الواقع ستضلله وتبعده عن إدراك الواقع الخاضع للتجريب.

عند تحديد خطوات البحث العلمي في العلوم الطبيعية، اعتبر بعض العلماء - الذين كان لهم أشد التأثير في تطور العلم الحديث- الفرضية كمرحلة غير أساسية وذلك لزمن طويل، بينما تُعتَبَر اليوم خطوة أساسية.

يُعتَبَرBacon (1561-1626) ممثل المنهج التجريبي. بالرغم من ذلك، فإنه لم يولي أهمية للفرضيات. بل أكثر من ذلك، نجده قد "حذر منها وسماها استباق الطبيعة، أي استنتاجات للعقل الإنساني تنصب على الطبيعة، بينما هي تتجاوز ما تخبر به الطبيعة."[1]

بمعنى، أن الفرضية بالنسبة إلى هذا العالم هي مجرد تخمين، لا أساس لها من الدقة العلمية ولا تعلمنا عما يحدث حقيقة في الطبيعة.

ونفس التصور بالنسبة إلى Newton (1642-1727) الذي أحدث طريقة رياضية لتحويل النظريات الفيزيائية إلى نتائج محسوبة تستند إلى الملاحظات.

غير أنه لم يكن يولي أهمية كذلك للفرضية؛ فقد كان فقط "يستنبط النتائج من الأسباب إلى أن يصل إلى السبب الأول بقوله "إنني لا أضع فرضيات"، معتبرا أن الحقائق التجريبية هي التي تضمن الوصول إلى الحقيقة".[2]

بالنسبة إلى Newton، الفرضية غير ضرورية للوصول إلى الحقيقة العلمية*.

---

[1] يمنى طريف الخولي، مرجع سبق ذكره، ص.74.

[2] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.36

* وبالفعل، يمكن (بل ويجب) في بعض الحالات في العلوم الإنسانية الاكتفاء بتحديد هدف (مختصر ومحدد بشكل مباشر) بدون صياغة الفرضيات. يحدث ذلك في حالة عدم قدرة الباحث على التنبؤ..

بيد أن Claude Bernard (1813-1878) قد أكد على دور الفرضية في المسار العلمي عند تحديده لمعالم المنهج التجريبي.

والملاحظة والتحقق لا يمكن أن يكونا إلا عن طريق "فرضية التي توجه التفكير وتقود التجريب. منظمة بمبدأ الحتمية، تقترح هذه الفرضية تفسيرا سببيا للظاهرة المدروسة"[1]، حيث ستكون بمثابة تأويل مسبق وأكثر احتمالا للظاهرة المدروسة.

تُعرَّف الفرضية على أنها "حقيقة ممكنة، ولكن لم يتم التحقق منها".[2] هي فكرة، "كتفسير مؤقت أو تعميم مبدئي، تظل صلاحيته موضع اختبار."[3]

بمعنى، أن الباحث يعطي تفسيرا أوليا للظاهرة المدروسة، ينطلق منه ويحاول أن يتأكد منه تدريجيا بفعل الاختبار أو التجريب.

فالتأكد المنظم من تفسير معين لعلاقة بين متغيرات، يدفع الباحث إلى صياغة فرضية (حتى وإن فندتها النتائج). أما إن كان بصدد البحث عن التفسيرات الممكنة عن الظاهرة المدروسة فلن يحدد سوى الهدف المتوخى من دراسته. كما أنه سيحدد الهدف فحسب في حالة وجود معلومات قليلة (وحتى منعدمة في حالة الدراسات الاستكشافية). وطبيعة السؤال المطروح في نهاية الإشكالية ستحدد بدورها إن كان سيقوم بصياغة فرضيات أم سيقوم بتحديد الأهداف ليس إلا. فإذا طرح السؤال الموالي: ما هي العوامل التي ستؤدي إلى تغيير مناهج التعليم في الطور الابتدائي؟

يحيل هذا السؤال إلى عدم وجود معلومات كافية لدى الباحث، مما سيستدعي منه الأمر إلى تحديد هدف الدراسة بدلا من صياغة فرضيات.

وفي الأخير، يجدر بي الإشارة إلى نقطة في غاية الأهمية، والمتمثلة في أن عدم وجود فرضية في البحث (للأسباب الموضوعية التي ذكرناها أعلاه) لا يمكن بتاتا أن يشكك في صرامة البحث العلمي. كما أن وجودها وعدم وجود أهداف لا يعني أيضا بأن البحث العلمي وصل إلى درجة معينة من الصرامة والدقة العلمية. بيد أنه لا يجب تحديد هدف بدلا من فرضية حيث تكون هنالك معلومات كافية تمكن من التأكد من فرضية تتم صياغتها، والعكس صحيح. الأمر مرتبط باختيارات منهجية صارمة، لها مبرراتها العلمية التي يجب على الباحث ضبطها.

[1] Marie-Dominique Popelard, Denis Verant, op.cit, p.59

[2] **Dictionnaire de philosophie**, op.cit., p.137

[3] محمد عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، 2004، ص.109

يتم تحديد الفرضية:

-إما **بطريقة استقرائية**، وذلك بناء على ملاحظة الجزء للوصول إلى تعميمات تفسر ظاهرة يحاول الباحث من خلالها صياغة قانون أو نظرية.

-وإما بطريقة **استنباطية**، بمعنى أنه يتم تحديد الفرضية من خلال نظرية موجودة. فيتم اللجوء إليها إما "لدعم هذه النظرية أو لتطويرها أو لمنافستها."[1]

وهذه الطريقة الثانية هي المعتمدة إجمالا لدى الباحثين المبتدئين.

وفي نفس المسار الذي سلكته علوم الطبيعة، حاولت العلوم الإنسانية تطبيق مناهج وأساليب الأولى حتى يُعتَرَف بمكانتها العلمية بين سائر العلوم.

وبالطبع، الفرضية مرحلة جد مهمة في البحث العلمي في العلوم الإنسانية. فهي إجراء عملي أولي في المرحلة الفرعية الثانية من أول مرحلة في البحث العلمي والمتمثلة في تحديد مشكلة البحث *.

فهي تحدد العلاقة بين المتغيرات التي تتحكم في الظاهرة. ووجود هذه المتغيرات وتحديد علاقات التأثير بين المتغير المستقل والمتغير التابع هو الذي يفرض اقتراح تفسير أولي لهذه العلاقة بين المتغيرات **.

---

[1] نفس المرجع السابق، ص.113.

*تشمل المرحلة الأولى من البحث العلمي والمتمثلة في تحديد مشكلة البحث مرحلتين فرعيتين اثنتين: طرح مشكلة البحث والعملياتية، حيث تعني الأخيرة اتباع منهجي لمجموعة من العمليات والتي يمثل تحديد الفرضيات فيها أول هذه العمليات.

** وهنا، نصل إلى المرحلة الثالثة في المنهج التجريبي، ألا وهي التجريب. يُعتبَر **التجريب** تقنية مباشرة للبحث العلمي شأنها شأن الملاحظة والاستمارة والمقابلة. فهو يمكننا من تجميع معطيات من الميدان بشكل مباشر، تتمثل أداته في **المخطط التجريبي** أو **مخطط التجربة**. تاريخيا، قبل أن تُستخدَم هذه التقنية في العلوم الإنسانية، فقد استُخدِمت في علوم الطبيعة. وهي التي منحت لهذه الأخيرة المكانة التي وصلت إليها.

وكانت هنالك صعوبة في تطبيق هذه التقنية في مجال العلوم الإنسانية، لسبب بسيط يتمثل في صعوبة التجريب (وأحيانا استحالته) على الإنسان. إلا أنه يُستخدَم لما نريد تحديد العلاقة بين السبب

4) دور المفاهيم في بناء النظرية:

فبعد تحديد فرضية أو فرضيات، يتعين على الباحث تحديد المفاهيم الرئيسية في الدراسة والقيام "بتشريحها"، وهذا ما يسمى **بالتحليل المفهومي**(conceptual analysis)، حيث يتم استخراج المفاهيم من الفرضية أو من هدف البحث.

بعدما يتمكن الباحث من طرح السؤال (أو تحديد هدف الدراسة) الذي سيوجه كل مسار البحث، عليه الآن الانتقال إلى تطبيق **عملياتية** (operationality) هذه المشكلة حتى يحقق أول مرحلة من بحثه.

تتمثل **العملياتية** في تطبيق مجموعة من العمليات المنهجية المنظمة يتحقق من خلالها تجسيد سؤال البحث، والذي سيمكن الباحث من المرور تدريجيا إلى الميدان. إذن، هي الانتقال التدريجي من الجانب المجرد إلى الجانب الملموس باتباع مجموعة من الخطوات العلمية المنهجية الصارمة، **حيث يتم من خلالها تحديد ما يلي:**

أ-الفرضية (أو الهدف)

ب-التحليل المفهومي

ج-مراقبة مدى صحة العمليات السابقة.

وبعدما حددت آنفا ماهية الفرضية، يتعين الآن التعرض إلى التحليل المفهومي. يُعتَبَر **التحليل المفهومي** ثاني مرحلة فرعية من المرحلة الأولى للبحث في العلوم الإنسانية والمتعلقة بالعملياتية.

والنتيجة. فيخضع الفرد إلى فحص مدى استجابته للعنصر المثير، مثلا في بحث يسلط الضوء على تأثير بعض العوامل الفيزيقية، كتعرض العمال لعوامل فيزيقية غير ملائمة (**متغير مستقل**) وتأثير ذلك في مردودية العمل (**متغير تابع**). وعندما نتطرق إلى كيفية تطبيق التجريب في حقل العلوم الإنسانية، ندرك بأن علم النفس هو ذلك التخصص الذي طُبِّقت فيه هذه التقنية بشكل واسع.

تمكننا هذه المرحلة من المرور تدريجيا من المستوى المجرد إلى المستوى الملموس، لأنه لحد الساعة نتواجد فقط على المستوى الأول (حتى بعد طرحنا لمشكلة البحث وتحديد الفرضيات أو هدف البحث).

هو مسار يتم بمقتضاه التجسيد التدريجي لما نريد التحقق منه في الميدان والذي **يمر بالمراحل الآتية:**

أ-استخراج المفاهيم عادة من الفرضية (أو من هدف البحث في حالة البحوث الاستكشافية)

ب-تحديد الأبعاد

ج-وفي الأخير، تحديد المؤشرات

-المفاهيم: (concept)

لاحظت حين تدريسي للطلبة وتأطيرهم، أن المشكل العويص الذي يواجههم يتمثل في كيفية تحديد المفاهيم.

التحدث عن **المفاهيم** مسألة قديمة، والتي أسالت الكثير من الحبر. فقد تناول هذه المسألة Aristotle عندما حدد ركيزتي العلم والمتمثلة في: "التعريف والبرهنة".[1]

بمعنى، تحديد الموضوع بتحديد المفاهيم التي سيتعامل معها العالم، ثم البرهنة على وجودها، كمفهومي: المادة والصورة، حيث يشير إلى أنه لكي نصل إلى تحديد دقيق لهذه المفاهيم، نبدأ "بالأشياء المحسوسة لنرتفع بواسطة التصنيفات والتعميمات إلى المجال الحقيقي للعلم الذي يبقى مجال المفاهيم."[2]

فمنذ الأزل، للمفاهيم دور كبير في المجال العلمي، مهما كان حقل البحث، سواء تعلق الأمر بحقل علوم الطبيعة أو بحقل العلوم الإنسانية.

---

[1] R.Taton, op.cit., p.265

[2] Ibid.

والمفهوم هو "فكرة مجردة وعامة."[1] هو تصور عام ومجرد للظاهرة المراد ملاحظتها.

ولكن، ما هي المفاهيم التي يجب ضبطها؟ وعلى أي أساس يتم ذلك؟

لا يجب تحديد المفاهيم بطريقة عشوائية وأيا كانت؛ يجب تحديد المفاهيم التي تبدو للباحث أنها تكتسي قيمة ومنفعة علمية بغرض "جعل ملاحظة بعض أوجه الواقع ممكنة."[2]

ولن يتأتى ذلك إلا بالشروع في عملياتية المفاهيم، حيث سيتم استخراج الأخيرة عادة من الفرضيات. يحدد المفهوم كبناء مجرد (إطار نظري) وبشكل نظري ما ستتم ملاحظته (في الواقع الإمبريقي).

فإذا قمت بصياغة الفرضية الموالية:

"تتردد الطبقة المتوسطة على المسرح أكثر من الطبقة العاملة"، يتعين علي أن أحدد بشكل دقيق المفاهيم الثلاثة الموالية: الطبقة المتوسطة والمسرح والطبقة العاملة. كما سيتطلب مني الأمر أن أنزل إلى الميدان وأحسب نسبة تردد زائري المسرح من كلا الطبقتين الاثنتين. وعلى هذا الأساس، سيحدد المفهوم الظواهر الخاصة التي يجب ملاحظتها إمبريقيا.

يقوم المفهوم بوظيفتين اثنتين: التنظيم والتوجيه. فهو ينظم "الواقع بالإبقاء على الخاصيات المميزة والدالة للظواهر"[3]، بحيث سيتضح للباحث ما الذي يجب أن يبقي عليه من انطباعات وتمثلات حول الظاهرة المدروسة، متخليا عن المسلمات الخاطئة.

ثم إنه يوجه البحث إلى مسار معين، انطلاقا من تمثلات معينة حول الظاهرة.

بالنسبة إلى Durkheim، يتم تحديد المفهوم انطلاقا من الظاهرة المدروسة حيث يتعين على عالم الاجتماع "أن يتعامل بداية مع الظاهرة ثم يحدد المفهوم المناسب".[4]

---

[1] **Dictionnaire de Philosophie**, op.cit., p.49

[2] François Dépelteau, op.cit., p.175

[3] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.385

[4] Frédéric Rouvière, **Les règles de la méthode sociologique d'Emile Durkheim: des leçons méthodologiques pour la Recherche juridique,** HAL Id: halshs-00709878, https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00709878
Submitted on 19 Jun 2012, paru in Jurisprudence, Revue critique, 2011, p.p 329-346

فتكون الانطلاقة بذلك الموضوع، أما المفهوم فيكون نقطة الوصول. وهكذا، المفهوم يبنى لاحقا ولا يبنى مسبقا.

كما أن المفهوم في العلوم الإنسانية يؤدي وظيفتي: "التعيين والتنبؤ"[1]. يقوم بوظيفة التعيين من حيث تحديده لطبيعة الظاهرة المدروسة، لما هو غير مدرك بشكل مباشر. ثم بوظيفة التنبؤ، من حيث قدرته على توقع نتائج أخرى عن الظاهرة المراد تعميم الملاحظات والنتائج المتوصل إليها.

والملاحظ أن مكانة المفهوم في العلوم الإنسانية تختلف عما هي عليه في علوم الطبيعة، إذ نجده في الأخيرة يخضع "لضرورات تماثل القياس والتكميم. أما في العلوم الإنسانية، فهو يتصادم مع مسألة مفردات اللغة".[2]

فالمفهوم كتصور مجرد له دلالة معينة تبعا للسياق الذي وظف فيه لأول مرة. ثم إنه يمكنه التطور مما يؤدي إلى توظيف جديد له، في سياق مختلف عن الأول.

وبالتالي، يمكن أن يتغير معناه، مما يستدعي تحديدا آخر له، مؤديا إلى تأويل الظاهرة بشكل مغاير عن التأويل الأول. وقد يستخدمه آخر في سياق آخر وهكذا دواليك، إلى درجة أنه سيضحى غامضا في بعض الحالات [*].

وتطور العلم في مجال معرفي معين لن يتأتى إلا بعد الإجماع على تحديد المفاهيم الأساسية فيه.

ولكن، ما الذي سيرشدني إلى تحديد المفاهيم الخاصة بهذه الدراسة أو تلك؟

يتحدد ذلك من خلال ما تم التعرف عليه في الدراسة الاستطلاعية، استنادا إلى النظرية المتبناة.

---

[1] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit.

[2] Ibid.

[*] هي أيضا حالة حتى بعض المفكرين الذين وظفوا مفاهيم لأول مرة والتي كانت مبهمة من بدايتها.

تكتسي **الدراسة الاستطلاعية** أهمية كبيرة في الإطار المنهجي لأي دراسة كانت. ونتعجب لما لا نجد في بعض الدراسات (حتى تلك الأكاديمية) هذا المحور. فهي جزء لا يتجزأ عن الإطار المنهجي من حيث كونها الانطلاقة لها.

للدراسة الاستطلاعية أهمية قصوى في حقل العلوم الإنسانية. تشمل هذه المرحلة "عمليات القراءة، المقابلات الاستطلاعية وبعض المناهج الاستطلاعية المكملة".[1]

وهي تكتسي أهمية كبرى في نموذج البحث الكلاسيكي الذي عادة ما ينتهج الاستنباط، إذ عادة ما تسبق العمل الميداني في حد ذاته: يتم من خلالها تجريب التقنية (أو التقنيات) المتبناة بتعديل محتواها مما يقرب الباحث من عينة بحثه، وتحديد الإشكالية والتساؤلات والفرضيات بشكل أدق، وأيضا المفاهيم والمتغيرات الأساسية. كما سيتمكن الباحث فيها من التعرف على الدراسات السابقة.

وفي الأخير، تمكّنه هذه المرحلة من التخلي عن المسلمات الخاطئة. ولن يتأتى ذلك إلا عبر سلسلة من القراءات حول الموضوع، حيث سيحصل الباحث على عدد من المعلومات والبيانات حوله بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، كما سيجري مجموعة من النقاشات مع زملاء العمل، وأيضا عن طريق الملاحظات الأولية حول الظاهرة.

وبالتالي، يتم تحديد المفاهيم الخاصة بالدراسة بطريقة **استقرائية**[*] عبر الملاحظة التدريجية للواقع. فمثلا يمكن تحديد مفهوم الروابط الافتراضية التي تنجر عن الألعاب "على الخط" (online games) عن طريق سلسلة من الملاحظات التي تجرى على مجموعة من مستخدميها، والذين يتميزون عن الأشخاص الآخرين بفعل العلاقات غير المباشرة التي تربطهم ببعضهم البعض، حيث يتفاعلون ويتواصلون عبر

[1] Raymond Quivy, Luc Van Campenhoudt, op.cit., p.41

[*] في إطار البحوث المعتمدة على منهج الاستقراء، لا توجد قطيعة بين تجميع المعطيات وتحليلها، حيث تتم هاتان المرحلتان الاثنتان بالتوازي، بغية التحديد التدريجي للفرضيات التي –عكس منهج الاستنباط - لا يتم تحديدها في البداية، بناء على المعارف السابقة للباحث، ولكن كذلك بدون تبني نظرية ما من البداية، مما سيمنح مرونة وآفاقا جديدة ومميزة للتحليل الاستقرائي.

النقاشات والتعليقات التي تـدور بيـنهم. فهـذا المفهـوم تـم بنـاؤه مـن خـلال نتـائج الدراسة الاستطلاعية. كما يتم تحديد المفـاهيم اسـتنادا إلى النظريـة المتبنـاة بطريقـة **استنباطية**. نحن نعلم بأن المفاهيم هي عناصر مكونة للظاهرة وخاصة ومرتبطة بهـا كل الارتباط. إذا وجدنا في دراسة مـا مجموعـة مـن المفـاهيم المعينـة وكانـت تتكـرر بشكل مستمر فإننا سندرك النظرية المتبناة فيها.

فإذا وجدنا مثلا أن الباحث يستخدم مرارا في دراسـته مفهـوم النـسق الاجتماعـي والوظيفة والتوازن الاجتماعي والبناء الاجتماعي والخلل الوظيفي، فإننا سـنتيقن بأنـه قد تبنى البنيوية-الوظيفية. وإذا وجدنا في دراسة أخرى أن الباحث يـستخدم بـشكل مستمر مفهوم الصراع والطبقة الاجتماعية ونمط الإنتاج والاغتراب، فإننا سـندرك بأنـه قد تبنى الماركسية. فكل مجموعة من المفاهيم المعروضـة أعـلاه تـدل عـلى النظريـة المتبناة. وتستقى عادة المفاهيم في العلوم الإنسانية (شأنها شأن تلك المستخدمة عادة في علوم الطبيعة) من الاستخدام اللغوي في الحياة اليومية.

فمفهوم الاتصال أو المجتمـع أو اللغـة هـي مفـاهيم تـستخدم مـن طـرف أنـاس يتداولونها في حياتهم اليومية، ولكن الباحث يمنحها دلالة خاصة، مانحـا إياهـا معـان دقيقة وخصائص معينة. وبما أنه مفهوم استقي من الحيـاة اليوميـة، فـإن باحثـا آخـر سيمنحه دلالة أخرى، وهكذا دواليك، إلى أن يصبح للمفهوم الواحـد دلالات متعـددة وأحيانا حتى متناقضة.

فقد حدد Weber مفهـوم **الحيـاد القيمـي الأخلاقـي** (axiological neutrality) بأنه لما يقوم عالم الاجتماع بدراسة ما، يجب أن يجعل أحكام القيمة الخاصة بـه عـلى حدة. ثم تطور هذا المفهوم ليدل على معان أخرى، حيث لما ترجم هذا المصطلح مـن الألمانية إلى الفرنسية أضحى يعني لدى Isabelle Kalinowski "عدم فرض القيم. أما لدى Nathalie Heinich فهو يدل على الحياد الملتزم".[1]

[1] Hélène Bourdeloie, **Ce que le numérique fait aux sciences humaines et sociales, Épistémologie, méthodes et outils en questions**, tic & société Vol. 7, N° 2, 2014, https://journals.openedition.org/ticetsociete/1500, consulted on September 26th, 2018

يجب أن تـرتبط المفـاهيم التـي سـيعتمد عليهـا الباحـث بالإشـكالية المطروحـة وبطبيعة الموضوع المعالج. وشكل الموضوع الذي يُبنى علميا يـرتبط أكثر ما يـرتبط **باللغة العلمية** (أكثر من محتواه)، إذ في الأساس "تعلم العلم هو تعلمنـا للغتـه"[1] مـما يمنح صرامة للبحث.

ولكن ليست أي لغة مستخدَمَة بأي طريقة كانت؛ ففعاليـة العلـم "تـرتبط بدقـة هذه العملية"[2] التي تحددها بشكل أسـاسي الإشـكالية بمعنـى، "مـا يمكـن أن يُخـضِع للتساؤل المنظم جوانب الواقع التي لها علاقة بنسق من الأسئلة"[3] .

باعتبار اللغة مجموعة إشارات ورموز، فإن لكـل علـم لغـة خاصـة بـه تتجـسد في مجموعة من المفردات الخاصة. فقد تتجسد لغة العلم من خلال مجموعة من الرموز الخاصة بها التي يُجمع عليها مجموعة من الباحثين في حقـل علمـي خـاص، كـما هـو الحال بالنسبة إلى الرياضيات. حتى وإن كانت المفردات المستخدمة في حقل علمي ما هي ذاتها التي تستخدم في الحياة اليومية، إلا أنها على المستوى العلمي تمتـاز بكونهـا "**أحاديـة اللفـظ**"[4]، بمعنـى أنهـا لا تقبـل إلا معنـى وتفـسيرا واحـدا في الـسياق الـذي تُستخدم فيه.

فلما نتحدث عن المحيط المضطرب، فيجب أن يعكس هذا المفهـوم نفـس الواقـع للجميع؛ فالاضطراب خاصية المحيط القريب من التنظيم والذي يجعـل الأخـير يتغـير بوتيرة مستمرة، نظرا لتغيرات تحدث فيه كتقدم تكنولوجي أو وجود مشاكل مالية أو تطور المنافسة أو حروب، الخ...

[1] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص.52.

[2] Paul de Bruyne, Jacques Herman, Marc de Schoutheete, op.cit., p.49

[3] Ibid.

[4] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره

كما أن اللغة العلمية تتأسس على مبدأ "**الانسجام** بين الألفاظ"[1] بمعنى، أنها تقيم علاقة بسيطة مبنية على منطق واضح للجميع، إذ لما نتكلم عن مجتمع البحث فالكل سيجمع على أنه مجموعة عناصر لها خصائص مشتركة تجعلها مختلفة عن عناصر أخرى. أما الميزة الأخرى للغة العلمية فهي تتمثل في "**الدقة**"[2]، إذ تتميز اللغة العلمية بتحديد المفردات بشكل واضح ودقيق. وبالتالي، اللغة هي التي تضمن صرامة البحث العلمي.

وحتى يتم تحديد مفهوم ما، يجب احترام بعض القواعد إذ لا يمكن تحديد أي مفهوم يتبادر للأذهان وبأي طريقة كانت؛ فهنالك ضوابط يجب احترامها.

أولا، يجب الأخذ بالاعتبار "إكراهات اللغة المستخدمة"[3] بمعنى، أنه لا يمكن اختراع مفهوم مماثل لظاهرة أو لتسمية متعارف عليها. مثلا، لا يمكن استخدام كلمة "سيارة" المتعارف على خصوصيتها ووظيفتها لتعيين ظاهرة اجتماعية، حيث تشير السيارة إلى مركبة يتم امتطاؤها للتنقل من منطقة إلى أخرى، أمر معروف ومتعارف عليه، وبذلك يمنع استخدام هذا المفهوم لتعيين ظاهرة أخرى.

ثانيا، يجب "احترام تطور العلم والنظريات السابقة"[4]، إذ لاختراع مفهوم جديد أو إعادة تحديد مفهوم قديم يجب أن تكون للباحث معلومات (نظرية وإمبريقية) كافية عن الموضوع المعالج.

فلا يمكن أن يقول كل ما يتبادر لذهنه عن مفهوم الصراع أو الاغتراب أو النسق الاجتماعي؛ فتعديل هذه المفاهيم بشكل أو بآخر يتطلب منه نباهة ومعرفة واسعة عنها، كما أن تعديلها يجب أن يكون مبررا وعلى أساس المعرفة التي لديه حول الموضوع.

[1] نفس المرجع السابق، ص.53

[2] نفس المرجع السابق

[3] François Dépelteau, op.cit., p.179

[4] Ibid.

ثالثا، يجب على الباحث أن يقوم بتحديد تصوره للمفهوم على أساس "ظواهر من الواقع، بمعنى ذلك الذي هو عرضة إلى أن يخضع إلى تجارب"[1]؛ فلا يمكن أن نتعامل مع مفهوم إذا لم نتمكن من إخضاعه للتجربة.

وأمام التطور الذي يشهده مفهوم ما وعدم دقته في حالات كثيرة، برزت أهمية القيام بالعملياتية. هو بذلك ليس مجرد تعريف بسيط؛ المسألة أعمق من ذلك. فكيف يتم تحديده؟

هنالك طريقتان اثنتان:

-**المفهوم**: **(systemic concept)**

ويعرف أيضا **بالمفهوم النظري**، بحيث لا يرتبط بجوانب ملاحظة الواقع المدروس. هو مفهوم يتم تحديده عن طريق الاستنباط. فهو "ليس مستقرءا عن طريق التجربة: يُبنى بالاستدلال المجرد (...) من خلال نظرية عامة أو نموذج."[2]

هو مفهوم لا يمكن فهمه إلا عن طريق "النظرية التي تحويه بما أن هذه النظرية تشكل نسقا يندرج ضمنها"[3]. على هذا الأساس، لا يكتسي المفهوم معناه إلا ضمن النظرية التي ينتمي إليها والتي تمنح له دلالة خاصة، ومن خلال ارتباطه بالمفاهيم الأخرى التي تتشكل منها هذه النظرية.

هذا هو حال المفاهيم المعروفة في حقل علم الاجتماع، كالمفاهيم التالية: الصراع الطبقي والتضامن الميكانيكي والوظيفة.

لهذه المفاهيم أطر نظرية معروفة تستقي منها دلالتها، ضمن سياق معرفي محدد.

-**المفهوم الإجرائي** أو **العملي المعزول**: **(isolated operative concept)**

الشكل الثاني الذي يأخذه المفهوم هو شكل المفهوم الإجرائي وهو ما يعرف أيضا **بالمفهوم الإمبريقي**، من خلال ارتباطه بجوانب ملاحظة من الواقع المدروس، بمعنى

---

[1] Ibid.

[2] Raymond Quivy, Luc Van Campenhoudt, op.cit., p.118

[3] Alex Mucchielli, **Les sciences de l'information et de la communication**, op.cit., p.86

"مفهوم مبني إمبريقيا انطلاقا من ملاحظات مباشرة أو معلومات مجمَّعَة من طرف آخرين."[1]

يمثل المفهوم الإجرائي حلقة ربط بين المفهوم النسقي المجرد، كفكرة وكتصور عام عن الموضوع، والجانب الأقل تجريدا لهذا المفهوم. فكيف يتم تحديده؟

يتم ذلك استنادا إلى مرحلة الدراسة الاستطلاعية ونتائجها. هو تصور للمفهوم خاص بالباحث، يُحدَّد حين يطرح الباحث على نفسه السؤال الموالي:

ما هو تحديدي الشخصي للظاهرة؟ ما هو تصوري لها؟

وقد حدد Lazarsfeld "ثلاث مراحل لترجمة المفاهيم المجردة للفرضية أو هدف الدراسة (...والمتمثلة في) تحديد المعاني المتعددة للمفهوم وتحديد أبعاد دقيقة وتحديد المؤشرات".[2]

وهذه هي الطريقة المعهودة عند استخدام الاستنباط والتي يكثر استخدامها.

-الأبعاد: (dimensions)

يتطلب بناء المفهوم بداية تحديد أبعاده المختلفة، التي يتم استخراجها مباشرة من المفاهيم. ويُعتَبَر **البعد** "أحد مكونات أو جانبا من جوانب المفهوم والذي يشير إلى مستوى معين من واقع هذا الأخير".[3]

يتم تفكيك المفهوم إلى جوانبه المختلفة التي تخبرنا بأوجه الواقع الذي نود لمسه وفهم معانيه. فهو ينقلنا من المستوى المجرد المطلق، إلى مستوى أقل تجريدا.

يجب الإشارة فقط إلى أن التحليل المفهومي المعمول به عادة هو الذي يستخدم فيه الباحث الاستنباط، باتباع شكل القمع، أي المرور من العام إلى الخاص.

إذا قمنا مثلا بدراسة أزمة الاتصال داخل الأسرة الجزائرية، علينا أن نحدد بداية مفهومي: الاتصال والأزمة.

[1] Ibid., p.116

[2] Sylvain Giroux, Ginette Tremblay, **Méthodologie des sciences humaines**, Québec, Editions du Renouveau Pédagogique Inc., 2002, p.58

[3] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص.160

ثم، علينا تحديد أبعاد هذه الظاهرة: أزمة الاتصال بين الأبناء، بين الأبناء والأولياء أو بين الزوجين فحسب.

ولكن، إذا كان الهدف من الدراسة كيفيا، أي حين لا يود الباحث قياسها، فإنه يقف عند هذا الحد من التحليل المفهومي، ولا يصل إلى مستوى المؤشرات إلا لدفع وتيرة المقابلة [*].

ج-المؤشرات: (indicators)

بعد تفكيك المفهوم إلى أبعاده، علينا كمرحلة ثانية من التحليل المفهومي تشريح هذه الأبعاد إلى جوانبها والمتمثلة في **المؤشرات**. نقوم بهذه العملية كما هو الحال في علم التشريح، الذي يتم من خلاله تشريح جثة حيوان لمعرفة ما يحتوي عليه جسمه من أعضاء. تطبَّق نفس العملية في حقل العلوم الإنسانية عندما يبدأ الباحث بتفكيك كل بعد إلى أجزائه، حتى يتمكن من قياس الأبعاد التي تم تحديدها ويتعرف على مكوناتها، ولن يتأتى له ذلك إلا عبر المؤشرات.

إذن، الهدف من تحديد المؤشرات هو قياس الظاهرة، أي أن الدراسة من نوع كمي. تمكننا هذه العملية من المرور بشكل دقيق إلى الجانب الملموس، حيث يمكن ملاحظة المؤشرات التي تم تحديدها بشكل مباشر في الميدان. وبذلك، يكون المؤشر ذلك "العنصر لبعد ما يمكن أن يلاحَظ في الواقع."[1]

عادة ما يسهل تحديد المؤشرات، كمؤشرات الدخل (الذي يحدد برقم) والسن والجنس. بينما توجد مفاهيم معقدة يصعب تحديد أبعادها ومؤشراتها بشكل مباشر.

---

[*] في هذه الحالة، يتم تحويل المؤشرات إلى أسئلة فرعية تندرج كل مجموعة منها ضمن سؤال عام، بهدف دفع وتيرة المقابلة، لأنه في المقابلة يكتفي عادة الباحث بإعداد أسئلة عامة أو رئيسية يقوم بإعدادها استنادا إلى الأبعاد (حيث يمكن تحويل كل بعد إلى سؤال) التي ستمكنه من تجميع معلومات كيفية، ولا يلجأ إلى الأسئلة الفرعية إلا عند وجود مقاومة أو عزوف عن الإجابة من طرف المبحوث.

[1] نفس المرجع السابق، ص.161

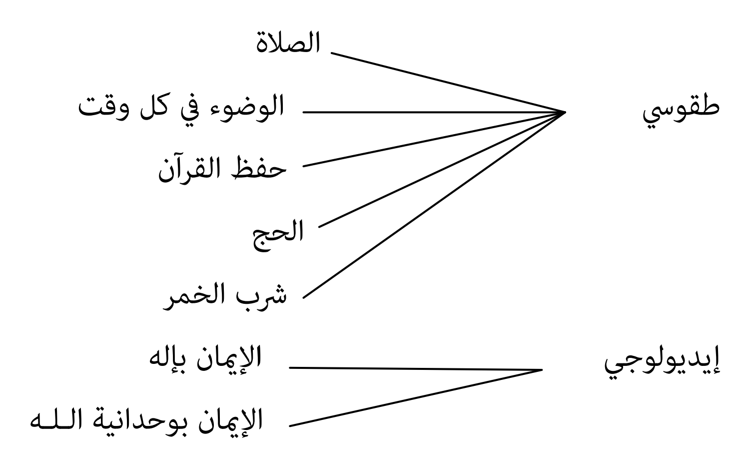
فقد يتعلق الأمر بمجرد "إشارة، تعبير، رأي، أو أي ظاهرة تطلعنا على موضوع بنائنا."[1] وإذا تساءل أحدكم عن عدد المؤشرات، فإن عددها غير محدد. ولكن ما يمكن قوله في هذه المسألة: إنه كلما كان عددها كبيرا كلما مكنتنا من ملاحظة الظاهرة وقياسها بشكل دقيق، شريطة أن تعكس جوانب البعد المعني، لتعبر في التالي عن المفهوم بشكل دقيق. ولهذا العدد الكبير أهمية منهجية، إذ حتى وإن أخطأ الباحث في تحديد مؤشر ما، فإن التحديد الكبير للمؤشرات الأخرى سيضمن دقة وثيقة الأسئلة ونتائج الدراسة.

إذا قمنا بدراسة حول أشكال التديّن لدى الشباب، وانطلقنا من الفرضية التالية:

كلما كان الإقبال كبيرا على البرامج الدينية كلما زادت درجة التديّن لدى الشباب.

فإننا سنحدد المفهوم الإجرائي للتدين، على أنه التزام الفرد بما يضعه الدين الإسلامي من موجهات وأسس عليه الاقتداء بها. وعليه، سنحدد الأبعاد والمؤشرات التالية:

المفهوم	الأبعاد	المؤشرات
	أشكاله	
التدين		



[1] Raymond Quivy, Luc Van Campenhoudt, op.cit.

يبدو من خلال تفحصنا للمؤشرات التي تخص البعد الطقوسي للتـدين، أن مـؤشرا قد حُدِّد عن طريق الخطأ، ألا وهو: شرب الخمـر. فـلا يُعقـل أن يخـص شرب الخمـر الطقوس الخاصة بالتدين. لذلك، وجب حذفه من لائحة المؤشرات.

5) علاقة النظرية المتبناة بالموضوع:

تبرز أهمية النظرية في البحث العلمي كإطار تفسيري للظـاهرة المدروسـة. نتبنـى نظرية أو أكثر في الدراسة الواحدة ونضعها في الإطار المنهجي، عـلى أن نقـارن النتـائج المتوصل إليها في نهاية البحث عند تبني الاستنباط بغية توجيه البحث وتوضيحه.

فهي تمكّن من "توضيح ما نؤكـد عليـه في الواقـع المـدروس ومـن مـنح اتـساق في مجال معرفي معين باقتراحها تفسيرا أو تفـسيرات قابلـة أن تُقابـل بـالظواهر"[1]، وهـذا يؤكد الطابع الاستنباطي للنظرية.

فـإن قـام الباحـث في هـذه الحالـة بتبنـي نظريـة صـائبة، فـإن نتائجـه سـتتوافق وافتراضات النظرية أو النظريات المتبناة بلا ريب.

عادة، تُستخدَم نظرية واحدة في الدراسة الواحدة. وفي بعض الأحيـان، عنـد تعقّـد الموضوع وتفرّع جوانبه، يتطلب الأمر من الباحث أن يتبنى أكثر من نظرية، وهذا مـا يُـسمىّ **بـالتقييم بواسـطة المقارنـة**(triangulation)، بمعنـى اقـتراح أكـثر مـن إطـار تفسيري للظاهرة [*].

إذا أخذت على سبيل المثال ظاهرة إقبال الـشباب عـلى الـشعر الملحـون [**]، فقـد قمت بتبني ثلاث نظريات في دراستي نظرا لتعقد الموضوع.

-الأولى، وهي الوظيفية، كإطار تفسيري لمدى إقبال الشباب على الـشعر الملحـون، لمعرفة الوظائف التي يؤديها هذا العنصر من التراث اللامادي لدى الشباب.

---

[1] Maurice Angers, op.cit., p.45

[*] كما يعني ذلك تبني أكثر من منهج وأكثر من تقنية في الدراسة الواحـدة للتأكـد مـن مـصداقية النتـائج المتوصل إليها، مما يضفي صرامة ودقة أكبر على الدراسة.

[**] يعرف الشعر الملحون أيضا بالشعر الشعبي أو الشعر النبطي.

-الثانية، وهي البنيوية -الوظيفية، كإطار تفسيري لإسهام الشعر الملحون في التنمية الثقافية المحلية، باعتبار الشعر الملحون بنية من بنى النسق الثقافي، يؤدي وظائف معينة في المجتمعات المحلية.

-الثالثة، نظرية الوعي الاجتماعي لتفسير كيفية إسهام الشعر الملحون في بناء الوعي لدى المستمعين إليه.

وفي الأخير، ما يجب التأكيد عليه هو أن تبني نظرية أو مجموعة نظريات مرتبط بطبيعة الموضوع، الهدف منه والإشكالية المطروحة.

لذلك، فهي ليست مجرد عملية حشو يضعها الباحث في الإطار المنهجي للدراسة، بل هي إطار مرجعي-تفسيري للظاهرة يتم توظيف افتراضاتها حين يصل الباحث إلى مرحلة تفسير النتائج، حتى تُضفى تلك الصبغة العلمية المبنية على البرهان للفهم وللتفسير، ليُمنح معنى ومنطق لإدراك أسباب ونتائج الواقع المدروس، بحيث ستقوم بقطيعة إبستمولوجية مع كل المعارف السابقة.

6) البعد الإيديولوجي للنظرية:

يقوم العديد من الباحثين "بالتفنن" في تعريف النظرية وجمع قدر الإمكان التراث المعرفي في هذا المجال، ويوظفون نظريات ظهرت في سياق خاص، في ظروف تاريخية وثقافية وسياسية مميزة، ويتغافلون عن بعدها الإيديولوجي.

كثرما ينسب لمفهوم الإيديولوجية بعد سلبي ويستخدم في سياق نقدي، حيث يربط Thompson الإيديولوجية "بالسلطة والقوة"[1]، من حيث توظيف الأفكار وتأثيرها في الرأي العام، بدون إظهار القوى المهيمنة في المجتمع التي تدعو إليها، بغرض تمريرها لعامة الناس حتى يتم تبينيها.

[1] أنتوني غدنز، ترجمة: فايز الصياغ، **علم الاجتماع**، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الرابعة، 2005، ص.518.

وتستعمل لذلك وسائل الإعلام والاتصال نظرا لما لها من تأثير في توجهات الأفراد.

يعرف Stuart Hall **الإيديولوجية** (ideology) على أنها "أطر عقلية -لغات ومفاهيم وفئات وصور عن الفكر ونظم للتمثلات- التي تنشرها الطبقات والجماعات الاجتماعية المختلفة، لمنح معنى وجعل طريق عمل مجتمع ما مفهوما".[1]

يتضح لنا عن طريق هذا التحديد أن الإيديولوجية لا تخص نظاما بعينه أو مجتمعا بعينه؛ فهي تنتشر في كل الأنظمة والمجتمعات كنظام يوجه الأفكار والتمثلات لتوجيهها نحو مسار معين.

وقد فات بعض المفكرين أمر ذو أهمية بالغة ألا وهو أن النظريات وعلى وجه التحديد في حقل العلوم الإنسانية تبرز في سياق ثقافي واجتماعي وسياسي خاص، حيث يشير Mannheim إلى أنها "تمثل مجموعة معتقدات وإيديولوجية"[2]، تتماشى والفترة الزمنية التي تُدرس فيها الظاهرة لإدراكها.

وهنا، يربط Michel Foucault النظرية بالملاحظة وبالمصالح حيث تتم الإجابة عن السؤال: "لماذا نلاحظ؟"[3]

الإجابة عن هذا السؤال ستحدد السياق الذي ظهرت فيه النظرية، ولماذا في فترة تاريخية معينة من تاريخ المجتمع الذي نشأت فيه.

تعين الإيديولوجية للباحثين الاتجاه الذي يجب أن يتبع والسلوكات التي يجب أن تتبنى. وبالتالي، فهي توجه أفكارهم وتصوراتهم نحو اتجاه معين يقتضي الالتزام به.

بيد أن وراء هذا الاتجاه مجموعة من التصورات والأفكار المرسومة والتي ظهرت في سياق معين.

---

[1] Anne Makus, **Stuart Hall's Theory of Ideology: A Frame for Rhetorical Criticism**, Western Journal of Speech Communication, n° 54, 1990, p.p 495-514

[2] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.417

[3] نصر الدين لعياضي، **البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال في المنطقة العربية وغياب الأفق النظري**، بيروت، المستقبل العربي، العدد 450، أوت 2016، ص.ص 8-27

أضف إلى ذلك، أن الوضعية الإبستمولوجية للباحث جد مهمة في مسار البحث، بمعنى أفكاره "المسبقة حول العلم بشكل عام، وضعية مطبقة على إشكالية البحث التي ستشجع مرجعية نظرية معينة"[1] دون أخرى.

فحتى طبيعة البحث المتبنى، سواء أكان بحثا أساسيا (بهدف تطوير المعرفة بدون غاية تطبيقية) أو تطبيقيا (بهدف نفعي) يكون فيه البحث موجها إيديولوجيا، حيث تبني بحث دون آخر هو لأجل تحقيق طموح معين، ليس له غاية علمية في كل الحالات.

كما أن تبني بحث كمي (بجمع معطيات كمية بهدف قياسها) أو بحث كيفي (بجمع معطيات لا تخضع للقياس) قد تكون له أهداف إيديولوجية أكثر من علمية. وفي كل حالة، يرتكز الباحث لتبرير اختياره على مسلمة وعلى مجموعة من المناهج والتقنيات لدعم هذا الاختيار أو ذاك. وفي كل حالة أيضا، الجزم بطريقة أو بتقنية واحدة ووحيدة أو بمنهج واحد ووحيد وبنظرية واحدة ووحيدة، هو في الواقع نفي وإلغاء لما توصلت إليه المعرفة العلمية في الجانب المعاكس لما تم تبنيه، بتبني مدرسة دون أخرى أو اتجاه فكري أو نظري دون آخر. وبالتالي، سيكون هذا الاختيار إيديولوجيا أكثر منه علميا.

ومن هذا المنطلق، بالرغم من أن النظرية الوظيفية* إطار تفسيري يمنح إطارا تأويليا للكثير من الظواهر الاجتماعية والإعلامية والاتصالية، فقد ظهرت في سياق تاريخي شجع على تبنيها.

وظفت الوظيفية بداية في الأنتروبولوجيا، لدراسة الدور الذي تؤديه المؤسسات الثقافية (باعتبارها هياكل) في المجتمع، ثم وظفت في علم الاجتماع.

ترتبط الوظيفية بمبدأ التوازن الذي يلبيه أي نظام قائم لتحقيقه حتى لا يحدث أي اختلال يخل بوحدة واتساق المجتمع، ولن يتأتى ذلك إلا عبر وظيفة ثبات المعايير

---

[1] Alex Mucchielli, **Les sciences de l'information et de la communication**, op.cit., p.89

* سأتعرض إلى النظرية في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

كوظيفة أساسية يقوم بها النسق الفرعي الثقافي الذي يـشتمل عـلى الأفكـار والمعـايير والقيم، حيث تكون الأخيرة متعارف عليها في المجتمـع، وهنالـك إجـماع عليهـا حتـى يحافظ على توازن البنى فيه، إذ تعتبر عنصرا مهما للوحدة الاجتماعية، توجه تصرفات الأفراد لتحدد أهدافهم من خلال أنساق فرعية.

ويشير مفهوم الاختلال إلى حالة عدم وجـود نظـام في المجتمـع، حيـث تنجـر عـن هذه الحالة صراعات متفاوتة في الحدة، والتي يؤدي الـبعض منهـا إلى وجـود ثـورات، قد تؤدي إلى إنهاء النظام القائم بكل بناه ومؤسساته وتعويضه بنظام بديل، وهذا مـا لا يوده أي نظام قائم كان، مهما كانت طبيعته.**

وللحفاظ على النظام القائم، يوجِد المجتمع عناصر تـضمن ثباتـه وديمومتـه التـي ستكفل عملية استمرار هذا النظام.

ومن هذا المنطلق، يبدو جليا بأنه كانت للوظيفية جذور إيديولوجيـة مـن حيـث إنها كانت كردة فعل ضد الماركسية، هذه الأخيرة التـي كانـت تجعـل مـن الـصراعات الناتجة عن الصراع الطبقي محرك التاريخ وعاملا حاسما لتطور المجتمعـات وانتقالهـا من نظام إلى آخر. لذلك، مفهوم الصراع غير وارد في التحليل الوظيفي بشكل عام.

ثم إنه ينظر إليها كنظرية "نفعية" بمعنـى، أن أي وظيفـة توجـد في المجتمـع مـن خلال مؤسساته المختلفـة إلا وتـؤدي وظيفـة معينـة فيـه: المدرسـة موجـودة لتـؤدي وظيفة تربوية، السجن يؤدي وظيفة عقابية، يؤدي المستشفى وظيفة علاجية، وهكذا دواليك...

وبذلك، هي تعتبر من طرف المنظرين نظرية "التوازن والإدماج"[1].

** ولا يرتبط هذا الواقع بالنظام الرأسمالي فحسب حيث برزت وتطورت هذه النظريـة، بـل هـو يخـص أيضا الأنظمة الأخرى.

[1] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.427

كان ذلك نموذج عن نظرية في علم الاجتماع. في حقل علمي آخر وتحديدا في علوم الإعلام والاتصال، لا يبدو الوضع مختلفا، حيث يبدو من خلال الدراسات التي تركز على تاريخ هذه العلوم أن السياق المؤسساتي هو الذي أدى إلى ظهورها وتطورها.

فقد تبين الدور البنيوي الذي قامت به بعض المؤسسات ومكاتب البحث في وضع النموذج المهيمن لدراسات الاتصال. رافق هذا السياق المؤسساتي مسار بحوث الاتصال والتي كانت ذات صلة بالحرب النفسية والدعاية إبان الحرب العالمية الثانية، واستمرت إبان الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي آنذاك.

فلولا وجود مؤسسات ومراكز بحث ممولة من طرف جهات حكومية تقوم بمشاريع بحث منظمة ضمن سياسة توجيهية (حتى وإن كان بعدها إيديولوجي)، لما تطور البحث في مجال الاتصال.

وفي الواقع، هذه التوجيهات توجه في ذات الوقت تصورات وأفكار الباحثين وانطباعاتهم حول المسائل المطروحة وحتى أسئلتهم، وربما حتى نتائجهم. فتمويل البحوث من طرف مؤسسات ومراكز ومكاتب بحث أمر إيجابي من ناحية، إذ إنه يمنح ديناميكية لمسار البحث ولا يجعله يتعطل بفعل قلة السيولة. فنحن نعلم أن من مقاييس قابلية إنجاز بحث ما أن تتوفر الموارد المادية. فالقيام ببعض المواضيع العلمية يتطلب توفير بعض الأجهزة. كما أنها تتطلب الانتقال إلى أماكن أخرى غير مقر العمل، مما يتطلب وجود سيولة كافية للنقل والإطعام والإيواء. لذلك، تتطلب بعض الدراسات أن تكون مغرية لبعض الممولين (لا سيما الخواص) حتى يتم الحصول على الموارد المالية الضرورية لإنجاز الدراسة المعنية.

فوجود مؤسسات كمؤسسة Rockefellerكان أمرا إيجابيا من هذه الناحية، إذ تكثفت بحوث الاتصال في هذه الفترة.

بيد أن لهذه المسألة مآل آخر، حيث اتضح ما للسياق المؤسساتي من نتائج سلبية على مسار البحوث. فحقل علوم الإعلام والاتصال قد تمت مأسسته عبر مراكز ومؤسسات البحث المتعددة، والتي كان لها الفضل في رسم معالمه وتحديد مواضيع بحثه وحدوده،

من خلال الأفكار الجديدة التي كانت تطرح. ولو كانت توجد مؤسسات أخرى لها أهداف واستراتيجية مخالفة تود تحقيقها من خلال اللجوء إلى مجموعة من المفكرين في هذا المجال، لربما كان سيشهد حقل البحث في الاتصال مآلا وتطورا مخالفا عما نعرفه عن تاريخ البحث في هذا الحقل العلمي.

فقد اهتم ممثلو مؤسسة Rockefeller بفن الإقناع من خلال ما يعرف بالحرب النفسية، حيث قامت هذه المؤسسة "بصرف 250000 دولار لإنتاج أفلام وثائقية وتربوية عن طريق: American Film Center."[1]

وقد تم تطوير هذه الدراسات عن طريق توظيف عالم النفس Hovland حيث منحت له المؤسسة "200000 دولار بغرض تمويل دراساته حول الإقناع وتحول الآراء. غير أنه مع الحرب الباردة، تم تمويل هذا النوع من الدراسات من طرف الجيش الأمريكي الذي قام بتوظيف مختصين في العلوم الاجتماعية الذين تكونوا تحت رعاية روكفلار."[2]

يتضح لنا من خلال ما عرض أعلاه، أن تاريخ البحث في الاتصال ليس سيرورة لمسار علمي خالص، مستقل عن أي هيمنة أو على الأقل عن أي توجيه مؤسساتي. فقد تم ضمن سياسات وتوجيهات مؤسساتية من طرف ممول أساسي ألا وهو مؤسسة Rockefeller، التي لها أهدافها وإستراتيجيتها.

ولم تكن تتوخى من هذا البحث العلمي أهدافا علمية خالصة، بل كانت لديها أهدافها ومصالحها الخاصة، التي كانت تأمل وحتى تؤمن بأن البحث في الاتصال سيمكنها من تحقيق مطامحها ليس في الولايات المتحدة الأمريكية فحسب، بل وحتى خارجها، جسدتها اهتمامات تمثلت في الحصول على توجهات الرأي العام وكيفية

[1] James F. Tracy, **La fondation Rockefeller et les débuts de la recherche sur la guerre psychologique**,triangle.eklablog.com/la-fondation-rockefeller-et-les-debuts-de-la-recherche–sur –la - guerre psychologique, consulted on September 12th, 2018
[2] Ibid.

التنبؤ بالتغيرات التي تطرأ عليه ليس بالولايات المتحدة الأمريكية فحسب، بل حتى خارجها، وتحديدا "بأمريكا الجنوبية بغرض إنشاء بنوك ومن أجل مصالح بترولية لخدمة مصالح ممثلي مؤسسة Rockefeller، حيث أضحى مهما فهم والتنبؤ بتوجهات الرأي العام."[1]

كما تبين الدور الذي لعبه الجيش الأمريكي لدعم البحث في الإقناع، دور تبين بشكل جلي مع الحرب الباردة.

كما أن البنائية-الوظيفية التي عرفت رواجا لا نظير له، ليس فقط في الولايات المتحدة الأمريكية بفضل أعمال Parsons، بل في أوربا وبقية العالم، ظهرت في سياق سوسيو-سياسي خاص، حيث كان العالم يتخبط في أزمات اجتماعية وسياسية لم يعرفها من قبل. فقد ظهرت لتلبية حاجات المجتمعات الرأسمالية، مانحة إياها حلولا لتجاوز أزماتها والإبقاء على نظامها.

وقد رأى Parsons أن الحل الذي قدمه Hobbes لم يعد لديه جدوى، لأن طبيعة النظام في زمن Hobbes (النظام الإقطاعي) ليست من نفس طبيعة النظام في زمن Parsons (الرأسمالي). وبالتالي، فالأفراد مختلفون ولا يمكن أن تقدم نفس الحلول لأزمات تحدث في سياقات تاريخية مختلفة.

ولإحلال حالة الاستقرار والنظام والتغلب على حالة الفوضى واللااستقرار، اقترح Parsons حلا "معياريا"، بمعنى أنه يستند إلى المعايير (norms) كصيغة ضرورية؛ فهي القادرة على الحفاظ على التلاحم الاجتماعي وإعادة التوازن للمجتمع. وهنا يطرح Parsons سؤاله: "كيف تنظم الحياة الاجتماعية داخل نمط الإنتاج الرأسمالي؟"[2]

ولكي يتجاوز تصوره الأداتي للفعل، فقد "ربط الفعل بمفهوم القيمة الاجتماعية"[3].

---

[1] Ibid.

[2] Mostefa Boutefnouchet, **Société et modernité, Les principes du changement social,** Alger, OPU, 2004, p.39

[3] Ibid.

وبالتالي، ليس للتغير الاجتماعي مكانة في فكر Parsons. ولما يتحدث عنه، فهو يتحدث عن تغير في البنى (كأقصى تصور) وليس تغير البنى. فالوظيفية تنفي أي اختلال يهز أو يقضي على البنى الاجتماعية القائمة. لذلك، فقد نالت أبحاثه نجاحا لا نظير له في الولايات المتحدة الأمريكية لهذا السبب.

وعلى غرار الوظيفية، كانت هنالك نظريات سوسيولوجية أخرى نالت نجاحا وانتشارا واسعا، كنماذج تفسيرية كبرى مركزة إما على النظام أو الصراع أو البناء الاجتماعي، والتي عرفت فيما بعد انحطاطا، بانتشار النماذج التفسيرية التي تركز على واقع الحياة اليومية وتفاعلاتها.

وبعدما عرضت بعض المسائل المتعلقة بالنظرية، سأعرج الآن إلى كيفية التنظير في علم الاجتماع، بين ما كان عليه و ما آل إليه.

الفصل الخامس

التنظير في علم الاجتماع

1) أنواع النظريات السوسيولوجية

2) بعض النماذج التفسيرية في علم الاجتماع

3) واقع البحث في علم الاجتماع

التنظير
في علم الاجتماع

أهداف الفصل

- **عرض أنواع النظريات في علم الاجتماع**
- **تحديد الأسس التي اعتمدت عليها النظريات الكبرى في علم الاجتماع**
- **عرض ما آل إليه البحث في علم الاجتماع.**

يعتبر القرن العشرين مهد النظريات السوسيولوجية الكبرى، ظهرت فيه أهم النظريات الماكروسوسيولوجية التي منحت تصورا شموليا لتطور المجتمعات، عبر نسق مفاهيمي وافتراضي منح لها ذلك الانسجام الذي عرفت به إلى وقت طويل.

شكل الإطار النظري التفسيري لتطور المجتمعات وكيفية مرورها من مرحلة إلى أخرى هاجسا لدى كبار المنظرين الأوائل في حقل الاجتماع؛ فلم يولوا أهمية للتغيرات الميكروسوسيولوجية، إذ ما كان يشغل بالهم هو منح ذلك الإطار التفسيري لكيفية تطور المجتمعات، عبر نموذج تفسيري يضبطه نسق مفاهيمي معين، يختلف من منظر إلى آخر. بيد أن المفهوم المشترك بينهم هو مفهوم مركزي ألا وهو مفهوم التغير الاجتماعي (social change) واقترانه بمفهوم التطور الاجتماعي.

أخذت فكرة **التطور الاجتماعي** (social evolution) مباشرة من نظريات التطور البيولوجي التي ظهرت خلال القرن 19، فحاول العلماء من أن يطبقوا مفهوم تطور الكائنات على الظواهر الاجتماعية.

ويُقصد بالتطور تلك "العملية الإنمائية الشاملة التي تجري في الزمان ويتنقل فيها الكائن من الشكل البسيط إلى أشكال أرقى وفيها "تحسن" أيضا".[1]

الهدف من ذلك هو أن المجتمع شأنه شأن الكائنات الحية "ينمو ويتطور ويتغير ويتبع المراحل ذاتها".[2]

وقد ظهر مفهوم التطور الاجتماعي ليعني مجموع التحولات التي يعرفها المجتمع خلال فترة زمنية طويلة، أي تتجاوز حياة جيل أو عدة أجيال، على المستوى بعيد المدى.

بذلك، لا تؤخذ بعين الاعتبار التغيرات الطفيفة، بل "تراكم عدد من التغيرات، ستحدد فيما بعد الاتجاه العام لها".[3]

وقد حاول الفلاسفة وعلماء الاجتماع أن يضعوا نموذجا مميزا وخاصا للتغير الاجتماعي. يتمثل **التغير الاجتماعي** (social change) في مجموعة من التحولات الملاحَظَة عبر فترات تاريخية قصيرة.

كما أنه محدد جغرافيا وتاريخيا: "يمكن ملاحظته بشكل عام داخل مساحة جغرافية أو في إطار سوسيو-ثقافي، وهو أكثر تحديدا من مفهوم التطور".[4]

وبذلك، يكون التغير الاجتماعي "كل تحول ملاحظ في الزمن، والذي يؤثر بشكل مؤقت أو عابر في بنية أو سيرورة التنظيم الاجتماعي لمجموعة بشرية ما، ويغير سيرورتها".[5]

---

[1] عبد الله ساقور، **محاضرات في التنمية بالمشاركة**، عنابة، منشورات جامعة باجي مختار، 2007-2008، ص. 18

[2] **معجم مصطلحات التنمية الاجتماعية والعلوم المتصلة بها**، بيروت، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، 1983، في: عبد الله ساقور، مرجع سبق ذكره .

[3] Guy Rocher, **Introduction à la Sociologie générale,** tome I : **Le changement social**, France, Edition HMH, 1968, p.17

[4] Ibid.

[5] Ibid., p.22

ويرى Marx أن التغير هو "نتاج تناقضات داخل المجتمع، بينما يعتقد Nisbet أنه ينتج أساسا عن أسباب خارجية، في حين يحاول Rousseau أن يفسر التغير كتراجع".[1]

إذا، تختلف وجهات النظر حول طبيعة التغير. لكن المؤكد، هو أن المجتمع مستقر ظاهريا فحسب. في الواقع هو في تغير مستمر، "لأنه في حد ذاته هو ديناميكية".[2]

على هذا الأساس، صيغت النظريات الماكروسوسيولوجية الأولى في علم الاجتماع.

ونظرا لاتساع حقل البحث في العلوم الإنسانية، ارتأيت أن أعرض في هذا الفصل أنواع النظريات السوسيولوجية، ثم سأقوم بعرض بعض النظريات الواسعة الاستخدام في علم الاجتماع.

وفي الأخير، سأوضح ما آل إليه التنظير في هذا الحقل العلمي.

1) أنواع النظريات السوسيولوجية:

يتم تصنيف النظريات في حقل علم الاجتماع حسب بعض الأبعاد: علم الاجتماع النقدي أو التجريدي أو الإمبريقي، إلخ...

في هذا السياق، سآخذ بالحسبان التقسيم الذي يُعنى بشمولية التحليل من خلال تحديد ثلاثة أقطاب: **النظريات الماكروسوسيولوجية** و**الميكروسوسيولوجية**، وآخر ينعت **بالميزوسوسيولوجية**.

أ) النظريات الماكروسوسيولوجية: (macrosociological theories)

في بداياتها الأولى، كانت تُصاغ نظريات تمنح تفسيرا شاملا لفهم المجتمع، من خلال "مورفولوجيته وبنيته وديناميكيته."[3] إذا، يتم النظر إلى المجتمع من خلال

---

[1] R.Boudon, F. Bourricaud, op.cit., p.70

[2] Jean Golfin, **Les 50 mots- Clés de la sociologie**, Toulouse, Edition Privat, 1972, p.19

[3] Jean-François Dortier, **Les sciences humaines**, France, Sciences Humaines Editions, 1998, p.291

تشكيلته العامة، من خلال بنياته الأساسية والديناميكية الخاصة به والتي تتحكم في تطوره تاريخيا. هل يمكن تصور نظريات كهذه؟

بالتأكيد أن الإجابة هي بالإيجاب، إذ ذلك ما قام به علماء الاجتماع الأوائل، محاولين إيجاد قوانين عامة تصوروا أنها تتحكم في تطور المجتمعات.

هذه النظريات هي التي حاولت تقديم نموذج عام وشامل على المستوى الماكرو-سوسيولوجي، مترجمة الواقع برمته، بدون تجزئته، كما فعل Marx عبر **المادية التاريخية** (historical materialism)مقترحا تأويلا عاما للتاريخ الإنساني من خلال الاقتصاد والصراع الطبقي، قائلا بأن هذا الأخير هو محرك المجتمعات* .

ب) النظريات الميكروسوسيولوجية: (microsociological theories)

تحاول هذه النظريات تأويل ظواهر خاصة وجد دقيقة (كالأسرة، المدرسة)، كالنظرية الخاصة بالطبقات المتوسطة، حيث يذهب Georges Simmel للقول بأن "استقلالية هذه الطبقات في المجتمع الرأسمالي غيرت العلاقات الطبقية حيث يصبح للطبقات المتوسطة دور مركزي في المجتمع."[1]

يتعلق الأمر هنا "بمقاربة أخرى للمجتمع من خلال الأفراد، جماعات صغيرة أو أفعال وقرارات مختلفة تصنع الرباط الاجتماعي."[2]

وهذا ما يذهب إليه بعض علماء الاجتماع أمثال Gary Becker في نظريته الخاصة بالعائلة، حين يفسر انخفاض نسبة الإنجاب في المجتمعات المعاصرة من خلال "اختيارات الأولياء، إذ نظرا لتكلفة تربية الأطفال ولانخفاض الوفيات لدى الأطفال ولطموح المرأة في استقلالية أكبر، كل هذه العوامل تدعو الأولياء إلى اتخاذ قرار عدم الإنجاب بكثرة. ويمكن تعميم هذا التفكير الفرداني على أعداد كبيرة من الأفراد."[3]

---

* سأتطرق إلى المادية التاريخية لاحقا

[1] Jean-François Dortier, op.cit., p. 276

[2] Ibid., p.293

[3] Ibid., p.294

كما يركز هذا النوع من النظريات على تحليل التصرفات اليومية للأفراد، من خلال لعب الأدوار والعادات والعلاقات الاجتماعية وغيرها من التصرفات والممارسات الملاحظة في حياتهم اليومية.

ج) النظريات الميزوسوسيولوجية: (mesosociological theories)

أما النظريات **الميزوسوسيولوجية**، فتسلط الضوء على الجماعات الاجتماعية والمنظمات. هي نظريات وسيطة بين النظريات الماكروسوسيولوجية الميكروسوسيولوجية.

تسلط الضوء على "الجماعات المحدودة العدد (العائلة، العصابات، شبكة الأصدقاء، ورشات العمل)، والمنظمات (المؤسسات، الجمعيات، النقابة، الأحزاب)، والجماعات الاجتماعية (المهن، الطبقات، جماعات مصالح).[1]

هذه النظريات لا تهتم فقط بالجماعات المحدودة العدد، بل يمتد تحليلها حتى إلى تجمعات أكبر كالمنظمات بما تحتويه من مؤسسات وجمعيات ونقابة وأحزاب، وحتى إلى جماعات اجتماعية أخرى لما لها من تأثير كالحركات الجمعوية والطبقات الاجتماعية. وهذا ما فعله Right Mills Charles حين قام بدراسة **بِنْيَة النُّخب** (elites) الأمريكية في الخمسينات، موضحا أنه لا توجد ديمقراطية حقيقية، حيث تتجسد "السلطة في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال ثلاث مؤسسات: المؤسسة السياسية والمؤسسة الاقتصادية والمؤسسة العسكرية، وأن النخبة التي تحكم هذا البلد هي محدودة وغير منتخبة من طرف المواطنين"[2].فهنا، بدراسة الباحث لطبيعة السلطة بالولايات المتحدة الأمريكية، خرج بنتيجة مفادها أن المنتَخَبين بها لا يتم اختيارهم بشكل ديمقراطي.

ومن أبرز النظريات الكبرى في علم الاجتماع: الماركسية والبنيوية والوظيفية.

[1] Jean-François Dortier, op.cit., p.295

[2] Thomas Gay, op.cit., p.133

2) بعض نماذج من نظريات علم الاجتماع:

أرسى علم الاجتماع مبادئه ومفاهيمه ونظرياته ابتداء من القـرن التاسـع عـشر في سياق سوسيو-تاريخي خاص، حيث كان العالم الغربي الرأسمالي يعرف تغيرات جذريـة في نمط وعلاقات الإنتاج، بفعل عامل حاسم ألا وهو الثورة الصناعية ومـا أفرزتـه مـن تغيرات في حياة الأفراد، وفي علاقاتهم ببعضهم البعض وفي أنماط العيش الجديدة.

وعليه، ظهرت نظريات في علم الاجتماع كان لها الأثر القوي في تطور هـذا الحقـل العلمي، من خلال ما اقترحته من نسق مفاهيمي لتدرك به التغيرات التـي مـرت ومـا تزال تمر بها البشرية، مقترحة رؤية شاملة عامة عن تطور المجتمعات.

ومن بين هذه النظريات، سأتطرق إلى الماركسية والبنيوية والوظيفية.

أ) الماركسية:

تستند الماركسية إلى جزء فلسفي مهم في بلورتها ألا وهو المادية التاريخيـة الـذي يمثله كل من Marx وEngels، التي تسعى إلى معرفة القوانين التي تـتحكم في تطـور المجتمعات والنظام القائم فيها على حد سواء. فهي تركز عـلى البنـاء الاجتماعـي مـن جهة وعلاقته بالفترة التاريخية التي ظهر فيها، بتحديـد قـوى وعلاقـات الإنتـاج فيهـا. بالنسبة إلى Marx، كل واقع تتخلله قوى متناقضة، والصراع القـائم بـين هـذه القـوى هو الذي يـؤدي إلى حـدوث تغيـير، منطلقـا مـن فكـرة أساسـية مفادهـا أن الوجـود الاجتماعي هو الذي يحدد طبيعة الوعي في المجتمع، بمعنى أن طبيعة الفرد تحددها البنى الاجتماعية.

ومن بين المفاهيم الأساسية التي اعتمـد عليهـا Marx: أسـلوب الإنتـاج والاغـتراب والصراع، كلهـا مفـاهيم اسـتلهمت ممـثلي الماركـسية ليقومـوا بتفـسير تطـور الحيـاة الاجتماعية.

أما عن مفهوم **الطبقة الاجتماعية** (social class)، فلم يكن لا Marxولا Engels اللذان اخترعـا هـذا المفهـوم. وبالفعـل، فقـد اسـتخدمه عـدة مفكـرين، مـن بيـنهم Smith وComte و Turgot وTocqueville. بيــد أن Marx وEngels قــد منحــا

لهذا المفهوم خاصية محددة، حيث بنيا على أساسه وعلى أساس مفهوم الصراع الطبقي "تأويل مجموع حركة المجتمعات، في أبعادها الاقتصادية والسياسية والإيديولوجية"[1].

ومهما كانت طبيعة المجتمع أو النظام السائد فيه، فإن ما يميز الطبقات الاجتماعية عن بعضها هو المكانة التي تحتلها في المسار الاقتصادي: من يملك ومن لا يملك وسائل الإنتاج، والتي ستتحدد عن طريقها طبيعة العلاقات الاجتماعية.

أما عن مفهوم **أسلوب الإنتاج** (production mode)، فهو يتكون من قوى العمل ومن علاقات الإنتاج والذي سيتحدد على أساسه النظام الاقتصادي في مرحلة من تاريخ مجتمع معين.

وطبيعة أسلوب الإنتاج لدى Marx هي أصل الصراع الطبقي، إذ يستند الصراع المركزي في المجتمع الرأسمالي بين الطبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا إلى تناقض نمط الإنتاج الرأسمالي، حيث يتم تأمين الإنتاج من طرف جماعة من العمال، في حين أن وسائل الإنتاج هي ملكية خاصة. وحسب Marx، لا يمكن القضاء على هذا التناقض إلا عبر "جعل وسائل الإنتاج مشتركة".[2]

أما عن **الاغتراب** (alienation) كما أكدت عليه القراءات الأولى لهذا المفهوم، فهو يعني أن يصبح الفرد غريبا عما ينتجه.

وهو كلمة يونانية الأصل: Alienatio التي تعني: "تحويل شيء ما في ملكيته إلى ملكية شخص آخر، أو انتزاع ملكية فرد واستيلاء آخر عليها."[3]

---

[1] Gilles Ferréol, Philippe Cauche, Jean-Marie Duprez, Nicole Gadrey, Michel Simon, **Dictionnaire de sociologie**, Paris, Editions Armand Colin, 4ème édition, 2011 Algérie, Editions Mehdi, 2013

[2] Thomas Guy, op.cit., p.14

[3] شحاتة صيام، النظرية الاجتماعية، من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة، مصر، مصر العربية للنشر والتوزيع، 2009، ص.145.

يعتبر الاغتراب مفهوما فلسفيا. يعود في بدايته إلى الفلسفة الإغريقية، "وكان يعني ألا يملك الإنسان إحدى قدراته الفيزيقية أو العقلية أو الروحية لصالح إنسان آخر، جاعلا بذلك علاقة خاصة بين الغالب والمغلوب".[1]

ثم أخذ هذا المفهوم فيما بعد أبعادا أخرى، وجدانية وسوسيولوجية.

"سوسيولوجيا، هو نقيض فكرة التقدم والفردانية العقلانية، إذ إن فكرة التقدم كانت سائدة عند فلاسفة التاريخ الذين كانوا يبشرون بثماره الايجابية".[2]

فهو يدل على أن "يصبح الفرد غريبا عن أحد جوانب الحياة الاجتماعية التي يعيشها."[3]

ورغم كل الاختلافات بين مفكري القرن التاسع عشر وعلى رأسهم: "Spencer وMarx وComte، إلا أنهم كانوا متفائلين بغد أفضل وكان إيمانهم قويا بفكرة التقدم والوحدة وضرورة وجود تقدم تاريخي".[4]

ويحدث الاغتراب حسبهم في مرحلة ما قبل التقدم. غير أنه لكل من Durkheim وWeber وTocqueville تصور متشائم لمستقبل البشرية في ظل هذا التقدم، إذ يؤكدون على فكرة أن "مستقبل العالم الغربي سيكون مضطربا بسبب نتائج ذلك التقدم".[5]

ويشير مفهوم الاغتراب في الفكر العربي إلى "ذلك الإحساس بالعجز الداخلي في علاقات المفكرين العرب بالمجتمع ومؤسساته، وبالعجز الخارجي، باعتبار أن مختلف البلدان العربية بدأت تخضع بعد نيل الاستقلال لهيمنة خارجية من قبل المجتمعات

---

[1] Mostefa Boutefnouchet, **Société et modernité**, **Les principes du changement social**, op.cit., p.148

[2] Robert A.Nisbet, **La tradition sociologique**, Paris, PUF, 1984, p.329

[3] شحاتة صيام، مرجع سبق ذكره

[4] Robert A.Nisbet, op.cit., p.331

[5] Ibid., p.334

المتقدمة في أوربا وخاصة في الولايات المتحدة بعد الخمسينات، التي تمثل شكليا بدايات مرحلة السيادة".[1]

فيتم الاغتراب على مستويين اثنين:

-بالعجز الداخلي من قبل المفكرين العرب، في علاقاتهم بالمجتمع ومختلف مؤسساته بسبب "فشل مثقفي البلدان المستغلة لإيجاد أدوات التحليل، وبالتالي إيجاد اللغة العقادية الملائمة لتغيير هذا الواقع الذي يعكس العجز الثقافي في تناول الواقع، وبالتالي تغييره.

-ثم بالعجز الخارجي"[2]، بفعل هيمنة الدول الغربية على الدول الحائزة على استقلالها ومنها الدول العربية، بشتى الوسائل والطرق، بفعل العولمة (globalization) وما تنجر عنها من تنازلات على المستوى الاقتصادي والتعليمي وحتى الثقافي، إذ "يمكن للمجتمعات الإنسانية أن تفقد هويتها وأصالتها وتجعلها مجالا للانتهاب والاستلاب وسوء الاستخدام".[3]

كما أن لمصطلح الاغتراب مدلول قانوني: "نقل أو بيع ملكية أو حق. كما له مدلول سوسيولوجي: حل العلاقة بين الفرد والآخرين. ومدلول ديني: حل العلاقة بين الفرد والآلهة".[4]

كما أن مصطلح الاغتراب يوظف في مدلول نفسي ليدل على "الاضطراب العقلي، وهو يعني فقدان حالة الوعي أو شلل أو قصور القوى العقلية نتيجة خلل معين في العقل."[5]

---

[1] حليم بركات، **الاغتراب في الثقافة العربية** ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2006، ص.35.

[2] جورج قرم، **التنمية المفقودة**، بيروت، دار الطبيعة للطباعة والنشر ،1981 ، ص.09

[3] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية، الدورة 17، الدوحة،27-28 أكتوبر 2010، ص. 190

[4] Raymond Boudon, François Bourricaud, op.cit., p.23

[5] شحاتة صيام، مرجع سبق ذكره

وبالتالي، يدل الاغتراب على:

1-"أن المنتوجات تُفلت من المنتجين، لأنهم يدخلون في اقتصاد السوق.

2-العلاقات بين الأفراد تتموضع في علاقات اجتماعية ومؤسساتية ومشيّئة

3- تتجاوز حركة التاريخ إرادة الأفراد أو الجماعات. "[1]

كان ذلك عن مفهوم الاغتراب. أما مفهوم **الصراع** (conflict)فهو المفهوم المركزي في الفكر الماركسي، حيث يرى Marx بأن الرأسمالية تشكل "بطبيعتها نظاما طبقيا تتميز العلاقات الطبقية فيه بالصراع".[2]

وعليه، فهو يعبر عن "الحالة التي تسيطر على الفرد، حيث تجعله يحس بأنه غريب وبعيد عن بعض نواحي واقعه الاجتماعي."[3]

وحتى وإن كتب Marx عن مراحل التاريخ المختلفة التي مرت بها البشرية، إلا أنه ركز على التغيرات التي حدثت في عصره إثر الثورة الصناعية التي أدت إلى نمو المصانع وتوسيع الإنتاج الصناعي، وما انجر عن كليهما من تغيرات وتفاوت بين الطبقات الاجتماعية.

وقد قسم Marx التاريخ البشري إلى مراحل، معتبرا كل مرحلة منها تشكيلة اقتصادية-اجتماعية، لكل واحدة منها خصوصياتها، **حيث يسود كل مرحلة نمط إنتاجي له بناء طبقي (ماعدا المرحلة الأولى):**

1) المرحلة البدائية
2) المرحلة العبودية
3) المرحلة الإقطاعية
4) المرحلة الرأسمالية

---

[1] Joseph Sumpf, Michel Hugues, **Dictionnaire de Sociologie**, Paris, Librairie Larousse, 1973, p.16

[2] أنتوني غدنز، مرجع سبق ذكره، ص.69

[3] عبد الهادي الجوهري، **قاموس علم الاجتماع**، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 1997، ص.23

5) المرحلة الاشتراكية

بيد أنه بالرغم من كون كل نظام من هذه الأنظمة يتميز عن الآخر، إلا أن العامل المشترك عند تحليل معظم هذه الأنظمة أنها تتكون دوما وأبدا من طبقتين متصارعتين اثنتين: الطبقة التي تملك وسائل الإنتاج، والطبقة التي تعمل بهذه الوسائل لصالح الأولى.

كما أن هذا التقسيم يعني أيضا أننا أمام بناءين اثنين: البنية الفوقية التي تتألف من النظام السياسي السائد بكل مؤسساته التي تخدم الإيديولوجية السائدة، والبنية التحتية التي تمثل الظروف المادية التي تحدد البناء الاقتصادي.

وتشكل تحليلات Marx لتطور المجتمعات نقطة مهمة في فهم ظهور المجتمع الحديث.

تتميز المرحلة البدائية أو ما يسمى بالشيوعية البدائية بالملكية المشتركة، حيث كان أعضاء القبيلة يعملون في الصيد ويتقاسمون عائد عملهم بينهم. ويتميز هذا النظام بعدم وجود طبقات، وبالتالي عدم وجود صراع طبقي فيه.

وعندما بدأ الإنسان يستقر بعد اكتشافه الزراعة، وتكون فائض في الإنتاج، تحول المجتمع إلى مرحلة العبودية، فتواجدت طبقتان اثنتان: الأسياد الذين يملكون والعبيد الذين هم في خدمة الأسياد. فكان ذلك أول انقسام في التاريخ البشري.

أما في المرحلة الإقطاعية، فيمثل المجتمع الإقطاعي الزراعي "خلال القرون الوسطى في العالم الغربي النموذج العالم للمجتمع التقليدي في شكله السابق على التحديث"[1].

ثم عندما ينتقل المجتمع من النظام الإقطاعي إلى المرحلة الرأسمالية، تشكل هذه المرحلة النقطة الحاسمة في تحليل Marx، من حيث ما ترتب عن هذا الوضع من نتائج على العلاقات الإنسانية في حد ذاتها.

[1] السيد الحسيني، **التنمية والتخلف، الإسكندرية**، دار المعرفة الجامعية، 1993، ص.29

فبعدما كانت الأرض هي وسيلة الإنتاج الأساسية والتي تعود فوائدها على الإقطاعيين، مالكي الأراضي، يصبح في المجتمع الرأسمالي صاحب رؤوس الأموال هو المستفيد الأول باستغلاله للطبقة العاملة.

ويكمن جوهر الاستغلال الرأسمالي في: قوة العمل بوصفها بضاعة وإنتاج القيمة المضافة، "فتباع قوة العمل في ظل الرأسمالية مقابل أجرة معينة"[1].

إذا، فالعامل يبيع مجهوده للرأسمالي في مقابل مبلغ من المال. ثم إنه بعمله هذا، يخلق قيمة زائدة للرأسمالية أي "فائض القيمة التي يخلقها العامل المأجور والتي هي أكبر من قيمة قوة عمله"[2]. وبذلك يستغل الرأسمالي هذه القيمة لحسابه.

وليتخلص الإنسان من هذا الاستغلال، سينتقل المجتمع الرأسمالي تدريجيا إلى المجتمع الاشتراكي، بقيادة الطبقة الكادحة (العمال)، بحيث "لن تقتصر مهمتهم الاقتصادية على تطوير القوى الإنتاجية للمجتمع فحسب، بل ستحرر الثورة البروليتاريا من القيود التي فرضها عليها الاقتصاد الرأسمالي. وبمرور الوقت، ستتمكن فيه ثورة البروليتاريا من تنظيم الإنتاج والإدارة والتوزيع على أسس جديدة".[3]

فالبروليتاريا هي الحركة والقوة الوحيدة التي يمكن أن تأخذ بزمام الأمور وأن تقود الثورة من أجل مجتمع أحسن، يختفي فيه استغلال الإنسان لأخيه، حيث ستسود المساواة بين الأفراد.

فما يميز المرحلة الاشتراكية، هو أنه لا يوجد نزاع فيها لأنه "ليس ثمة طبقات مستغلة في المجتمع الاشتراكي كي تهتم ماديا بالحفاظ على العلاقات القديمة".[4]

فجوهر التنمية لدى Marx هو أنها "عملية ثورية"، تؤدي إلى تحولات بنائية على كل المستويات، آخذة بالحسبان الإنسان كمصدر تغيير.

---

[1] يوري بوبوف، **دراسات في الاقتصاد السياسي**، ترجمة اسكندر ياسين ،موسكو، دار التقدم، 1982، ص.87

[2] نفس المرجع السابق، ص.89

[3] السيد الحسيني، مرجع سبق ذكره، ص.36

[4] محمود السيد دغيم، **المادية التاريخية بين الوهم والواقع**، بيروت، دار الحداثة، 1986، ص.12

ما يميز هذا التحليل أنه يضفي خطية على تطور المجتمعات، لذلك فقد انتقد كل الانتقاد من هذه الزاوية. غير أنه يؤكد على مسألة أساسية ألا وهي وجود صدامات وصراعات في المجتمع بين الطبقات، مما يجعل من مفهوم **الصراع الطبقي** (class struggle) مفهوما جوهريا في الماركسية.

فالصراع من هذا المنظور بعد أساسي في الحياة الاجتماعية، وتتمثل وظيفته الأساسية في "تغيير المجتمع وإيجاد تكوين اقتصادي اجتماعي بدلا من آخر"[1]، وأن نهاية هذا الصراع ستكون في النظام الاشتراكي لما تتغلب البروليتاريا (طبقة العمال) على الطبقة البورجوازية.

وبعد Marx وEngels، حمل مشعل هذه النظرية مفكرون معاصرون، حاولوا تجاوز بعض نقاط الضعف فيها، نظرا لأنها أضحت موضع جدل ونقاش، نظرا للمستجدات والتغيرات التي عرفها العالم والتي تتطلب تقديم تفسيرات جديدة لها.

فها هم مفكرو مدرسة فرنكفورت: Horkheimer وAdorno وMarcuse يحللون ما آلت إليه المجتمعات الحديثة ليس بناء على العالم الاقتصادي، بل هذه المرة على البناء الفوقي الثقافي.

عكس ما كان يتصوره Marx، لا يرى رواد هذه المدرسة أن الطبقة العاملة هي التي ستمثل لب الصراع القائم في المجتمعات الحديثة، ولا يمنحونها ذلك الدور الثوري الذي يمكن أن يقوم بتغيرات جذرية في هذه المجتمعات، لأنها حسب تعبيرهم "فقدت إمكانياتها الثورية".[2]

وهكذا، نجد Marcuse يؤكد على الدور الذي تحتله التكنولوجيا كشكل جديد للهيمنة والضبط الاجتماعي في المجتمعات الحديثة.

---

[1] محمود السيد دغيم، مرجع سبق ذكره، ص.130.

[2] نفس المرجع السابق، ص.132.

فهو يرى بأنها تمكن من تأسيس أشكال جديدة للمراقبة وللتلاحم الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية الحديثة. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فهو يرى بأن الطبقة العاملة قد اندمجت بشكل كلي في النظام الرأسمالي، حيث تمكن هذا النظام من "أن يحول التناقض بين الرأسمالية والعمال إلى مصلحة واحدة تتمثل في الإبقاء على النظام الرأسمالي"[1]، ومن ثم لم يعد لها ذلك الدور النضالي المنوط بها.

ويشاطر Habermas أفكار Marcuse من حيث إنكاره للدور النضالي للطبقة العاملة في المجتمعات الرأسمالية الحديثة. كما أنه قد أعار للبناء الثقافي الفوقي اهتماما كبيرا.

ويرى بأن إضفاء الطابع العقلاني على العلم والتكنولوجيا هو الوجه الجديد الذي يميز المجتمعات الرأسمالية الحديثة، والتي هي بمثابة إيديولوجيا فرضت على الجماهير العريضة.

ويتصور بأن الأزمة التي تعيشها المجتمعات الرأسمالية الحديثة يمكن حلها باللجوء إلى العقلانية التواصلية.

ما يميز الوضع في المجتمعات الحديثة هو ذلك **العقل الأداتي** الذي "يخضع للحساب الواعي الذي يدرس كيفية الوصول إلى أهداف بحد ذاتها موضوع حساب، وغير خاضعة لطابع قيمي بل لطابع عملي. يتشخص نوع هذه العقلانية في تعامل الإنسان مع الطبيعة ويتجسد في العلم والصناعة والتكنولوجيا الحديثة."[2]

هذه العقلانية هي التي تميز المجتمعات الرأسمالية الحديثة والتي أصبح فيها هذا العقل هو المهيمن. تم تقليص دوره إلى مجرد أداة لتحقيق أهداف معينة، كما تفعل التقنية الحديثة في محاولة سيطرتها على الطبيعة وعلى البشر. كل فعل إلا ويخضع لمصلحة معينة، بعيدا عن أي اعتبار أخلاقي أو قيمي.

---

[1] شحاتة صيام، مرجع سبق ذكره، ص.133

[2] نفس المرجع السابق، ص.133

في هذه المجتمعات، فقدت القيم والمعـايير مكانتهـا والـدور التوحيـدي التواصـلي الذي كانت تؤديه إلى وقت ما، مما أفقد المجتمع توازنـه، حيـث أضحى منقـسما إلى قسمين اثنين: "الأول يخص العالم المعـيش الـذي تقـوم بنياتـه عـلى اللغـة والتواصـل، والثاني يخـص عـالم الأنـساق الـذي يخـضع بالأسـاس للعقلنـة الحـسابية التـي تتميـز بالوظيفية والأداتية."[1]

وفي الواقع، هنالك هوة بين العالمين الاثنين. مـن جهـة، العـالم المعـيش مـن خـلال الدور الذي تؤديه اللغة في سيرورة التواصل بين الأفراد. ومن جهة أخرى، عالم الأنساق الذي يتسم بالعقلنـة المطبقـة عـلى كـل جوانـب الحيـاة والـذي يطغـى عليـه طـابع الحسابية والمصلحة.

فما هو الحل الذي يقدمه لنا Habermas للقضاء على هذه الهوة الموجـودة بـين العالمين الاثنين؟

لسد هذه الفجوة، يقول Habermas إنه يجب العودة إلى "المعـايير التـي ستـسد الفجوة لكونها الوحيدة القادرة على إدراج الأنساق في الحياة المعيشية والحفاظ عـلى لحمة المجتمع وإعادة التوازن بينهما".[2]

فنحن نعيش في عالم فقدت القيم والمعايير دورها في توجيه سلوك الأفـراد، في عـالم عمت فيه الفردانية وقل فيه التواصل الاجتماعي، لينتج عن هذا الوضع تفكك النسيج الاجتماعي وحالة الاختلال الوظيفي للبنى الاجتماعية التـي أصبحت في حالـة فقـدان توازن. وللقضاء على هذه الوضعية، يقترح Habermas مفهوم **العقل التواصـلي** الـذي هو تصور خاص يرى عن طريقه المفكر أنه سـيتم "تنظـيم عمليـة التفاعـل بـين أفـراد المجتمع ويصوغ فهـم الجماعـة لـذاتها. ويظهـر هـذا النـوع مـن العقلانيـة في المجـال الأخلاقي والسياسي الذي ينظم الشرائع والمعايير الجاري العمل بها".[3]

---

[1] نفس المرجع السابق، ص.114.

[2] نفس المرجع السابق، ص.117.

[3] نفس المرجع السابق، ص.133.

يُعتبر العقل التواصلي مشروعا بديلا يتم من خلاله التفاعل بين أفراد المجتمع، يُطبق على مجالات الحياة المختلفة، وتحديدا على مستوى الأخلاق والسياسة. أنّى يكون ذلك؟

يتجسد ذلك العقل التواصلي من خلال التفاعل كنشاط تواصلي بين الأفراد "بواسطة الرموز والقواعد الإجبارية التي تحدد ما يتوقعه طرف من سلوك الطرف الآخر. وتستمد هذه الرموز معانيها من اللغة الجارية."[1]

سيتم تواصل الأفراد من خلال استخدامهم للغة المتفاهم عليها، فيتم التفاعل بينهم. حتى وإن كانت حالة العقل التواصلي حالة افتراضية، غير أنه لا يخفى على أحد الدور الذي تؤديه اللغة بشكل عام والتواصل بشكل خاص في التفاعل بين الأفراد. ويؤثر هذا التصور للعقلانية على واقع الاكتشافات العلمية والتقنية، حيث تُمنح قيمة وأولوية للعلوم التجريبية كعلوم تستند إلى الإنجازات التقنية. من هذا المنظور، يريد Habermas البحث عن "حل عقلاني للتقنية التي أُطبقت على العالم المعيش واستفردت به من جميع الجهات. فهو يقر بأننا نعيش عصر الرأسمالية المتقدمة القائمة على التقنية، بل إن شرعيتها أصبحت مستمدة منها"[2]

أما Gramsci فقد استخدم أهم افتراضات الماركسية في سياق مفاهيمي خاص. فقد أكد على مسألة التنظيم "كالقاعدة الأساسية والوحيدة التي تسهل للطبقة العاملة عملية تجاوز عمليات الاستغلال الاقتصادي والضياع السياسي."[3]

ولن يتأتى ذلك إلا عبر مجلس العمال ونظام المجالس، كتنظيم قاعدي يمكن من "اختيار المواقف الجديدة للطبقة العاملة."[4]

[1] نفس المرجع السابق، ص.109.

[2] نفس المرجع السابق، ص.108.

[3] شحاتة صيام، مرجع سبق ذكره، ص.135.

[4] نفس المرجع السابق

ويأتي هذا التصور ليولي أهمية بالغة لمجالس العمال في الحركة النضالية التي لها دور تهديم المجتمع الرأسمالي ليحل محله تنظيم جديد، حيث ستسيطر البروليتاريا على عملية الإنتاج مما سيمكنها من قيادة المجتمع، لتتمكن من الهيمنة على البنى الإيديولوجية السائدة.

وأماLukas فهو يعمم وجود الطبقات على المستوى القومي الذي يفرز مصالح اقتصادية. ثم إن تصوره للوعي الطبقي يختلف عن تصور Marx، إذ إنه يميز بين الوعي الطبقي السيكولوجي والوعي الممكن أو المكتسب.

فالأول هو ذلك "الوعي المباشر الذي يمتلكه العمال عن موقعهم في المجتمع، ووصفه بالوعي الزائف. أما الآخر فيقصد به الأفكار والمشاعر التي يشعر بها الأفراد لو أنهم يستطيعون استيعاب موقفهم ومصالحهم بشكل كامل."[1]

ويرى Poulantzas بأن الطبقة الاجتماعية ما هي إلا نتاج للبنى الاجتماعية التي تفرزها، كإفراز بنيوي يعكس بشكل "شامل الأبنية في ميدان العلاقات الاجتماعية (...) باعتبارها علاقة إنتاج اجتماعية، وأن هذه العلاقات تظهر على الصعيد الاقتصادي كانعكاس لهذه التركيبة النوعية التي تؤلف بين عوامل الإنتاج والشروط المادية التكتيكية للعمل."[2]

وبذلك، العلاقات الاجتماعية داخل مجتمع ما، ما هي سوى انعكاس لطبيعة البنى الاقتصادية والسياسية، مما يؤثر في طبيعة ومستوى الصراع الطبقي فيه.

ب) البنيوية:

مصطلح "البنية" ليس بالجديد؛ فقد استخدم في تخصصات متعددة وبدلالات مختلفة. بيد أنه شاع استخدامه بفرنسا مع أعمال Claude Lévi-Strauss.

تضرب البنيوية جذورها في تاريخ الألسنية إذ يحدد De Saussure اللغة على أنها نسق من العلامات معبرة عما يجول لدى الناس من أفكار.

---

[1] نفس المرجع السابق، ص.137.

[2] نفس المرجع السابق، ص.140.

والعلامة تتكون من دال (الفكرة) ومدلول (الصوت) اللذان لا يفترقان، وهما مرتبطان كل الارتباط ببعضهما.

والسيميولوجيا من هذا المنطلق، تكشف عن طبيعة نسج أنساق العلامات التي يتواصل عن طريقها الأفراد.

يعتبر "جاكبسون أول من استخدم مصطلح البنيوية".[1] غير أن العديد من المفكرين قد استخدموا هذا المصطلح بدون تحديد دقيق له.

والمنهج البنيوي مبني على "هيكلة القصص بالتعارض؛ هذا التعارض يمثل الوظيفة الرمزية."[2]

والرمز (symbol) هو كل ما يحمل معنى؛ هو إنتاج ثقافي، يُتعرف عليه من خلال "ضده"[3] بين مثلا: الأبيض والأسود، النهار والليل، النيئ والمطهو، لتتضح العلاقة بين الدال والمدلول لتحليل التمثلات المختلفة حول نمط العيش.

وقد حدد Gurvitch أن البنية الاجتماعية "سواء أكانت جزئية (بنية جماعة) أو كاملة (للمجتمع برمته) هي في حالة توازن عابر، دائمة التكون بجهد متجدد، بتعدد أنظمة التسلسل داخل ظاهرة اجتماعية شاملة من نوع ماكرو-سوسيولوجي والتي لا تكون سوى جزءا أو مجالا(حيث) يكون توازن التسلسلات المتعددة مرسخا عبر نماذج وإشارات ورموز وأدوار اجتماعية (...) وقيم وأفكار"[4] والتي لها علاقة بالبنى.

لدى Gurvitch، لا يجب عزل العناصر عن النسق المتواجدة فيه والذي تأخذ منه دلالتها، "محاولة لشرح مدا وتراجعا مستمرا للهيكلة (structuring)، للهدم وإعادة البناء."[5]

[1] دانيال تشاندلر، **أسس السيميائية**، ترجمة: طلال وهبة، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، 2008، ص.32

[2] **La sociologie**, France, Librairie Larousse, 1978, p.120

[3] Ibid.

[4] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.433

[5] **La sociologie**, op.cit.

وقد وظفت عدة تخصصات في العلوم الإنسانية مصطلح البنية، باحثة عن البنى التي تمنح لظاهرة ما هيكلة معينة، لاكتشاف العلاقات الاجتماعية الكامنة.

في الإتنولوجيا، تعني البنية لدى Lévi-Strauss وجود "خصائص محددة حيث تمكن التركيبات والتحولات من المرور من نسق إلى آخر وإدراك العلاقة الكامنة بينها. بينما لدى Radcliffe Brown البنية هي جزء من الموضوع، نواته للمقاومة والتي يدرس بفضلها نفس المجتمع في فترات متعددة."[1]

وقد بين Lévi-Strauss العلاقة بين عدة أنساق، واصفا الطريقة التي تتميز بها الجماعات الاجتماعية عن الحيوانات والنباتات، بحيث "في بعض المجتمعات العلاقات بين البشر والحيوانات والنباتات تمكّن من تحديد أنساق القرابة، كما أنها في ذات الوقت تحدد العلاقات الاجتماعية والعائلية".[2]

فقد قام Lévi-Strauss بمناقشة التحولات والتعارضات التي تحدث في الأنساق المختلفة، موضحا كيفية توازي التحول الذي يحدث من الطبيعة إلى الثقافة، والمتمثل في تغير العادات والممارسات الثقافية. فمثلا لم يعد الطعام يُؤكل نيئا بل مطهوا.

وقد قام Merton بقراءة جديدة للوظيفية عبر نقد كل من Malinowski وRadcliffe Brown، بناء على مسلمات المقاربة الأنتروبولوجية: "الوحدة والشمولية والضرورة الوظيفية."[3]

تقر المسلمة الأولى بوحدة المجتمع وباتساقه. بيد أننا نعلم بأنه لا تمثل كل المجتمعات كلا متجانسا، إذ تشمل الأخيرة جماعات اجتماعية مختلفة العرقيات وذات انتماءات عقائدية متباينة.

---

[1] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.431

[2] Alain Blanchet, Rodolphe Ghiglione, Jean Massonnat, Alain Trognon, **Les techniques d'enquête en sciences sociales**, Paris, Dunod, 2005, p.246

[3] Françoise Bloess, Jean-Pierre Noreck, Jean-Pierre Roux, **Dictionnaire de sociologie**, Paris, Hatier, 1997

أما المسلمة الثانية فهي تقر بأن "في مجتمع معين، لكل الاستخدامات الاجتماعية وظيفة معينة".[1]

إلا أن Merton لا يقر بهذه المسلمة، حيث يرى بأن بعض الاستخدامات الاجتماعية لا تؤدي أي وظيفة اجتماعية معينة.

وفي الأخير، وبنقده لمسلمة الضرورة الوظيفية للنشاطات الاجتماعية التي ترتكز على أساس أن لكل نشاط اجتماعي وظيفة ما، تضمن توازن المجتمع وأن اختفاء أحدها يؤدي إلى عدم توازنه، فإن Merton يرى بأنه يمكن أن تؤدى وظيفة ما من خلال نشاطات منظمة ومتعددة، وبالتالي فالنظام القائم ليس مهددا بزوال أحد الأنشطة.

وقد قام Weber بوضع مرفولوجية المدينة في القرون الوسطى، حيث اشترط أن يتميز التجمع السكاني "بالتبادلات التجارية التي لا تكون مناسبتية، بل منتظَمَة والتي تكوّن مكونا أساسيا لظروف المعيشة لدى السكان، بمعنى يشترط الأمر وجود سوق."[2]

فالمدينة تشترط فضاء للسوق تتبادل فيه السلع المحلية المختلفة أساسا لإرضاء حاجيات السكان، سواء سكان المدينة أو سكان الريف. هذا من الناحية الاقتصادية.

أما عن التعريف السياسي-الإداري للمدينة، فيرى Weber بأن "تجمعا يمكن أن ينتقل إلى مستوى مدينة، بينما من التصور الاقتصادي لا يمكنها ذلك. في القرون الوسطى، كانت هنالك مدن في المعنى القانوني، حيث كان 10/9 من السكان أو أكثر لا يعيشون إلا على محاصيلهم الزراعية"[3].

بمعنى، أنه من الناحية السياسية-الإدارية كان يُمنح لقب مدينة حتى لبعض التجمعات التي كانت تعيش أساسا على المنتوجات الزراعية، والتي يُمنح لها حاليا لقب

[1] Ibid.

[2] Max Weber, **La ville**, traduction de Philippe Fritsch, Paris, Aubier Montaigne, 3eme édition, 1947, p.19

[3] Ibid., p. 29

قرية لأنها لا تعيش على أساس الصناعة أو التجارة. غير العامل الحاسم الذي يميز هذه المسماة بالمدينة من الناحية الإدارية هو "نمط قوانين العلاقات مع الملكية العقارية "[1].

فقوانين الملكية العقارية الخاصة بالمدينة هي التي ستميزها عما يوجد في الريف.

أما رواد مدرسة شيكاغو، فقد قاموا بوصف مرفولوجية المدن الأمريكية بهدف اكتشاف ما يحدث في المدينة، في "أحيائها ومؤسساتها وشبكاتها والجماعات العرقية والمهنية والفئات المدنية المختلفة: الغريب وبدون مأوى والمتشرد."[2]

ولتفسير كل هذه الظواهر، كان لابد من استخدام مفهوم الثقافة. كانت هنالك نزعة ثقافية في علم الاجتماع، بحيث اهتم الباحثون في مدرسة شيكاغو، بدراسة التنوع الثقافي الأمريكي، بدلا من البحث عن براهين تباين وحدة الثقافة في الولايات المتحدة الأمريكية.

"انتهت هذه الدراسات إلى خلق مفهوم جديد هو مفهوم **الثقافة الفرعية** (subculture)، حيث تسهم كل مجموعة اجتماعية بثقافة فرعية خاصة، بكل واحدة منها أنماط تفكير وتصرف مميزة، وفي نفس الوقت فهي تتقاسم الثقافة الشاملة للمجتمع "[3].

تمكنت مدرسة شيكاغو من الوصول إلى نتيجة مفادها أن الثقافة الأمريكية هي مجموع ثقافات فرعية، كل واحدة تخص جنسا ما، طبقة ما، انتماء ما. وفي الأخير تكون مجتمعة ذلك الكل، النسق الموحد المتمثل في الثقافة الأمريكية.

كان يصبو مفكرو مدرسة شيكاغو إلى إخراج عالم الاجتماع من المكتب للبحث في الميدان والمتمثل في أحياء المدينة. وقد وصف Park هذا المنهج بأنه هو نفسه الذي استخدِم "لدراسة حياة وطريقة عيش هنود أمريكا الشمالية إذ يمكن تطبيقه على دراسة

[1]Ibid.

[2]Yankel Fijalkow, **Sociologie de la ville**, Paris, Editions La Découverte, 2002, p.44

[3]Yankel Fijalkow, op.cit., p.47

العادات والمعتقدات والممارسات الاجتماعية والتصورات العامة حول الحياة التي تعمّ في حي Little Italy أو North Side في شيكاغو"[1]وغيرها من الأحياء.

فأضحى المبحوثون يُدرسون في السياق الاجتماعي الذي يعيشون فيه وليس كمجرد أرقام وإجابات منعزلة.

تتعامل البنيوية مع الظواهر الآنية التي تحدث في وقتها ولا تهتم بتاتا بتطورها. وهي تستند إلى بعض الافتراضات.

يتمثل أول افتراض في أن "الظواهر الثقافية أنظمة لغوية إذ يعبر عنها باللغة وهي موجهة بالمبادئ التي توجه اللغة".[2]

يعتبر كل من الفن والأدب والقرابة وغيرها من الأنظمة أنظمة لغوية، بمعنى أنها أنظمة تعكس الأفكار والتي مصدرها هو الكلمات. فالظاهرة اللغوية هي ظاهرة ثقافية، حيث تكون اللغة همزة وصل بين الأفراد والشعوب، تمكّنهم من التفاهم والتواصل بينهم من خلال مجموعة من الرموز.

ترتبط اللغة بشكل المجتمع وببنياته وبالرموز التي يسيرها، بخلقها نسقا للتصورات ورؤية لما يحدث في العالم، وبذلك تتحدد العلاقة مع "الآخر".

يعرفها De Saussure على أنها "نسق من الإشارات التي تدرس الأفكار، وبذلك يمكن مقارنتها بالكتابة والأبجدية وأبجدية الصم البكم والطقوس الرمزية وأشكال الآداب والإشارات العسكرية. مع كل ذلك، فهي تُعتَبَر أهم هذه الإشارات."[3]

استنادا إلى هذا التعريف، يرى De Saussure أن اللغة نسق، حيث تتكون عناصره من إشارات تنتقل بين الأفراد. يقارنها بالأنساق الأخرى، غير أنه يرى بأنها أهم هذه

---

[1] Alain Blanchet, Anne Gotman, **L'enquête et ses méthodes : L'entretien**, France, Nathan, 2001, p.15

[2] عبد الرحمن عزي، **الفكر الاجتماعي المعاصر والظاهرة الإعلامية الاتصالية**، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 1995، ص.88

[3] François Gadet, **Saussure une science de la langue**, France, PUF, 3eme édition, 1996, p.36

الأنساق. كما نجده يؤكد على فكرة مفادها أن اللغة "لا تكتمل في أي فرد لوحده، ولكنها توجد لدى الجماعة بدرجة الكمال."[1]

بمعنى، أن اللغة نسق من الأنساق الاجتماعية لا تتحقق وظيفتها إلا من خلال الاتصال والتفاعل الاجتماعي(social interaction)، هذا الذي يضمن بقاءها واستمراريتها. ولا يمكن أن تستمر لغة ما إلا بفعل تداولها بين مجموعة من الأفراد، تتلقنها من خلال عملية التنشئة الاجتماعية (socialization)، وهكذا دواليك.

وعلى هذا النحو، يرى Lévi-Strauss أن "التعامل مع بنية الظواهر الثقافية يمكن من استنباط واستكشاف بنية العقل الإنساني، إذ إن مثل هذه الظواهر نتاج عدد من الفئات العقلية الموروثة".[2]

تعتبر الثقافة بالنسبة إلى Lévi-Strauss نمطا يشمل مجموعة من الرموز تتمثل في لغة المجموعة البشرية التي هي محل الدراسة، القواعد التي تنظم وتضبط الطقوس الخاصة بالزواج، مجموع العلاقات الاقتصادية التي تسير حياة تلك الجماعة، مجموع الفنون والعلوم والطقوس الدينية كبنيات أساسية.

ولكن Lévi-Strauss من خلال دراسته لهذه الخصوصيات المتعلقة بكل ثقافة، أراد أن يثبت "عدم اختلاف الثقافة من مجموعة بشرية إلى أخرى. بالنسبة إليه، لا يمكن أن تفهم الثقافات الخاصة بدون الاستناد إلى الثقافة، هذا الرأسمال المشترك للبشرية، الذي من خلاله تقوم بإعداد نماذج خاصة."[3]

وبذلك، فقد أخرج Lévi-Straussالإتنولوجيا من قوقعتها ضد التيار الذي كان يرى نسبية الثقافات، حيث كانت تعتبر المجتمعات منغلقة على نفسها.

---

[1] هاريس روي، تيلر تولبت جي، **أعلام الفكر اللغوي**، ترجمة: أحمد شاكر الكلابي، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2003، ص.261.

[2] عبد الرحمن عزي، مرجع سبق ذكره

[3] Denys Cuche, **La notion de culture dans les sciences sociales**, Alger, Edition la CASBAH, 1998, p.45

حسب Lévi-Strauss، توجد ثقافة موحدة تجمع بين كل المجتمعات البشرية، حيث تشترك في مقومات ثقافية متشابهة، والتي من خلالها توجد نماذج ثقافية خاصة بكل مجتمع بشري.

وتتضمن الأنظمة الثقافية اللغوية ليس نظام القرابة والأسطورة فحسب، ولكن أيضا الأنظمة الثقافية اللغوية الأخرى، المتمثلة في الأدب والفنون والنصوص المكتوبة التي كانت محل دراسات كل من Foucault وAlthusser.

كان ذلك عن الافتراض الأول للبنيوية الذي ينطلق من مبدأ أن الظواهر الثقافية هي أنظمة لغوية. أما الافتراض الثاني، فيرتكز على مبدأ أن الظواهر الثقافية "مثل اللغة هي أنظمة من الدلائل. فكل ظاهرة ثقافية تحوي الدال (المفهوم) والمدلول (محتوى الدلالة)".[1]

وهذا يحيلنا إلى السيميولوجيا التي تدرس "كل أنساق العلامات مهما كان جوهرها وأيا كانت حدودها، صوتا وحركات وموسيقى وأمتعة، بالإضافة إلى الظواهر الجوهرية المعقدة التي توجد في الأشكال الاحتفالية والبروتوكولية أو حتى المشاهد الفرجوية، بما هي أنساق دلالية في حدها الأدنى، إن لم تشكل لغة قائمة بذاتها."[2]

وهنا، يبحث البنيويون عن "التراكيب العميقة الكامنة وراء السمات السطحية في منظومات الإشارات"[3] بشكل عام.

يمكن تحليل العلامات من توضيح استراتيجيات القائم بالاتصال. وتحيل الصورة إلى مجموعة من العلامات ستوظف في سياق خاص. و**العلامة** (sign) هي علاقة بين ثنائيتين: الدال والمدلول.

---

[1] عبد الرحمن عزي، مرجع سبق ذكره، ص.90

[2] محسن بوعزيزي، **السيميولوجيا الاجتماعية**، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، 2010، ص.63

[3] دانيال تشاندلر، مرجع سبق ذكره، ص.37

يمثل **الدال** (signifier) المستوى المادي للعلامة أو الصورة الصوتية أو التمثل العقلي لشكل العلامة. أما **المدلول** (signified) فيمثل المحتوى أو الفكرة أو المستوى المفهومي المتمخض عن الدال أو التمثل العقلي للمفهوم المتصل بالعلامة.

الصورة لا ترتبط بما هو خارجها؛ فالمسألة مرتبطة بما يوجد داخل نسق الصورة من انسجام وتلاؤم بين عناصرها.

الصور التي نراها كل يوم والتي أضحت جزءا من الحياة الاجتماعية ليست حيادية؛ هي محملة بمنظومة من القيم الضمنية المراد تمريرها للمتلقي الذي يتفاعل معها بأشكال مختلفة؛ فهو يشاهدها ويعيد مشاهدتها، يقبلها أو يرفضها، يمنحها تأويلا ويعيد تأويله إياها. وبالتالي، يعيد إنتاج معانيها.

والمرسل حتى يؤثر في المتلقي، يقوم بتنظيمها وبنائها وفق معايير محددة مرتبطة بداية بفكرة تسيرها، وبطبيعة السيناريو والألوان المختارة التي لكل واحد منها دلالة معينة، ثم عن طريق اختيار معين لزوايا التصوير، وأيضا من خلال الموسيقى المرافقة لها، والنص الذي يرافقها (مكتوب أو شفوي)...

هذه العناصر بامتزاجها ببعضها البعض ستكون بنية، هي التي تشكل بنية الصورة كما نصفها وكما نؤولها.

وعلى هذا النحو، يمكن دراسة الظواهر الثقافية التي تتفرع إلى جزءين اثنين: دال بمعنى ما هو ظاهر ويدرك للوهلة الأولى، ومدلول بمعنى ما هو ضمني والذي يجب القيام بتحليل تضميني له، أي قراءة من مستوى آخر، تتعدى مجرد الوصف للبحث عن الدلالات المختلفة التي تسيرها الصورة، والوصول إلى تحديد العلاقة القائمة بين الدال والمدلول.

وعلى هذا المستوى، نتساءل: "لماذا؟ زاوية دون أخرى ولقطة دون أخرى، لون معين عن غيره، إضاءة خاصة."[1]

---

[1] سامية عواج، **خطوات تحليل الفيلم الاشهاري، من أسلوب تحليل المضمون الى أسلوب التحليل السيميولوجي**، جامعة بسكرة، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد 22، 2017، ص.ص 331-370

يتم انتقاء وتحديد كل عنصر من هذه العناصر بشكل مدروس، ويتم ربطه بالسياق الذي برز فيه معبرا في آخر المطاف عن القيم المتضمنة في الصورة.

يعتبر التضمين أو الإيحاء نسقا من مستوى ثان، بحيث يكون "مرتبة ثانية للدلالة (...) فتمنح مدلولا إضافيا."[1]

وهكذا، يتمثل دور الكاتب الناقد كمفكر في الظواهر الأدبية حسب Barthes في "استنطاق واستخراج المعاني الكامنة في الظواهر الثقافية، لأن هذه الظواهر لا تعكس الحقيقة فحسب، بل تدل عليها أيضا".[2]

وفي الواقع، أدق تعريف للبنية هو الذي حدده Piaget، حيث تشمل البنية ثلاث خصائص: "الكلية والتحول والضبط الذاتي"[3]؛ وهذه الخصائص الثلاث هي التي تمثل الافتراض الثالث.

يفضي هذا التعريف إلى الكثير من التحديدات. فمبدأ **الكلية** (wholeness) يعني وجود وحدة من العناصر المكونة للبنية.

أما **التحول**(transformation) فيعني تفاعل عناصر البنية بشكل مستمر وتوليد عناصر جديدة ليس من الخارج، بل من داخلها.

أما **الضبط الذاتي** (self-regulation) فيعني أن البنية "لا تلجأ إلى خارجها بهدف التحقق من صحة الإجراءات التحولية"[4]؛ فلا يجب الاكتفاء بما هو ملاحظ للوهلة الأولى، بل يجب البحث عما وراء ما هو ملاحظ في المحتوى الظاهري.

وبذلك، تدل البنية على التنظيم وعلى ترابط عناصرها وتحديد العلاقة بين هذه العناصر، كمجموعة من العناصر الضرورية المكونة لنسق معين.

---

[1] محسن بوعزيزي، مرجع سبق ذكره، ص.71.

[2] عبد الرحمن عزي، مرجع سبق ذكره، ص.91.

[3] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.428

[4] Trence Hawkes, **Structuralism and Semiotics**, London and New York Routledge, second edition, 2003, p.7

ولا يتعين على الباحث الحديث عن وجود بنى فحسب، لأن ذلك تبسيط للظواهر، بل تحديد ماهية هذه البنى والعناصر المكونة لكل واحدة منها.

يحدد Piaget ماهية التنظيم والتكيف، حيث يشمل هذا الأخير "- وظيفتين رئيسيتين المتمثلتين في الضبط والاستيعاب- "كثوابت وظيفية" أو العوامل الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها، لأصل والمحافظة على وجود أي بنية، على أي مستوى من التطور."[1] فوظيفة التكيف لا تنفصل عن البنية.

أما الافتراض الرابع، فينطلق من مبدأ أن "البنيات التي تجسد الظواهر الثقافية لا شعورية، لكن يمكن الوصول إلى هذه البنيات من خلال وسيط اللغة".[2]

دراسة اللاشعور شائعة في تحليل بنية الظواهر الثقافية الذي يتعدى الملاحظ أو السطحي. وهكذا، نجد Lacan عند تحليله للخطاب العيادي يعزو إلى تجاوز "تقديم الدوافع المنطقية والمعقولة الخاصة بالسلوك (إلى)استنباط المؤثرات والمؤشرات المحددة التي تتواجد في الحياة اللاشعورية للإنسان".[3]

في حين، يستند الافتراض الخامس إلى "تأكيد التحليل البنيوي الآني (التزامني) أكثر من الجانب التطوري (أو التعاقبي) للظواهر الثقافية".[4]

وبالتالي، لا تدرس البنيوية الظواهر الثقافية في تطورها، بل في آنيتها أو تزامنها (وليس في تعاقبها)، بالتركيز على بنيتها الداخلية، في كيفية تفاعل عناصرها مع بعضها البعض.

لا يعني ذلك أن البنيوية تنفي التاريخ، بل تدرس الظواهر الثقافية من منطلق اللاشعور الذي ينظم طبيعة العلاقة بين عناصر الظاهرة.

---

[1] Terence Turner, **Genetic Epistemology**, **Jean Piaget**, Eleanor Buckworth, trans. New York and London, Columbia University Press, 1970, p.p 351-375

[2] عبد الرحمن عزي، مرجع سبق ذكره، ص.92.

[3] نفس المرجع السابق، ص.93.

[4] نفس المرجع السابق، ص.94.

نصل إلى الافتراض السادس الذي ينطلق من مبدأ أن "مختلف التحولات التاريخية تعكس القطيعة أو الانقطاع أو الانفصام أو اللااستمرارية ولا تمثل نماذج متماثلة تطابقية".[1]

فتاريخ المجتمعات عبارة عن قطائع، مكنتها من المرور من نظام إلى آخر، حيث لكل نظام خصائصه وطبيعة الخطابات المهيمنة فيه. وهذا ما ذهب إليه Michel Foucault الذي ركز في أعماله على مركز القوة في كل حقبة من حقب المعرفة، من خلال أعمال انصبت على دراسة الجريمة والجسد والجنون والحياة الجنسية، حيث أكد في مؤلفه: **"أركولوجية المعرفة"** على "المشاكل الفلسفية من حيث علاقتها بجوانب الاستمرار والانقطاع البنيوي"[2]، محاولا اكتشاف المعاني والدلالات الجديدة في المؤسسات الحديثة.

في حين يركز مؤلفه: **"مولد العيادة"** على كيفية نشأة قوة الأطباء، مؤكدا على "العلاقة بين الدال والمدلول في نصوص الجنون والمرض، وعلى نحو تغدو معه السلامة العقلية والخلل العقلي والصحة والمرض أطرافا ثنائية"[3]، بحيث لا يمكن إدراك ثنائية هذه العناصر إلا بعلاقتها مع بعضها البعض.

وضح في أعماله كيف أن بعض المؤسسات (السجون، المستشفيات...) قد بزغت في المجتمعات الحديثة حيث تبينت هيمنتها على الأفراد، مبينا في ذات الوقت كيف أن الخطابات قد تغيرت حول الجنون مثلا مقارنة بما كان عليه في القرون الوسطى، من حيث بروز قوة الأطباء والخبراء والمؤسسات، مما يؤدي إلى توجيه الآراء والمواقف نحو اتجاه معين، ومما ينجر عن هذا الوضع أن هذه الخطابات أضحت "تمثل أدوات قوية

---

[1] عبد الرحمن عزي، مرجع سبق ذكره، ص.95

[2] اديث كيرزويل، **عصر البنيوية، من ليفي شتراوس إلى فوكو**، ترجمة: جابر عصفور، بغداد، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، 1985، ص.210.

[3] نفس المرجع السابق، ص.209.

للحد من وسائل التفكير أو الحديث البديلة"[1]. والمؤسسات الحديثة هي بنى تعزز الخطابات السائدة.

ونصل الآن إلى الافتراض السابع الذي يرى أن "مسألية التحليل البنيوي ليست الإنسان مالك المعاني، ولكن بنية المظاهر الثقافية التي هو (الإنسان) صنعها".[2]

من هذا المنطلق، يجب دراسة القوانين التي تحدد تفكير وتصرفات الإنسان، حيث لا تدرك المعاني إلا من حيث "العلاقة مع البنيات عند ليفي ستراوس أو الترتيب الرمزي عند لاكان أو السلطة عند بارت أو نمط الإنتاج عند ألتوسر أو الهجس المركزي عند فوكو".[3]

كان ذلك عن الافتراض السابع. أما الافتراض الثامن فيفترض أن "عناصر المظاهر الثقافية ترتبط بالسلطة (power)، لكن السلطة في أوقات تؤسس بنيتها وتكون مبنية بسبب التعقد والتأثير المتبادل الذي يتواجد بين وضمن المحاور المختلفة للنظام الاجتماعي".[4]

على هذا الأساس، يكون الخطاب ليس مجرد نص ملفوظ، بل يعكس طبيعة الصراعات في المجتمع. هو صراع من أجل فرض السيطرة من خلال المؤسسات الرسمية التي تقوم بوظيفة المراقبة الاجتماعية، ولغة رسمية تتناقض مع اللغة غير الرسمية التي تتمثل خطاب المعزولين، إذ حسب Foucault "يعتبر الفرد مجنونا إن كان خطابه لا ينسجم أو خارجيا عن الخطاب السائد. وهكذا، يصنف نظام المجنون اللغوي فيعزل ويحبس ويصبح خطابه فارغا".[5]

---

[1] أنتوني غدنز، مرجع سبق ذكره، ص.722

[2] عبد الرحمن عزي، مرجع سبق ذكره، ص.97

[3] نفس المرجع السابق

[4] نفس المرجع السابق، ص.98

[5] نفس المرجع السابق

أما عن الافتراض التاسع فيستند إلى أن "المعايير المتحكمة في دراسة الظواهر الثقافية عالمية في طابعها".[1]

وهذا ما أتى به Lévi-Strauss لما تحدث عن وجود ثقافة موحدة تجمع بين كل المجتمعات البشرية، حيث تشترك في مقومات ثقافية متماثلة.

فبالرغم من تنوع الثقافات، بيد أن البنى التي تتحكم فيها هي متشابهة، مما يمنحها ذلك البعد الشمولي العالمي.

ووصلنا الآن إلى آخر افتراض الذي يستند إلى القول بأن "البحث البنيوي ينبني على ملاحظات إمبريقية، لكن الملاحظ ما هو إلا جسر ضروري نحو اكتشاف البنى اللاشعورية للظواهر الثقافية".[2]

الغاية من التحليل البنيوي هو البحث عن استخراج البنى اللاشعورية والبحث عما هو مستتر غير ظاهر للعيان. فالإنسان لا يمكنه تقديم تفسير لتصرفاته اللاشعورية.

على هذا الأساس، يرى Lévi-Strauss أن تقديم تأويلات مختلفة للأساطير لا يؤثر فيها، لأن العناصر المركبة لها تتحكم فيها بنية معينة، هي نفسها.

عند قيامي باستعراض لدلالة البنية لدى مجموعة من المفكرين، اتضح لي جليا بأن لهذا المفهوم عدة دلالات، اختلفت من مفكر إلى آخر تبعا للمجال الذي وظفت فيه، مما انجر عن ذلك عدم وضوح هذا المفهوم. وقد نجح توظيف هذا المفهوم خصوصا لدى اللسانيين وعلماء الاقتصاد، إذ ينطلق الأخيرون من مبدأ أن البنية مستقرة بالرغم من كون المحيط مضطربا.

وقد حظي مفهوم البنية بنجاح كبير لدى الإثنولوجيين، لا سيما لدى أولئك الذين كانوا يدرسون "**المخلفات**" (survivals) والجماعات البدائية.

---

[1] نفس المرجع السابق، ص.99

[2] نفس المرجع السابق، ص.100

والنقد الذي يوجهه Lefebvre إلى البنيوية هو أنها "تفضل البنية، متغافلة عن مرونة البنى والتناقضات الداخلية"[1]، حيث كان البنيويون يؤكدون على أهمية الاستقرار داخل الأنساق الاجتماعية لاستقرار المجتمع.

في حين، لاحظ أن البنيوية "تحل مشكل الروابط التي نرى بأنها معقدة بين مصطلحات الشكل والنسق والكلية، بالقضاء عليها"[2].

غير أن هذه المسألة تزيد من غموض هذه المصطلحات وعدم تحديدها الدقيق.

ج) الوظيفية:

تعتبر **الوظيفية** (functionalism) من بين أبرز النظريات الماكروسوسيولجية التي ظهرت في القرن التاسع عشر.

ارتكزت هذه النظرية على مفهوم أساسي ألا وهم مفهوم **النسق** (system) باعتباره ذلك الكل الذي "يتألف من مجموعة من العناصر المترابطة مع بعضها البعض، ويسود بينها نوع من التساند الوظيفي."[3]

وجاءت الوظيفية كرد فعل على التطورية التي تدرس تطور الظواهر الاجتماعية من حيث تاريخها، في حين تدرس الوظيفية المؤسسات الاجتماعية "كهياكل تؤدي دورا داخل مجموعة متناسقة والمتمثلة في المجتمع".[4]

ثم من الأنتروبولوجيا، انتقل الاهتمام بدراسة الوظائف الاجتماعية إلى حقل علم الاجتماع من خلال أعمال كل من Parsons وMerton.

فمن وجهة نظر سوسيولوجية، يتم تبني الوظيفية لتفسير الظواهر الاجتماعية، من حيث الوظائف الاجتماعية المؤداة (سواء أكانت الظاهرة منها أو الكامنة).

---

[1] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences socials**, op.cit.

[2] Ibid.

[3] شحاتة صيام، مرجع سبق ذكره، ص.45

[4] François Dortier, **Les sciences humaines**, France, Sciences Humaines Editions, 1998, p.32

وللقيام بتحليل وظيفي لظاهرة اجتماعية ما، يجب طرح الأسئلة الثلاثة الموالية:

"-ما هي الوظيفة؟

-ما هي الأسباب؟

-ما هي مكانتها داخل المجموعة؟"[1]

يفيد السؤال الأول الإجابة عن ماهية الوظيفة التي تؤديها الظاهرة أو المؤسسة الاجتماعية. إذا أخذنا على سبيل المثال وظيفة الهدايا في الحفلات، فهي تؤدي وظيفة التضامن الاجتماعي.

أما السؤال الثاني فيفيد الإجابة عن الفائدة المتوخاة من هذه الوظيفة أو تلك داخل المجتمع أو الجماعة الاجتماعية، من حيث مآزرة أفراد الجماعة وإدخال الغبطة عليهم، وجعلهم يحسون بأن لهم قيمة ومكانة لدى الآخرين، وإحساسهم بالانتماء إلى تلك الجماعة الاجتماعية.

أما السؤال الثالث فيهدف الإجابة عن الأهمية التي يكتسيها كل عنصر من عناصر المجموعة، حيث يكون الترابط منطقيا ومبنيا وذا دلالة داخل نسق مهيكل؛ فالهدايا هي أساس من أسس الرباط الاجتماعي.

ترجع الجذور التاريخية للوظيفية إلى "الفكر الوضعي الذي يؤرخ له مع بدايات القرن 19، حيث كانت النزعة الوضعية في مهدها تؤيد العلم وتقف موقفا معارضا من الأفكار اللاهوتية والميتافيزيقية."[2]

وقد حاول المفكرون في ميدان العلوم الإنسانية أن يسقطوا المناهج والنماذج التفسيرية لعلوم الطبيعة على دراسة الظواهر الإنسانية، بحجة أن ذلك سيضفي نوعا من الدقة والعلمية على الأخيرة، مع ما تنتهجه العلوم الأولى من مناهج وتقنيات للملاحظة.

---

[1] Ibid.

[2] شحاتة صيام، مرجع سبق ذكره، ص.47

وقد وظف مصطلح الوظيفة في عدة مواضع، بما فيها استخدامه في اللغة اليومية، مما أدى في الكثير من الأحيان إلى عدم دقة ووضوح هذا المفهوم.

الاستخدام الأول لمصطلح **وظيفة** (function) هو المعنى الذي نستخدمه في اللغة المشتركة البعيد كل البعد عن المعنى العلمي، كأن نتحدث عن الوظائف المنوطة برئيس البلدية أو الوزير أو وظيفة الأستاذ، بمعنى المهام المسندة لكل واحد منهم والتي يقف على عاتق كل واحد منهم تأديتها.

أما الاستخدام الثاني فهو مرادف لكلمة المهنة من حيث بعدها الاقتصادي، حيث يحدد Weber معنى الأخيرة "كنمط تخصص، وكمجموعة وظائف للفرد، بقدر ما تمثل بالنسبة إليه مصدر دخل وربح".[1]

أما الاستخدام الثالث فهو "حالة خاصة من الاستخدام السابق (...) حيث تشير كلمة وظيفة إلى النشاطات المعطاة لأحد لديه مكانة اجتماعية محددة، وتحديدا إلى من لديه مسؤولية إدارية أو سياسية"[2]، مانحا لكلمة وظيفة بعدا سياسيا.

غير أن المعنى الأدق لمصطلح وظيفة يكمن في الرياضيات حيث تشير الوظيفة إلى "متغير في علاقته مع متغير أو عدة متغيرات، بواسطته يمكن التعبير عنه والذي بموجبه تتحدد قيمته."[3]

على هذا الأساس، تتحدد العلاقة الوظيفية بين المتغيرات، بموجب العلاقة الكامنة بين المتغير المستقل والمتغير التابع، المستخدمة لإدراك الظواهر في العلوم الإنسانية.

كما أن هنالك معنى آخر يستخدم عن طريقه مصطلح الوظيفة في معناه البيولوجي، وهو الرائج في حقلي علم الاجتماع الإتنولوجيا، حيث اعتبرت الوظيفية

[1] Robert K.Merton, op.cit., p.63

[2] Ibid.

[3] Ibid.

المجتمع كائنا حيا يتنفس وينمو ويقوم بعدة وظائف، باعتبار **الوظيفة** "مجموعة عمليات من خلالها تتجلى الحياة العضوية أو الاجتماعية".[1]

ندرك عبر هذا التحديد لمفهوم الوظيفة في بعدها البيولوجي، أنها ذلك الإسهام الذي يقوم به كل "عضو" في عمل جهاز عضوي أو اجتماعي، مما يؤدي إلى توازن النظام البيولوجي أو الاجتماعي القائم.

من هذا المنظور، يبدو المجتمع ككائن حي يقوم بعدة وظائف، بداية بميلاده ثم نموه. كما أن اعتبار المجتمع ككائن حي يحيل إلى أنه متكون من أجزاء تعمل مع بعضها البعض وبشكل متناسق، شأنها شأن جسم الإنسان، وفي أدائها تضمن توازن واستمرارية النظام. كما أن مفهوم الوظيفة من المنظور الوظيفي يرتبط كل الارتباط بمبدأ التوازن (equilibrium) الذي يجب أن يلبيه كل نظام قائم حتى لا يحدث اختلال فيه. وهكذا، يعتبر الوظيفيون "النظام والتوازن الحالة الاعتيادية للمجتمع"[2].

ويستخدم مفهوم التوازن ليدل على معنى "التنظيم التلقائي الذي يقوم به جسم الإنسان للبقاء على حالة معينة من الثبات."[3]

وبالتأكيد أن المجتمعات تعيش باستمرار حركية وليست في حالة مستقرة كما تبدو عليه؛ فهي في تغير مستمر. وهنا، يأتي دور التوازن في خلق "نوع من التنسيق والتوجيه والتنظيم والتحكم بين أجزاء الكائن الحي، حتى لا يتم انحراف الأخير عن أداء وظيفته الأساسية".[4]

وهكذا، تتصور الوظيفية المجتمع ككل اجتماعي، كنسق مكون من أنساق فرعية، والمجتمع كنسق باعتبار النسق مجموعة منظمة من العناصر المرتبطة ببعضها البعض، وفي تفاعل ديناميكي.

---

[1] **Dictionnaire de Philosophie**, op.cit., p.105

[2] أنتوني غدنز، مرجع سبق ذكره، ص.74.

[3] شحاتة صيام، مرجع سبق ذكره، ص.49.

[4] نفس المرجع السابق

وقد استخدم Malinowski التحليل الوظيفي في دراسة "الدور الذي تؤديه العناصر الثقافية أو الاجتماعية في المجتمع"[1]، بربطها ببعضها البعض.

وهو يرى أن وظيفة أي فعل اجتماعي "تتحدد بالأساس في مدى إسهامه في الحياة الاجتماعية كلها، وأن الوحدة التي يتمتع بها النسق الاجتماعي الكلي هي وحدة وظيفية."[2]

وقد كان مقتنعا بفكرة النظام والتوازن التي يسعى النظام الاجتماعي دوما إلى تحقيقها، مهما كانت التغيرات التي يشهدها.

وقد جاء إسهام Malinowski في المجال الأنتروبولوجي كرد على تحليلات Boas* فيما يخص الثقافة.

فهو "يعارض كل محاولة لكتابة تاريخ الثقافات الشفوية. بالنسبة إليه، يجب الاكتفاء بالملاحظة المباشرة للثقافات في وضعيتها الحالية، بدون البحث عن أصولها، لأن ذلك لا يمكن البرهنة عليه علميا (...) فقد كان ضد النزعة التطورية التي توجه فكرها للمستقبل، وضد النزعة الانتشارية التي توجه فكرها للماضي"[3].

كان Malinowski رجل ميدان، أسهم ببحوثه الميدانية بتبنيه تقنية **الملاحظة بالمشاركة** (participating observation) التي من خلالها جمع كما كبيرا من المعلومات التي لها علاقة بالممارسات الثقافية لبعض الشعوب، بوظائفها الحالية، في الوقت الذي تمت فيه الدراسة، ولم يكن مهتما بتاريخها ولا مستقبلها. فحسب رأيه،

---

[1] Robert K.Merton, op.cit., p.65

[2] شحاتة صيام، مرجع سبق ذكره، ص.54

* حسب Boas، كل ثقافة مستقلة عن الأخرى، وبذلك فقد حدد فكرة نسبية الثقافات، أي أن لكل ثقافة نمط خاص بها: فاللغة والمعتقدات والعادات والقوانين خاصة بكل ثقافة. وعلى هذا الأساس، لا يمكن منهجيا إعادة تشكيل حياة المجتمعات البشرية، كما فعل ممثلو التطورية، فالواقع أعقد من ذلك.

[3] Denys Cuche, op.cit., p.33

دراسة الثقافة في وضعها الراهن هي التي تمكن الباحث من الدراسة الموضوعية والعلمية لمختلف الثقافات.

وقد عرف Malinowski الثقافة على أنها "ذلك الكل الذي يضم الأدوات ووسائل الاستهلاك والقوانين المنظمة التي تحكم مختلف التجمعات الاجتماعية والأفكار والفنون والمعتقدات والعادات"[1].

بتحديده لمفهوم الثقافة، نجد Malinowski يؤكد على أنها كل، أي وحدة منسقة تجمع عناصر مختلفة كالأفكار والفنون والمعتقدات، لكل واحد منها وظيفة معينة، الهدف منها هو الوصول إلى نسق منظم ومتوازن. ويحاول هذا النسق أن يبقي على حالة التوازن ولا يصيبه أي خلل.

بيد أنه "يقلل من شأن الاتجاهات التي تدعو إلى التغيير الداخلي الخاص بكل ثقافة. بالنسبة إليه، يأتي التغيير الثقافي أساسا من الخارج، بفعل الاحتكاك الثقافي"[2]. فلن تغير حالة التوازن الموجودة في كل ثقافة إلا عوامل خارجية.

يعتبر Malinowski أن تصرفات الأفراد والمؤسسات الاجتماعية تقوم بوظائف، والتي يتم تحديدها من خلال الإجابة عن الأسئلة الثلاثة الموالية: "هل يعمل؟ كيف؟ ولماذا؟"[3]

فالسؤال الأول يحيل إلى طبيعة الفرد والنظام إن كان يعمل ويقوم بوظائفه أم لا. أما السؤال الثاني، فيساعدنا على فهم الآليات التي بواسطتها يعمل النظام والعوامل المسهمة في توازنه وديمومته. وفي الأخير، يحدد السؤال الثالث العوامل التي تؤدي إلى حالة التوازن، وأن المؤسسات الاجتماعية والثقافية هي موجودة من أجل تلبية حاجات أساسية للفرد والمجتمع.

---

[1] Bronislaw Malinowski, **Une théorie scientifique de la culture**, Paris, François Maspero, 1968, p.35

[2] Denys Cuche, op.cit., p.33

[3] Madeleine Grawitz, op.cit., p.198

فلتفسير ظاهرة اجتماعية أو ثقافية يجب البحث عن أسباب حدوثها والوظيفة التي تؤديها، من حيث البعد المنفعي (الحاجة) الذي تقدمه كل ظاهرة لاستقرار النظام القائم.

ترتبط "الحاجات الأساسية للفرد وإشباعها باشتقاق حاجات ثقافية جديدة، وأن هذه الحاجات الجديدة لا تتم إلا بإنشاء بيئة جديدة، المتمثلة في الثقافة".[1]

بظهور حاجات جديدة، فإن مجموعة من المعايير ستفرض على سلوكات الأفراد. وإشباع هذه الحاجات الأساسية يتطلب تعاون الأفراد، بمعنى أن "هذه المقاربة الوظيفية تتضمن فكرة التنظيم."[2]

إذن، إشباع حاجات الأفراد يتطلب تعاونهم داخل تنظيم معين يسمى النظام الاجتماعي، الذي يتطلب الاتفاق على نسق من القيم ينظم حياة الأفراد وعلاقاتهم مع بعضهم البعض.

وفكرة وجود توازن دائم يسعى المجتمع كنظام اجتماعي إلى تحقيقه دوما، تحيلنا إلى وجود قوى داخل المجتمع تسعى إلى الاستقرار الدائم للنظام القائم وعدم وجود تغيير.

أما لدى Radcliffe Brown فالوظيفة تستند إلى "فكرة البناء الذي هو لديه مجموعة من العلاقات المنظمة بين الوحدات التي تتكون، وأن عملية الحياة ما هي إلا مجموعة من النشاطات التي تقوم بها هذه الوحدات، والتي في نفس الوقت تكفل عملية استمرار هذا البناء."[3]

يستخدم Radcliffe Brown مفهوم الوظيفة الاجتماعية ليقصد به أنها "وظيفة عملية فيزيولوجية متكررة، هي علاقة بين الأخيرة وحاجات الكائن"[4]، بمعنى الحاجات

---

[1] عماد عبد الغني، **سوسيولوجيا الثقافة**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006 ، ص.90

[2] نفس المرجع السابق

[3] شحاتة صيام، مرجع سبق ذكره، ص.52

[4] Robert K.Merton, op.cit., p.64

الضرورية للحياة والبقاء، بالدور الذي تؤديه في الحياة الاجتماعية، مسهمة في توازن النظام القائم.

وقد بين Radcliffe Brown كيف يسهم كل استخدام اجتماعي في سير الحياة الاجتماعية، حيث يرتبط الأفراد داخل البنى الاجتماعية من خلال علاقات محددة مسبقا.

أما لدى Durkheim، فيستند التحليل الوظيفي إلى مستويين اثنين: أحدهما بنائي وثانيهما وظيفي. يتمثل المستوى الأول في "المظاهر البنائية الستاتيكية الثابتة، أما الناحية الوظيفية فترتبط بالمظاهر الديناميكية التغيرية"[1]، مركزا على تاريخ الظاهرة بدراسة ماضيها لأنه يمكن العثور عن طريقه على مؤشرات تفسر الظاهرة المدروسة.

وكان يرى Durkheim إلى وظيفة الدين أنها تتمثل "في الحفاظ على انسجام الجماعة عبر معايير ومحرمات وطقوس ومرجعية إلى الطوطام الذي هو الرمز المقدس للجماعة."[2]

ولما يدرس Durkheim الدين كظاهرة اجتماعية، فإنه يدرس "علاقته بطبيعة المؤسسات المجتمعية".[3]

ويقسمه إلى قسمين اثنين: المعتقدات والطقوس. تقع المعتقدات في المستوى المجرد، باعتبارها "أفكارا أو تصورات تغير من طبيعة الأشياء المقدسة وغير المقدسة وما بينهما من علاقات".[4]

---

[1] قبارى محمد إسماعيل، **علم الاجتماع والفلسفة، الجزء الثالث: الأخلاق والدين**، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1989، ص.108.

[2] Jean-François Dortier, op.cit., p. 36

[3] أنتوني غدنز، مرجع سبق ذكره، ص.580.

[4] قبارى محمد إسماعيل، مرجع سبق ذكره، ص.111.

أما الطقوس، فتشير إلى الجانب الملموس من الظاهرة الدينية، من حيث إنها مجموع الأفعال وأشكال السلوك الممارسة والتي يتم التجمع حولها عبر ممارسات احتفالية خاصة.

تتمثل وظيفة الشعائر والاحتفالات الدينية في "ربط أفراد الجماعة بعضهم ببعض. ولا يتمثل ذلك في تجمعات العبادة المنتظمة فحسب، بل يتجلى في مراحل الانتقال والأزمات المتنوعة التي تمر بها حياة الأفراد والجماعات مثل الميلاد والزواج والموت".[1]

كما أن الاحتفالات الدينية تكون فرصة "لتوليد أفكار جديدة أو تكريس القيم القائمة"[2]، مما يسهم في ثبات واستمرارية النسق الثقافي بكل عناصره.

وفي الواقع، تعبر أشكال الشعائر والطقوس المختلفة عن وظيفة أساسية في المجتمع، ألا وهي وظيفة التضامن الاجتماعي.

في علم النفس الاجتماعي، يَنتُج التضامن عن "الانجذاب المتبادل، أو عن التكامل بين الأفراد الذين ينتمون لنفس الجماعة، في منظومة من الأهداف والفعل والمعايير وأحيانا للأصل أو الإخلاص لنفس الزعيم."[3]

ويتحول التضامن إلى "رمز بالنسبة إلى الضمير الفردي والجمعي، وبذلك إدماجه في الذاكرة يؤثر ايجابيا على التصرفات"[4].

والحفاظ على البنى الاجتماعية هو الهدف المتوخى من كل نظام اجتماعي؛ فالنظام في بحث مستمر عن ثبات معاييره وقيمه. وتوظف لهذا الغرض كل الإمكانيات والأدوات للقيام بهذه الوظيفة حتى يتحقق التلاحم والتكامل بين مختلف مكوناته، وحتى تتحقق وظيفة التكيف مع بيئته بكل ما تتعرض له من تغيرات، على مستوى النسق الاجتماعي أو الثقافي على حد سواء.

[1] أنتوني غدنز، مرجع سبق ذكره، ص.581

[2] نفس المرجع السابق

[3] Madeleine Grawitz, **Lexique des Sciences Sociales**, op.cit., p.69

[4] Raymond Chappuis, **La solidarité**, France, PUF, 1999, p.56

هنالك مسلمات يرتكز عليها التحليل الوظيفي والمتمثلة في ثلاث: العناصر الثقافية والنشاطات الاجتماعية الموحدة، وهي وظيفية للنسقين الاجتماعي والثقافي بكل عناصرهما. وفي الأخير، هذه العناصر هي أساسية، حيث لا يمكن الاستغناء عن أي واحد منها.

بالنسبة إلى المسلمة الأولى يمكن التأكد من الوحدة الوظيفية إمبريقيا، بحيث تكون "درجة الاندماج متغيرا إمبريقيا يتغير مع الوقت في نفس المجتمع، والتي تكون متغيرة حسب المجتمعات".[1]

نحن نعلم بأن كل مجتمع تختلف درجة اندماج أعضائه بشكل ملحوظ. ويتعقد الأمر لما "تتواجد عدة ديانات في نفس المجتمع، فتظهر نزاعات عميقة بين مختلف الجماعات التي تعتنقها"[2]، مما يشكك في المسلمة التي تعتقد في الوحدة الوظيفية لكل المجتمعات.

أما المسلمة الثانية فتستند إلى القول بأن العناصر الثقافية والاجتماعية تؤدي وظائف إيجابية من حيث استجابتها لحاجة التكيف، إذ من وجهة نظر أنتروبولوجية (وليس سوسيولوجية *) تؤدي المخلفات الاجتماعية (social residues) -كشكل من الأشكال الثقافية القائمة والمستمرة- "وظائف حيوية (...باعتبار هذه المسلمة) مشكلا للدراسة وليس خاتمة بحث ما."[3]

من هذا المنظور، تؤدي المخلفات الاجتماعية دورا إيجابيا في المجتمع سواء للجماعة أو للمجتمع برمته، وسواء أقبلت برضا أو بشكل قهري.

ونصل الآن إلى المسلمة الثالثة التي مفادها أن العناصر الثقافية والاجتماعية (العادات والأفكار والمعتقدات، إلخ....) هي أساسية.

---

[1] Robert K.Merton, op.cit., p.70

[2] Ibid., p.73

* إذ لا يهتم عالم الاجتماع إلا بدراسة المجتمعات التي تعرف الكتابة.

[3] Ibid., p.77

فمسلمة الضرورة (necessity) تفترض من جهة أن "بعض الوظائف ضرورية"[1]، بمعنى أن اختفاءها يؤدي إلى الاختلال بالنظام العام للمجتمع وبالتالي يؤدي إلى اختفائه. ومن جهة أخرى، تفترض أن "بعض الأشكال الاجتماعية والثقافية هي ضرورية لتأدية كل وظيفة منها"[2]. غير أن الملاحظ أن هذه المسلمة تثير الكثير من النقاش، إذ يمكن لعنصر واحد أن يؤدي عدة وظائف، وأكثر من ذلك يمكن "أن تؤدى الوظيفة الواحدة عن طريق عدة عناصر قابلة للتبادل فيما بينها".[3]

عند القيام بتحليل وظيفي لعنصر ثقافي كالمراسم الجنائزية، على الباحث أن يحدد ما الذي يود ملاحظته -باعتبار الملاحظة التقنية المفضلة بامتياز في الحقل الأنتروبولوجي- حتى يقوم بتأويله في مرحلة لاحقة.

لذلك، عليه أن يحدد كل الطقوس المرافقة للظاهرة التي يود بداية وصفها، ما الذي يقال والأفعال التي ترافق هذه المراسم. كما عليه أن يصف بشكل دقيق المشاركين في هذه الظاهرة، بدون أن ينسى الجمهور، بمعنى أولئك أيضا الذي أتوا فقط للمشاهدة. أضف إلى ذلك، كيفية تصرف الحضور (من مشاركين وجمهور) وكيفية تفاعلهم مع المراحل المختلفة التي تمر بها المراسم.

وبالتالي، هنالك مفاهيم سيجد الباحث نفسه مضطرا لتوظيفها في تحليله، كمفهوم الدور والمكانة والعلاقات المتبادلة. ولن يتأتى ذلك إلا بملاحظة الانتظامات في سلوك الملاحَظين، والذي لن يتأتى بدوره إلا بالتواجد المستمر للأنتروبولوجي مع الجماعة محل الدراسة.

ولعل **الملاحظة بالمشاركة** هي أقدم أشكال الملاحظة التي تمت ممارستها في العلوم الإنسانية، خصوصا مع رحلات المستكشفين والأنتروبولوجيين.

---

[1] Ibid., p.78

[2] Ibid., p.79

[3] Ibid.

يتطلب هذا النوع من البحوث تواجد الباحث في البيئة التي يود ملاحظتها لمدة زمنية ليست بالقصيرة بتعايشه مع المجموعة الاجتماعية محل الدراسة، متعلما لغتها، مشاركا إياها في حياتها الاجتماعية والثقافية مع ما تسيره من نظام رمزي خاص، وهذا ما فعله على سبيل الاستدلال كل من Franz Boas أو Margaret Mead أوBronislaw Malinowski. ودارت ملاحظاتهم أساسا حول مسائل متعلقة "بالدين، السحر أو القرابة"[1]، لاكتشاف ما تخبؤه هذه الظواهر من رموز وأسرار.

مجال البحوث الإتنوغرافية (التي تستخدم الملاحظة كتقنية مميزة في بحوثها) "يتطلب تواجدا طويلا في المكان، بناء علاقات جوار وثقة مع بعض المبحوثين والاستماع المتمعن، وعمل يتطلب الصبر لأشهر ولسنوات."[2]

لذلك، يظهر التحليل الوظيفي كمقاربة مؤسساتية، بمعنى أنها "تأخذ بعين الاعتبار وقبل أي شيء المؤسسات بما تؤديه من وظائف اجتماعية، حيث يتكون الاجتماعي من مؤسسات تؤدي وظائف اجتماعية".[3]

يقع على عاتق المؤسسات مهمة القيام بوظائف معينة، مما يؤدي إلى عمل النظام برمته وبقائه في حالة توازن.

لا تؤدي المؤسسة سوى **الوظائف الظاهرة** (manifest)، تلك المرجوة والمنتظرة فحسب، بل أيضا تلك **الوظائف الكامنة** (latent)، التي هي تلك غير المنتظرة والمختلفة عن الهدف الرسمي المتوخى، والتي هي نتاج الوظائف الظاهرة والتي لم تكن متوقعة؛ وهي الأكثر أهمية في النسق الاجتماعي. فلا يمكن تفسير وجود النسق الاجتماعي وديمومته بالوظائف الظاهرة فحسب.

فقد ارتبط التراث الوظيفي بمفهومين أساسيين اثنين حتى يحد من الغموض الذي يحيط بمفهومي: التحفيزات الواعية لتصرف اجتماعي ما ونتائجه الموضوعية، ألا

[1] Henri Peretz, **Les méthodes en sociologie**, Paris, Editions La Découverte, 1998, p.9

[2] Stéphane Beaud, Florence Weber, op.cit., p.06

[3] Mostefa Boutefnouchet, **Introduction à la sociologie**, op.cit., p.194

وهما: الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة، علما بأن ملاحظين كثر قد وظفوا في ملاحظاتهم هذين المفهومين الاثنين، موضحين الفرق الكامن بين النوايا (intentions) والنتائج الوظيفية للسلوكات مثل Mead وDurkheim وThomas وZnaniecki.

وقد ميز Merton بين الوظيفتين الاثنتين لتظهر الوظيفة الظاهرة على أنها تلك المرجوة والمعلن عنها، من خلال بعض المراسم المؤداة والأهداف المرجوة. أما الوظيفة الكامنة فتظهر على أنها تلك الوظيفة غير المنتظرة وغير المرجوة، كتعزيز الشعور بالانتماء أو التلاحم الاجتماعي المنجر عن المراسم الخاصة ببعض المناسبات في المجتمعات المحلية مما يؤدي إلى وحدة الجماعة، والتي يترتب عنها مساندة أعضاء الجماعة الاجتماعية لأولئك الذين يمرون بسراء أو ضراء.

فكم من سلوكات تبدو للوهلة الأولى غير عقلانية تؤدي وظيفة إيجابية داخل الجماعة الاجتماعية!

والتمييز بين الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة يوجه في الواقع "عالم الاجتماع إلى ميادين معينة من السلوكات والتوجهات والاعتقادات"[1]، لأنه لا جدوى من التأكد فحسب إن كانت الأهداف المرجوة من ممارسة ثقافية أو اجتماعية قد حققت أهدافها.

فالاهتمام بالوظائف الكامنة لسلوك أو ممارسة ما (داخل ثقافة أو مؤسسة ما) يمكن الباحث من تعميق مجال بحثه، حيث ستبرز الوظائف الكامنة بمعنى تلك المخفية التي لا تبرز للوهلة الأولى بدون أن يتجاهل بالتأكيد تلك الظاهرة.

فإذا كان الباحث يبحث عن طبيعة العلاقات السلطوية داخل مؤسسة ما بعد إدراج تكنولوجيا جديدة، عليه بداية عرض الوظائف الظاهرة التي انجر عنها إدراج تلك التكنولوجيا، كما يتعين عليه تحديد تلك الكامنة من خلال مثلا إبراز دور الجماعات غير الرسمية في تلك المؤسسة ودورها في الاتصال وحل الأزمات، وإبراز دور العلاقات الشخصية في وحدة وتلاحم الجماعة (سواء أكانت داخل قبيلة أو داخل مؤسسة

[1] Robert K.Merton, op.cit., p.113

اجتماعية أو تنظيم صناعي ما). وتحديد هذه الوظائف سيكون له تأثير في توسع حقل المعرفة العلمية أكثر مما يفعله اكتشاف الوظائف الظاهرة.

وإبراز الوظائف الكامنة يبرز جليا تعقد الحياة الاجتماعية على اختلاف بناها ومؤسساتها وعدم قدرة الباحث -مهما كانت فطنته ونباهته- على إدراكها من الوهلة الأولى؛ هي وظائف نتاج النظام القائم وهي غير متوقعة.

استنادا إلى تحليلات Merton، لا تكون كل الوظائف الاجتماعية نشيطة في النسق الاجتماعي؛ بعضها تكون نشيطة وبارزة وبعضها الآخر يكون كامنا، حيث "ستتعارض الوظائف الكامنة مع الوظائف الظاهرة، محدثة بذلك ظاهرة "الاختلال الوظيفي""[1].

يتمثل هذا **الاختلال الوظيفي** (dysfunction) في فضاءات للصراع والنزاعات داخل النسق الاجتماعي.

وقد قام Merton بقراءة جديدة للوظيفية عبر نقد كل من Malinowski وRadcliffe Brown، بناء على مسلمات المقاربة الأنتروبولوجية: "الوحدة والشمولية والضرورة الوظيفية."[2]

تقر المسلمة الأولى بوحدة المجتمع وباتساقه. بيد أننا نعلم بأنه لا تمثل كل المجتمعات كلا متجانسا، إذ تشمل الأخيرة جماعات اجتماعية مختلفة العرقيات وذات انتماءات عقائدية متباينة.

أما المسلمة الثانية فهي تقر بأن "في مجتمع معين، لكل الاستخدامات الاجتماعية وظيفة معينة".[3]

إلا أن Merton لا يقر بهذه المسلمة، حيث يرى بأن بعض الاستخدامات الاجتماعية لا تؤدي أي وظيفة اجتماعية معينة.

---

[1] Mostefa Boutefnouchet, **Introduction à la sociologie**, op.cit.

[2] Françoise Bloess, Jean-Pierre Noreck, Jean-Pierre Roux, **Dictionnaire de sociologie**, Paris, Hatier, 1997

[3] Ibid.

وفي الأخير، وبنقده لمسلمة الضرورة الوظيفية للنشاطات الاجتماعية التي ترتكز على أساس أن لكل نشاط اجتماعي وظيفة ما، تضمن توازن المجتمع وأن اختفاء إحداها يؤدي إلى عدم توازنه، فإن Merton يرى بأنه يمكن أن تؤدى وظيفة ما من خلال نشاطات منظمة ومتعددة، وبالتالي فالنظام القائم ليس مهددا بزوال أحد الأنشطة.

وقد انبثق عن الوظيفية نظرية أخرى ألا وهي **البنيوية-الوظيفية.** ظهرت الأخيرة في سياق علمي خاص، حيث كانت الدراسات الإمبريقية بالولايات المتحدة الأمريكية هي المهيمنة على الحقل السوسيولوجي: دراسات حول المدينة قامت بها مدرسة شيكاغو ومونوغرافيا الأزواج من طرف Lind وأبحاث الاتصال الجماهيري بقيادة Lazarsfeld.

فجاء Talcott Parsons ليقوم ببحوث ضد هذا التيار الإمبريقي، مقترحا نظرية لتفسير البناء الاجتماعي والذي يستند إلى افتراض وجود توازن دائم لِبِنَى هذا البناء، من خلال دراسة وظائفه المختلفة التي تكون متكاملة، مقاوما فكرة وجود علم مستند إلى بعض الأرقام والقياسات الكمية.

أرسى Parsons المبادئ النظرية للبنائية-الوظيفية عام 1937 لما أصدر كتابه: **The Structure of Social Action**، كمحاولة منه لجعل حد للامتداد الإمبريقي في حقل علم الاجتماع الأمريكي. وقد انطلق من فكرة أن "الكل الاجتماعي متكون من عناصر مترابطة".[1]

ولد Parsons "بكلورادو سبرينغ (...ثم) سافر إلى أوربا لدراسة البيولوجيا والفلسفة واكتشف هناك العلوم الاجتماعية بلندن."[2]

ومن المعروف أنه قد تأثر بأعمال كل من Malinowski وWeber وDurkheim وPareto. وقد استلهم من أعمال هؤلاء المفكرين بعض الأسئلة التي وجهت تفكيره: "في

---

[1] Michel Lallement, **Fonctionnalisme**, linga log.net/dokuwiki/_media/lyon2/ic/i3.../fonctionnalisme_michel_lallement.pdf, consulted on September11th, 2018

[2] عبد العالي دبلة، **مدخل إلى التحليل السوسيولوجي**، الجزائر، دار الخلدونية، 2011، ص.11

أي شروط يكون المجتمع ممكنا؟ ما هي أسس الفعل الاجتماعي؟ كيف يمكن الجمع بين الفعل الفردي والنظام الاجتماعي؟"[1]

كما أنه عارض منظري العقد الاجتماعي، إذ كان يرى أن الذي يحدد أفعال الأفراد ويحركهم هي القيم والمعايير.

استهدف Rousseau من خلال دراساته الوصول إلى طريق وسط بين الحريات الفردية وما تفرضه الحياة الاجتماعية. أما Hobbes، فكان يتصور بأنه ليحل السلم والأمان، على الأفراد التنازل عن كل حقوقهم لصالح "الليفياطون" (Leviathan) ذلك الوحش المتسلط، والذي هو كناية عن دور الدولة في الحفاظ على مصالح الأفراد. وحالة الطبيعة لديه (التي تسبق العقد) هي الحالة التي يكون فيها الأفراد في حرب مستمرة مع بعضهم البعض.

وفي الأخير، يتصور Locke أن "العقد الذي يربط الأفراد يحمي حقوقهم، لا سيما حق الملكية".[2] فالأفراد يتنازلون هنا عن جزء من حقوقهم من أجل أن يعم السلم والأمان.

ويربط Parsons الثقافة **بالفعل الاجتماعي**(social action) باعتبارها "عنصرا ضروريا للفعل اجتماعي بما أنها تضمن الفهم، وبذلك التفاعل بين الأفراد".[3]

فهي كل معقد "تشمل المعايير، المعتقدات والقيم المشتركة"[4]، موضحا بذلك أنها تضم العناصر المكونة لعدة أنساق: نسق القيم ونسق المعتقدات وكل الرموز التي تحملها، وكل ذلك بغية تحقيق هدف واحد ألا وهو الإدماج، كيف لا وهو الذي أسس

---

[1] نفس المرجع السابق، ص.12

[2] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.68

[3] Bertrand Badie, **Culture et politique**, Paris, Economica, 3eme édition, 1993, p.35

[4] Ibid.

البنيوية-الوظيفية معتبرا المجتمع "ككل مدمج للعناصر، يؤدي وظيفة التماسك مما يمكن من ضمان استقرار نسبي للبنية الاجتماعية".[1]

يؤكد هذا النموذج التفسيري على ضرورة وجود توازن في بنيات المجتمع وضرورة تفادي الاختلالات. أما الفعل الاجتماعي، فيعني بكل بساطة تصرفات الأفراد الذين تجمعهم الممارسة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية.

من هذا المنطلق، يمكن أن يكون بين الأفراد على اختلافهم انسجام وتوافق، لأنهم يتصرفون على أساس معايير وقيم يشتركون فيها والتي ستوجه أفعالهم (أي سلوكاتهم) حتى لا يقع أي اختلال في النظام العام.

وبالرغم من تأثره ب Malinowski، بيد أنه لا ينطلق من الجزء ليصل إلى الكل، خلافا لذلك فهو "يتبنى منهجا معاكسا الذي ينطلق من الكل، حيث (سيمكن هذا الأمر) من إدراك أي قوة تفيد ديناميكية النسق".[2]

والنسق الاجتماعي حتى يبقي على حالة الاستقرار في المجتمع، لن يتأتى له ذلك إلا بكون قدرته على تحقيق وظائف أساسية. ولكن، فيم تكمن هذه الوظائف؟

تكمن فيما يلي:

"1- وظيفة التكيف: لا بد أن يتكيف كل نسق مع بيئته

2- وظيفة تحقيق الهدف: لا بد من أدوات يحرك بها مصادره ليحقق أهدافه

3- وظيفة الاندماج والتكامل: عليه أن يحافظ على التلاؤم بين مكوناته

4- وظيفة ثبات المعايير: تؤكد على قيم المجتمع وتضمن أنها معروفة من قبل الأعضاء، وأن هنالك حافز لهؤلاء كي يقبلوا هذه القيم."[3]

---

[1]Gilles Ferréol, **Dictionnaire de Sociologie**, Paris, Armand Colin, 1995, p.15

[2] Michel Lallement, **Fonctionnalisme**, op.cit.

[3] غي روشيه، **مقدمة إلى علم الاجتماع العام**، الجزء الثاني :**التنظيم الاجتماعي**، ترجمة دندشلي، بيروت، مكتبة الفقيه، 2002، في:
عماد عبد الغني، مرجع سبق ذكره، ص.95

فالتكيف (adaptation) "لا يعني فقط المطابقة (adjustment) مع ظروف معينة، بل يتمثل كذلك في الجهد الذي يتطلبه المرور إلى الحالة الأكثر إرضاء، أكثر إنتاجا، أو في الحالة التي تتلاءم بشكل أحسن مع الطاقات الموجودة. وبذلك فهو ليس فقط سلبي، بل هو شكل من أشكال الإنتاجية والتجديد".[1]

في هذه الحالة، على النسق أن "يجد الموارد في محيطه حتى يتمكن من البقاء"[2]، وهذا ما يتوافق مع النسق الفرعي الاقتصادي.

أما فيما يخص تحقيق الأهداف (achievement of goals)، فعلى النسق أن يوفر الوسائل الضرورية لتحقيق أهدافه بغية إشباع حاجاته، متطابقا مع النسق الفرعي السياسي.

ثم يحدد Parsons وظيفة الاندماج (integration) والتكامل، فيبين كيف أن أجزاء النسق تنسق عملها حتى يبقى على حالة التوازن التي هو عليها. فالمجتمع يسعى إلى التوازن دائما من خلال النسق الفرعي الاجتماعي.

وفي الأخير، يحدد وظيفة ثبات المعايير كوظيفة أساسية يقوم بها النسق الفرعي الثقافي. فالقيم متعارف عليها في المجتمع، وهنالك إجماع عليها حتى يحافظ على توازن البنى فيه، إذ تعتبر عنصرا مهما للوحدة الاجتماعية، توجه تصرفات الأفراد لتحدد أهدافهم من خلال أنساق فرعية.

وهكذا، يوضح Parsons العلاقة الترابطية الضرورية بين الأنساق المختلفة داخل المجتمع الواحد.

فهو ينظر إلى المجتمع أنه متكون من مجموعة من النظم التي تتفاعل بينها، وهي دائمة السعي عن الاستقرار، مما يجعل الأفراد داخل النظام الاجتماعي خاضعين لآليات الضبط الاجتماعي، حتى تضمن وظيفة استقرار النظم القائمة.

---

[1] Guy Rocher, **Introduction à la sociologie générale**, Tome 2 : **L'organisation sociale**, France, Editions MHH, 1968, p.73

[2] Michele Lallement, **Histoire des idées sociologiques**, Paris, Editions Nathan, 1993, p.95

ما يجب الإشارة إليه بعد عرض افتراضات كل من الوظيفية والبنيوية-الوظيفية، هو أنهما كثر ما اتهمتا باتجاههما المحافظ من خلال محافظتهما على مبدأ التوازن الضروري للنسق الاجتماعي، والمدافعة على النظام القائم بكل مؤسساته التي تعتبر من وجهة هذين التحليلين "ضرورية".

ويرى النقاد أن الوظيفيين يغالون في "التشديد على العوامل المؤدية إلى التماسك الاجتماعي على حساب العوامل الأخرى التي تفضي إلى التجزئة والصراع"[1].

فالتأكيد على عامل الاستقرار الذي يرى فيه الوظيفيون الحالة الاعتيادية للمجتمع والبنى الموجودة فيه، يتغافل عن الصراعات والنزاعات والتقسيمات التي تعيشها المجتمعات، والتي تمثل في فترة من فترات تطوره عاملا في تغيير النظام السائد، حيث تمثل المصالح وفي بعض الأحيان القيم عوامل أساسية للتغير الاجتماعي، ولنا في تاريخ البشرية شواهد متعددة تبرز بشكل جلي أن استقرار النظام واستمراريته ليس أمرا حتميا.

كانت الوظيفية نموذجا تفسيريا مهيمنا على الحقل السوسيولوجي الأمريكي لمدة لا يستهان بها. غير أنها انتقدت لمغالاتها في منح المكانة التي كان يعتقد أنها أبدية للاتساق والنظام الاجتماعي، على أنقاض التغيرات الاجتماعية التي لا مفر منها.

فالمجتمعات ليست ثابتة وليست في حالة استقرار أبدي؛ فهي تمر باضطرابات وصراعات متفاوتة في الشدة، ولا تبقى على حالها إلى الأبد.

وعرض نماذج عن بعض النظريات في علم الاجتماع، يبين مدى تفرع زوايا البحث في هذا الحقل العلمي.

3) واقع التنظير في علم الاجتماع:

لعبت النظريات الكبرى والمتوسطة في حقل العلوم الإنسانية دورا مهما في التقدم العلمي، كل واحدة اهتمت بمجال معين.

[1] أنتوني غدنز، مرجع سبق ذكره، ص.ص 74-75

وحتى وإن أثبتت بعض النظريات الكبرى عدم ملاءمتها للظـواهر الجديـدة التـي تعيشها المجتمعات الحديثة، بيد أنها استطاعت في الكثير من الأحيان أن تكـون إطـارا تفسيريا مهما لتفسير الظواهر.

وتنصب النظريات حاليا على مجالات محددة وخاصة، معتمدة بشكل أساسي على افتراضات النظريات الكبرى. والنظرية الجيدة هي تلك القادرة على منح دلالة ومعنى للظواهر الملاحظة، عبر قدرتها التفسيرية لها.

كانت النظريات الكبرى تطرح أسئلة وتجيب عنها (شأنها شأن كل النظريات). غير أنها كانت تطرح "مشكل ما ستصبح عليه الإنسانية"[1]. يتطلب هذا الأمر تفسيرا شاملا للتغيرات التـي تعيـشها المجتمعـات. بيـد أن كـل مجتمـع (أو مجموعـة معينـة مـن المجتمعات) يعيش نمط حياة ووتيرة إنتاج معينة، كما أنـه يعـيش تغـيرات اجتماعيـة خاصة به إثر عوامل خارجية أو داخلية أو كنتـاج لهـذه العوامـل مجتمعـة. وبالتـالي، فكل واحد منها يعيش ظواهر خاصة به، تتطلب تفسيرات خاصة استنادا إلى الـسياق الذي تحدث فيه.

لذلك، بات مـن المؤكـد في الوقـت الـراهن أنـه لفهـم الواقـع، أضـحت النظريـات تنصب على إدراك جزء من الواقع و"بدون أن تكون هنالك علاقة بينها."[2]

فنحن بعيدون كـل البعـد عـن إمكانيـة صـياغة نظريـة عامـة شـاملة تخـص كـل المجتمعات والظواهر التي تعيشها بشكل مستمر.

وقد انطلق رواد علـم الاجـتماع الأوائـل (Comte وMarx وDurkheim وWeber) من منطلقات نظرية أسسوا لها وكانت الموجـه لتحـاليلهم، تـدور حـول أسـئلة مفتاحيـة (حالها حال كل العلوم المستقلة بـذاتها). فقـد بـين كـل مـن Durkheim وMarx تـأثير العوامل الخارجية في الأفراد، في حين ركز Weber على القدرة الكامنة لدى الأفراد للتـأثير في محيطهم الخارجي، حيث استند كل واحد منهم إلى زوايا نظرية مختلفة.

---

[1] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.417

[2] Ibid.

وقد عرفت النظريات السوسيولوجية إلى يومنا هذا عدة تطورات، تماشيا مع السياق السوسيو-تاريخي الذي ظهرت فيه، وأيضا مع تطور البحث في هذا المجال، سعيا إلى دراسة العالم الاجتماعي ومنح تصور تفسيري لطبيعة التغير الاجتماعي. فقد عرفت العلوم الإنسانية عموما تطورا ملحوظا ابتداء من الحرب العالمية الأولى، مركزة أساسا على البناء الاجتماعي وعلى النظام.

ولما نرجع إلى تاريخ علم الاجتماع، فإننا ندرك بأنه ظهر وتطور إثر الأحداث الكبرى من تاريخ البشرية في القرنين التاسع عشر والعشرين، كالثورة الصناعية وزيادة تقسيم العمل والحربين العالميتين الاثنتين، وبالتالي فقد أثر ذلك في مواضيعه وتساؤلاته وإشكالياته.

وتحولت النظريات في حقل العلوم الإنسانية من أهداف تعميمية لبناءات نظرية، عبر تحليلات تهدف أن تكون شاملة والتي تتغافل عن الواقع كما هو بتفاصيله وخصوصيته من خلال خصوصية السياقات التاريخية، إلى التحليل الجزئي الذي لا يقدر على إدراك الكلي.

وعلم الاجتماع تحديدا لا ينتمي إلى العلوم الدقيقة، ولا تنتمي نظرياته ومناهجه وتقنياته ولغته إليها. ولا يعني ذلك أنه ليست بعلم ولا يمكن له أن يخضع لمبادئه وأسسه الإبستمولوجية؛ يعني ذلك فقط أنه يوجد نمط إدراك الواقع الاجتماعي خاص به ومختلف عن نمط إدراك الواقع الطبيعي. فهو يدرك كعلم "نظري-إمبريقي"[1]، بمعنى كعلم يرتكز على أسس معرفية، تستقى من الواقع الذي تمت ملاحظته باستخدام تقنية أو تقنيات، انطلاقا من مفاهيم أساسية.

[1] Philippe Corcuff, **Les nouvelles sociologies**, Paris, Armand Colin, 2007, p.108

ولا يمكن للنظريات السوسيولوجية أن تكون تراكمية، إذ يرى Passeron أن علم الاجتماع يموضع مفاهيمه ضمن "حقائق في سياق تاريخي"[1]، وبالتالي لكل نظرية خصوصية مرتبطة بالسياق السوسيو-تاريخي الذي ظهرت فيه والمواضيع التي عالجتها في فترة من فترات تطور المجتمع.

فالنظريات التي صيغت لا يمكن فهمها إلا بإرجاعها إلى السياق الاجتماعي الذي ظهرت فيه، بإعادة وضعها في الفترة الزمنية التي ظهرت فيها.

وتاريخ النظريات السوسيولوجية يبين نقطة في غاية الأهمية والمتمثلة في أن الفكر النظري السوسيولوجي كان موجها نحو مسائل معينة وفي كل مرة يتوجه نحو أخرى، بدون أن ينفي ذلك ما توصلت إليه المعرفة العلمية في هذا الحقل العلمي، فيتجه تفكيرنا في كل مرة نحو وجهة نظر مختلفة عن سابقاتها، عبر نسق مفاهيمي وتبريري خاص، من خلال مجموعة من التساؤلات الجديدة التي تقعد لنظرية أو لمقاربة جديدة.

ومن بين العوامل التي أدت إلى ما آل إليه التنظير في علم الاجتماع من خلال البحث المستمر عن تخصصه كعلم قائم بذاته وعبر مواضيعه ومناهجه والمشاكل التي يعالجها، بل وحتى في العلوم الإنسانية الأخرى، هو عدم منح أهمية للاستدلال الفلسفي، هذا الأخير هو الذي يمكن من استعارة مفاهيم وتصورات الفلسفة وأساليبها لإدراك وتأويل الواقع الاجتماعي.

إبستمولوجيا، كان من الضروري انفصال العلوم المختلفة (بما فيها علم الاجتماع) عن الفلسفة. بيد أنه لا يجب أن نتغافل أو ننسى ما تمده الفلسفة للباحث من أدوات للتحليل والتركيب والقدرة على النقد، عبر "التجديد المستمر لوضع إطارها المفاهيمي ووضع الأفكار المسبقة على مسافة نقدية".[2]

[1] Ibid., p.113

[2] Philippe Corcuff, op.cit., p.116

كان لذلك تأثير في مجرى البحث في علم الاجتماع الذي انزاح إلى البحوث الميدانية وانبهر بنتائجها بدون الارتكاز على تساؤلات نظرية توجهه، مما أضعف عملية التحليل والتأويل التي لم تعد تستند عند الكثيرين إلى مرجعيات نظرية تحدد إطارها وحدودها.

كما بدا الخوف من الدراسات الاستكشافية التي يكون فيها الميدان خصبا ولا يجد إطارا نظريا ملائما، بفعل التغيرات التي تعيشها المجتمعات الحديثة والتي تفرز في كل مرة ظواهر جديدة جديرة بالتقصي في الميدان.

أضف إلى ذلك، أن تعدد وحتى تشتت البحوث في علم الاجتماع (باسم المهنية في علم الاجتماع) التي لا تستند إلى التحليل الفلسفي، تضعف بدورها ذلك البعد الشمولي للبحث. كما أن الكثير منها بالرغم من طابعها الخصوصي والجزئي قد تجد "موارد سياقية ومنظورات في الخرائطية (carthography) الشاملة"[1]، كسند نظري مهم يمد الباحث بمرجعية نظرية معينة.

من جهة أخرى، نجد بعض الباحثين في علم الاجتماع يتقوقعون في الجامعة وفي عملهم الأكاديمي، مبتعدين في ذات الوقت بدون أن يعووا عن الواقع الاجتماعي بكل الإشكاليات التي يطرحها.

كل هذه العوامل مجتمعة "تضعف من إمكانيات انتشار الخيال السوسيولوجي"[2] (sociological imagination).

أولى Charles Right Mills اهتماما خاصا لمفهوم **الخيال السوسيولوجي**، حيث ربط من خلاله "التاريخ والسيرة الذاتية والعلاقات الموجودة داخل المجتمع"[3]، إذ سيجد طرقا جديدة لفهم الواقع ولطرح تساؤلاته متفتحا على تخصصات أخرى ينهل منها طرق التفكير فيها وفي مناهجها، مستندا إلى ما يحدث في الواقع المعيش من أحداث مختلفة.

[1] Ibid., p.118

[2] Philippe Corcuff, op.cit., p.122

[3] C.W. MILLS, **L'imagination sociologique**, Paris, La Découverte, 2015, p.7

ونحن نعلم أن علم الاجتماع برز بأوربا ثم تطور في الولايات المتحدة الأمريكية. كما أننا نعلم جيدا أن البحوث في الأخيرة لم تكن لتتطور لو لا وجود جامعات ومراكز بحث ومؤسسات تمولها. كما أننا نعلم من الناحية الإبستمولوجية أن البحث العلمي يتطور من خلال الأسئلة المطروحة، أسئلة جيدة تفيد تقدمه. وبالتالي، يجب ربط تطور العلوم بشقيها: النظري والإمبريقي في سياقها التاريخي الذي ظهرت فيه، بتحديد العوامل العلمية و"غير العلمية"(الإيديولوجية)* التي أدت إلى هذا التطور.

وقد تطور علم الاجتماع من خلال تيارين اثنين: التفكير التنظيري والبحث الإمبريقي، إما بغلبة أحدهما، أو باستخدام كليهما في الدراسة الواحدة. وقد نشأ البحث الميداني إثر ما عايشه العمال من ظروف عمل إثر الثورة الصناعية. فقد تأثر علماء الاجتماع بالأنتروبولوجيين حيث ظهرت الحاجة إلى النزول في الميدان وتجميع المادة الأولية منه، باستخدامهم التقنيتين المستخدمتين في الأنتروبولوجيا ألا وهما الملاحظة والمقابلة حيث تم تطويرهما بشكل تدريجي. وتطور البحث الميداني** شيئا فشيئا، ووظفت التقنيات المستخدمة في العلوم الإنسانية حيث أضحت أكثر صرامة.

ومع مدرسة شيكاغو، أصبحت المقابلة التقنية الضرورية من خلال مقاربة إتنوغرافية للميدان.

ولن يتمكن الباحث من الفهم السوسيولوجي للظاهرة المدروسة إلا عن طريق التصور الإثنو-سوسيولوجي الذي يصبو إلى دراسة جزء من الواقع ببعديه: الاجتماعي والتاريخي الذي يجد جذوره في الدراسات التي قامت بها مدرسة شيكاغو "بالتأثير المزدوج للأنتروبولوجيا وللتحقيقات الاجتماعية"[1]، بمنح مكانة خاصة **للعمل**

---

* تطرقت إلى هذه المسألة في الفصل الرابع من هذا الكتاب، كما أنني سأقوم بعرضها في الفصل الموالي.

** يسميه الإنجليز: Field studies

[1] Georges Lapassade, **L'ethno-sociologie**, Paris, Méridiens Klincksieck, 1991, p.p 16-17

الميداني (fieldwork)، حيث سيُحدَّد علم اجتماع مدرسة شيكاغو "كأنتروبولوجيا المجتمعات الحديثة وسيُعتبر الحي كمماثل لقرية أجنبية أو محضورة للهنود الحمر".[1]

ومن بين أشهر الدراسات التي قامت بها مدرسة شيكاغو تلك الخاصة "بالمزارع البولوني" التي نُشرت سنة 1918 من طرف: Thomas وZnaniecki حيث "يضم مؤلفهما أكثر من 2000 صفحة موزعة على خمسة مجلدات والتي يضم تقريبا نصفها "وثائق خاصة" وبشكل خاص عبارة عن سير حياة."[2]

ومصدر هذا التوجه هو عثور Thomas عن طريق الصدفة وهو يقوم بدراسة ميدانية للجالية البولونية، على رسائل موجهة من طرف بولونية مهاجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية إلى والدها الذي بقي ببولونيا.

وهكذا، طلب من الجالية البولونية أن ترسل إليه الرسائل التي يتبادلها أفرادها مع أهلهم في بولونيا. وأشهر مثال على سير الحياة هو لما "طلب من مهاجر بولوني يدعى Wladeck بكتابة تاريخ حياته بنفسه".[3]

ولعل Park Robert Ezraهو من أقدم ممثلي مدرسة شيكاغو، الذي كان في البداية صحفيا قام بعدة تحقيقات حول المدينة. وفي عام "1921 وضع Park وزميله Burgess فرعا معرفيا جديدا أسماه "البيئة الإنسانية" (human ecology)"[4]، محاولان تطبيق ما توصل إليه في مجال البيئة الخاصة بالحيوان والنبات على دراسة البيئة الإنسانية، حيث يحدد بارك المدينة كوحدة جغرافية وبيئية واقتصادية واجتماعية مما يولد نظاما متجانسا وخاصا داخل كل بيئة والمقصود بها داخل كل مدينة.

---

[1] Georges Lapassade, op.cit., p.12

[2] Ibid., p.52

[3] Thomas Gay, op.cit., p.30

[4] أرماند ماتيلار وميشيليه ماتيلار، **نظريات الاتصال**، ترجمة: أديب خضور، سوريا، المكتبة الإعلامية، الطبعة الثانية، 2008، ص.31.

وإدراك الواقع الاجتماعي لن يتأتى إلا عبر"العثور على العلاقة الموجودة بين العناصر المختلفة التي تشكل المجتمع (الأفراد) والجميع (المجتمع)".[1]

ويرى Park أن التفاعلات بين أعضاء المجتمع هي "استجابة لنظرة إيكولوجية خاصة: ديناميكية الكل (المجتمع العضوي) الذي هو جوهريا في صراع طبيعي سببه البشر، وهذا بفعل تفاعلات أفراد المدينة".[2]

ويرى Park في ظاهرة الهجرة "مثالا نموذجيا لشرح الطبيعة المتناقضة للمجتمع الذي يخلق ثقافة جديدة".[3]

وركز البحث في علم الاجتماع أكثر فأكثر على البحث الإمبريقي، متغافلا عن البحوث النظرية.

فلفهم ظاهرة ما، لا يمكن الاستغناء عن الإطار التنظيري كأساس لا مفر منه لأي بحث علمي جاد، تمكن الباحث من وضع قطيعة مع التفسيرات غير العلمية، وهي بذلك أساس أي علم كان.

فالتطور العلمي لا يمكن أن يحدث إلا من خلال **قفزات** (leaps)، بقطيعة إبستمولوجية مع ما سبق من اكتشافات وحقائق علمية، معيدا النظر في الكثير من النظريات التي تجد أساسها في نسق مفاهيمي خاص، بحيث لكي يكون هنالك تطور علمي حسبBachelard ، يجب إعادة تفكيك الظاهرة التي تبدو بسيطة للوهلة الأولى إلى عناصرها المترابطة، بالبحث عن العنصر المحدد فيها، بتأنّ، بالابتعاد عن أضداد الأفكار، أي الأفكار المسبقة والبديهيات الخاطئة.

وابتداء من ستينات القرن الماضي، تحول الاهتمام في علم الاجتماع إلى دراسة الحياة اليومية وتعقدها.

---

[1] Fernando Huamán Flores, **La comunicación interpersonal como instrumento en la teoría sociológica de Robert Park**, Revista de Comunicación 10, 2011, p.p 51-70

[2] Ibid.

[3] Ibid.

وبعدما ركزت الدراسات السوسيولوجية ولزمن طويل على البناء الاجتماعي (البنائية) وعلى النظام (الوظيفية)، انتقل مركز اهتمامها إلى الفرد والتفاعل الاجتماعي بين الأفراد من خلال الحياة اليومية، وما ينجر عنها من ظواهر حيث ظهرت تيارات فكرية جديدة.

من أبرز هذه التيارات نجد **الإتنومتودولوجيا** (ethnomethodology) التي ظهرت في ستينات القرن الماضي، كتيار معاكس للوظيفية بالولايات المتحدة الأمريكية حيث يعتبر Garfinkel(1917-2011) مؤسسه. ويبدو هذا التيار "كامتداد لعلم الاجتماع الظاهرتي".[1]

تركز الإتنومتودولوجيا على "تحليل الممارسات العادية للتفاعلات"[2]. ويتم خلق الواقع الاجتماعي من هذا المنظور بشكل مستمر من طرف الفاعلين الاجتماعيين من خلال أنشطة الحياة اليومية. يرى هذا التيار أنه لا يجب أن يبني عالم الاجتماع تحاليله استنادا إلى أفكار كانت سائدة آنذاك والمتمثلة في البناء الاجتماعي والنظام الاجتماعي والنسق والتوازن؛ فهنالك تناقضات تملئ الحياة اليومية يجب مسح الغبار عنها كالفقر والجريمة والانحرافات.

وتتمثل مهمة المختص في الإتنومتودولوجيا في "تشخيص العمليات التي يدرك من خلالها الناس من هم، ويقدمون تشخيصا عن ذواتهم أو يبينون من هم، ويكشفون عما يقومون به في نشاطهم اليومي، وفي سياقات التفاعلات المتنوعة".[3]

ويمثل تحليل المحادثة من بين الفروع الأساسية للإتنومتودولوجيا، حيث تعتبر المحادثة الفضاء المثالي للتبادلات الرمزية كممارسة لغوية.

---

[1] Mostefa Boutefnouchet, **Introduction à la sociologie, Les fondements**, op.cit., p.229

[2]Thomas Gay, op.cit., p.61

[3] أرمان وميشال ماتلار، **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة: نصر الدين لعياضي، الصادق رابح، بيروت، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثالثة، 2005، ص.149

يعتبر Schutz مرجعية فكرية للإثنومتودولوجيا، حيث استعير منه مفهوم **"مخزونات المعارف"** ليدل على مجموع القواعد التي يتم تعلمها والمعارف المتحصل عليها من طرف الأفراد، والتي تكون في الواقع "في حالة كمون (latency) حتى تجيء لحظة التعبير عنها، هنا تتحول إلى واقع".[1]

هذه المخزونات متفاوتة من فرد إلى آخر، مما يخلق تنوعا معرفيا يؤثر في عملية التفاعل بين الأفراد، واقع تتم مشاركته بين مجموعة منهم. وعلم الاجتماع من منظوره يجب أن يهتم بما بين الذاتية(intersubjectivity)، عن طريق دراسة كيفية "التعبير عن الوعي الذي يتحقق بين الناس".[2]

وقد أسس Blumer التفاعلات الرمزية ليدل بها على أن الحياة الاجتماعية ذات طبيعة رمزية، انطلاقا من ثلاثة مبادئ. يتمثل المبدأ الأول في أن الأفراد في تفاعلهم يرتبطون بالمعنى الذي تحمله الأشياء بالنسبة إليهم. أما المبدأ الثاني فيتمثل في أن معاني هذه الأشياء تتمخض عن تفاعل الفرد مع الأفراد الآخرين. أما المبدأ الثالث فيرتكز على فكرة أن المعاني تبنى وتتغير ضمن عملية التأويل التي يقوم بها الفرد إثر تعامله مع الأشياء التي يجدها. وعلى هذا النحو، قام Erving Goffmann في خمسينات القرن الماضي بربط التفاعلات الرمزية بالتحليل الدرامي "للبرهان على بلاغة الحياة اليومية: يجب أن تكون إيماءاتنا حقيقية مثلما هي في المسرح"[3].

فالحياة الاجتماعية عبارة عن مسرح يمثل فيها كل فرد دورا معينا، آخذا بالاعتبار أدوار الآخرين. ولما ينزلون من خشبة المسرح ويعود كل واحد منهم إلى بيته، ويلتقي بأهله وأصدقائه فإنه يتخلى عن الرقابة التي كانت تضبطه، ويتكلم معهم بطلاقة وبدون ضوابط.

---

[1] Mostefa Boutefnouchet, **Introduction à la sociologie, Les fondements**, op.cit., p.226

[2] Ibid.

[3] أرمان وميشال ماتلار، **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة: نصر الدين لعياضي، الصادق رابح، مرجع سبق ذكره، ص.152.

وجاءت السوسيولوجيا التأويلية لتؤكد وجودها في الولايات المتحدة الأمريكية وتغلبها على الوظيفية. وتطورت التيارات الجديدة في البلدان الأنجلو-ساكسونية ثم في البلدان الناطقة بالألمانية، وفي الأخير بفرنسا بعد التراجع الذي عرفته البنيوية في أواخر سبعينات القرن الماضي.

بعد نهاية الستينات، ظهر فكر ما بعد الحداثة حيث قام المفكرون في هذه الفترة بمراجعة شاملة لما توصل إليه النسق الفكري إثر التطورات التقنية التي عرفتها المجتمعات الغربية، مغيرة بنياتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، مشككا بالمبادئ التي قامت عليها الحداثة التي لم تعد قادرة على التماشي مع التغيرات العميقة التي تعرفها المجتمعات الغربية ولا على تفسيرها. من بين مبادئ ما بعد الحداثة، هو تصورها للتاريخ الذي لم يعد يسير تبعا لخط مستقيم، بل هو "مفتوح على كل الاحتمالات ويخضع لتقلبات عديدة ولانقطاعات".[1]

وفيما يخص تصور الفكر ما بعد الحداثوي لدور النظرية، فإنه ينفي الأنساق الفكرية المغلقة، كما أنه يرفض أن تكون هنالك نظرية واحدة قادرة على تفسير الواقع برمته. وقد تركت هذه الأفكار آثارها واضحة في الفكر الاجتماعي حيث قام المفكرون بانتقادها وبرفضهم إياها.

وها هي تي **نظرية الهوية** (Identity Theory) التي تعتبر من بين أحدث النظريات في العلوم الاجتماعية تصاغ لتعنى بمسألة تشكل الهوية. يعرف كل من Stets و Burkeالهوية على أنها "مجموعة المعاني التي تحدد هوية الشخص عندما يكون أحد الأشخاص شاغلاً لدور معين في المجتمع، أو عضواً في مجموعة معينة، أو تدعي خصائص معينة تحدد هويته كشخص فريد. فالهويات تميز الأفراد وفقاً لمراكزهم العديدة في المجتمع"[2].

[1] عبد العالي دبلة، مرجع سبق ذكره، ص.38.

[2] Burke Peter J., Stets Jan E., **Identity Theory**, New York, Oxford University Press, 2009, p.3

ويحددان أن طريقتهما تندرج ضمن التفاعلات الرمزية البنيوية (structural symbolic interactionism) التي تشير إلى "مجموعة من الأفكار حول طبيعة الفرد والعلاقة الكامنة بين الأفراد والمجتمع."[1]

يختلف هذا التيار عن التفاعلات الرمزية حيث تمثلاتهم تخص أكثر تأثيرات البنى، آخذين بالحسبان تأثير الأطر الاجتماعية للتجربة، حيث يمكن التنبؤ بالحياة الاجتماعية من أجل السماح بتعميمات نظرية.

ويضيف كل من Stets و Burkeأن "منظور التحكم الإدراكي يؤكد على الفكرة القائلة بأن المعنى هو المهم وليس السلوك ذاته، والمعنى يخضع للتأكيد الاجتماعي."[2]

في كتابهما: نظرية الهوية، يتحدث المؤلفان عن تطوير هذه النظرية. للقيام بذلك، يقوم الباحثان "بمقارنة نظرية الهوية بالتيارات المماثلة الأخرى، وفحص الابتكارات المنهجية (من الأبحاث الحديثة) مع توقع الطرق الأصلية".[3]

على مدار الخمسة وعشرين عامًا الماضية، عرفت نظرية الهوية تطوراً ملحوظًا من عام 1988 إلى الوقت الحاضر، مثل "دمج نظام التحكم الإدراكي في النظرية، وإدخال "الموارد" التي تكون فيها المعاني الرمزية مهمة، ووجهات نظر جديدة عن البنية الاجتماعية، وأهمية الموقف في التأثير في عملية الهوية، وفكرة الأسس المختلفة للهويات، وتوسيع فهمنا للهويات المتعددة، ودراسة تغيير الهوية وإدراج العواطف في النظرية."[4]

---

[1] Ibid., p.9

[2] Jan E. Stets, Peter J. Burke, **The development of Identity Theory**, Emerald Group Publishing Limited, Advances in Group Processes, Volume 31, 2014, p.p 57-97

[3] Yves Laberge, **De l'hypothèse à la théorisation : comment utiliser les théories sociales (construction sociale, théorie ancrée, théorie de l'identité, microsociologie**, Recherches Sociologiques et Anthropologiques, 43-2, 2012, p.p 151-156

[4] Jan E. Stets, Peter J. Burke, op.cit.

هذه بعض الملامح العامة عن تطور علم الاجتماع، الذي لم يكن ليتطور لولا استفادته من تخصصات أخرى كعلم النفس والفلسفة والدراسات اللغوية، من خلال تيارات فكرية متعددة، متكاملة أحيانا ومتناقضة أحيانا أخرى، تمكنت من رسم معالم علم الاجتماع الحديث الذي نهل أفكاره وتصوراته من علم الاجتماع الكلاسيكي.

وقد بات من المؤكد اليوم أن تقوم العلوم الإنسانية **"بالحوار"** (dialogue) مع بعضها البعض وخصوصا بين علم الاجتماع والفلسفة في شكل متبادل، حيث تكون الأخيرة "على دراية بالنتائج المكتسبة من في علم الاجتماع، لتكون قادرة على تغذية طريقة تفكيرها الخاصة وحيث يحس علم الاجتماع، على العكس بأنه مشرع له لاقتراض تصورات ومفاهيم الفلسفة لإنتاج تصوره الخاص للعالم الاجتماعي".[1]

وينطبق هذا على العلاقة التي يجب أن تكون بين الفلسفة والعلوم الإنسانية الأخرى، بتجاوز الحدود بين التخصصات والانفتاح على بعضها البعض، في سبيل القيام بدراسة **متداخلة التخصصات** (interdisciplanary study)، حيث ستعتمد على تفسيرات متقاطعة بين تخصصات متعددة، بغية القيام بدراسة شاملة، تأخذ بالحسبان الزوايا المختلفة للظاهرة. في ذات الوقت وتماشيا مع ما كان يحدث في حقل البحث السوسيولوجي، فقد انعكس هذا السياق المعرفي الجديد بتياراته المختلفة على البحث في الاتصال، مع الاستخدام المكثف لوسائل الإعلام والاتصال لا سيما الجديدة منها، وتأثيرها في المتلقي وكيفية تفاعل الأخير معها.

وبعدما عرضت واقع التنظير في علم الاجتماع، ما كان عليه وما آل إليه، سأعرج إلى هذه المسائل ولكن هذه المرة في حقل علوم الإعلام والاتصال.

---

[1] Sylvie Mesure, **Poursuivre le dialogue entre philosophie et sociologie**, Sociologie, Presses Universitaires de France, Vol. 3, 2012/2, p.p 211-214

الفصل السادس

التنظير في علوم الإعلام والاتصال

1) تاريخ البحث في الاتصال

أ-الرواد

ب-المؤسسون

ت-فترة الإثبات

ج-التاريخ الجديد

2) التوجهات المتعددة للبحث في الاتصال

3) الدراسات الحالية في الاتصال

4) واقع البحث في الاتصال في العالم العربي

5) المقاربات الجديدة لظواهر الاتصال

التنظير

في علوم الإعلام والاتصال

أهداف الفصل



- التعرف على واقع وآفاق البحث في الاتصال



- تحديد ما آلت إليه النظرية في علوم الإعلام والاتصال



- التعرف على التاريخ الجديد لعلوم الإعلام والاتصال



- تحديد البعد الإيديولوجي للنظرية في علوم الإعلام والاتصال

نحن نعرف بأن علم الاجتماع هو سابق لعلوم الإعلام والاتصال. وبالتالي، التنظير في الحقل الأول هو سابق للتنظير في الحقل الثاني.

وقد عرف تحديد موضوع علوم الإعلام والاتصال خلافات، نظرا لتعدد المقاربات وحتى تناقضها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، يعود الأمر إلى التخصصات المختلفة للمفكرين الذين كانوا يسلطون الضوء على هذا المجال.

تمت صياغة النظريات الأولى الأكثر إنجازا في علوم الإعلام والاتصال في نهاية الحرب العالمية الثانية، إثر ظهور وانتشار التلفزيون بين الفئات العريضة في المجتمع وملاحظة التغيرات التي بدأت تغير ملامح الحياة اليومية. فقد تبين مدى تأثير التلفزيون في الجماهير، خالقا شبكة معقدة من الاتصالات تتبادل عن طريقها الأفكار والرموز، حيث تبينت ضرورة تعيين ماهية المعاني الجديدة.

وقـد اتـضحت ضرورة وضـع هـذه الـشبكة الجديـدة مـن الاتـصالات في سـياقها الاجتماعي، والمتمثل في ظهور المجتمع الصناعي وما أفرزه من ظواهر جديدة.

ومن بين أبرز تجليات هذا المجتمع الجديد هو النشر والتوزيـع المكثـف للرسـائل الاتصالية ونمو الصناعة الثقافية، من خلال النشاطات المتنوعة وما أفرزته من ظـواهر جديدة جديرة بالتقصي.

فتمت "**مأسسة**" (institutionalization) البحث في الاتصال، هـذا الأخـير الـذي يشمل عـدة مجـالات ويـتجلى عـبر أشـكال مختلفـة. وتحـدد موضـوع علـوم الإعـلام والاتـصال تـدريجيا، كـما تحـددت طـرق القيـام بالدراسـات في هـذا الحقـل العلمـي وتخصيص فاعلين فيه بمعنى، مفكرين مهتمين بهـذا المجـال الـذين أتـوا مـن أوسـاط معرفية متعددة.

ونحن نعلم بأن الدراسات الأولى التي تخص الاتصال بـدأت بعـد الحـرب العالميـة الأولى (والتـي تطـورت إبـان الحـرب العالميـة الثانيـة) إثـر إدراك الأثـر الـذي تحدثـه **الدعايـة** (propaganda) عـلى المتلقـي[*]، حيـث حـذر John Dewey مـن اسـتمرار البرامج الدعائية حتى بعد انتهاء الحرب. وقد ارتبط تطور البحـث في مجـال الاتـصال بالدعاية وبالحرب العالمية الثانية، كما أنه ارتبط بمفهوم **الإقناع**(persuasion) .

كما أنه لا يجب أن نتغافل عن الخطابات المتداولة بين الحربين العـالميتين الاثنتـين لاسـتثارة النـاس ضـمن أعـمال دعائيـة. ثـم لا يجـب أن يقـاس تـأثير وسـائل الإعـلام والاتصال في الجمهـور والاكتفـاء بـالتركيز عـلى هـذه الزاويـة فحـسب، فهـذا تبـسيط لرهانـات خفيـة، إذ يجـب أن نـضع نـصب أعيننـا إشـكالية ظـاهرة وسـائل الإعـلام الجماهيرية "كرهان للمراقبة الاجتماعية الذي يكون بين أيدي النخـب التـي تـستحوذ عليها".[1]

---

[*] آنذاك على متلقي البرامج الإذاعية، لأن التلفزيون لم يكن قد اكتشف بعد.

[1] Serge Proulx, **Naissance des sciences de la communication dans le contexte militaire des années 1940 aux USA**, France, HERMÈS n° 48, 2007, p.p 61-67

وفي هذا الصدد، بين Marcuseأن التكنولوجيا تمكّن من تأسيس أشكال جديدة للمراقبة**. وإدراكا لمسألة خطورة الدعاية التي تمارس مراقبة اجتماعية على الجماهير وعلى آرائهم وتوجهاتهم، فقد قامت National Education Association سنة 1929 "بنشر تقرير تنتقد فيه الدعاية حيث طلب من الأساتذة أن يكونوا واعين أمام الأشكال المختلفة للدعاية التي يمكن أن تصل إلى جماهير الشباب".[1]

وقد أحدثت وسائل الإعلام والاتصال تغيرات ملموسة على ممارسات الأفراد، وظهر سياق اجتماعي/اقتصادي جديد أثناء الحرب العالمية الثانية أدى إلى تطور الصناعة الإشهارية، خصوصا في أمريكا الشمالية "يحث الرجال على حمل السلاح ودعوة النساء للعمل في الصناعات العسكرية، وحملة إعلانية للإبقاء على الوحدة الوطنية وحملات إعلانية مضادة للتبليغ عن خطاب العدو"[2]، تماشيا مع الأهداف الإيديولوجية التي سطرتها الحكومات. ولأجل ذلك، استُخدمت وتطورت تقنيات الإقناع.

ومع بداية الحرب العالمية الثانية، ظهرت الحاجة الملحة إلى "ضرورة الحصول على إجماع من طرف الساكنة لقرار الدخول في حرب ينهي بوعورة على النقاشات".[3] لهذا الغرض، جندت النخب وبشكل خاص وظف الباحثون في مكاتب حكومية وعسكرية لتأسيس مؤسسات للدعاية. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لم ينته الأمر، بل قام هؤلاء الباحثون بالاهتمام أكثر بتأثير الدعاية على عدة مستويات.

ونحن نعلم البعد السلبي لمصطلح "الدعاية". لهذا الغرض، قام الباحثون باستبداله بمصطلح **"الإقناع"** نظرا لدلالة الأخير غير السلبية، حيث ارتبطت الدراسات في هذا المجال "بالرأي العام والإشهار وعلم النفس الاجتماعي للاتصال الجماهيري".[4]

** دققت في هذه المسألة في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

[1] Serge Proulx, op.cit.

[2] Judith Lazar, **Sociologie de la communication de masse**, Paris, Armand Colin, 1991, p.117

[3] Serge Proulx, op.cit.

[4] Serge Proulx, op.cit.

غير أن هذا التطور في مجال الاتصال كان يخفي في الواقع بعدا ليس بالجديد، ألا وهو "المجال الأكثر سرية للتنمية العسكرية لتقنيات الدعاية في سياق الحرب الباردة"[1]، الذي ظهر بعيد عام 1945 بين المعسكرين: الشرقي (بقيادة الاتحاد السوفيتي آنذاك) والغربي (بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية).

وفي الواقع، أثناء الحرب العالمية الثانية الكل وجد ضالته: من جهة، استفاد العسكريون من المختصين في الاتصال والإقناع، ومن جهة أخرى استفاد هؤلاء لتطوير نشاطاتهم في هذا المجال.

وقد تأخر وضع تاريخ للبحث في الاتصال، لأن الأمر راجع جزئيا إلى خصوصية هذا الحقل العلمي وتأخره الفكري مقارنة بالعلوم الإنسانية الأخرى.

وسأطرح بعض الأسئلة التي سأجيب عنها في هذا الفصل:

لماذا هنالك تأخر في وضع تاريخ للبحث في الاتصال مقارنة بتاريخ العلوم الإنسانية الأخرى؟ لماذا هنالك صعوبة في كتابة هذا التاريخ؟ وهل هو التاريخ الذي نعرفه، أم هنالك تاريخ آخر؟ وما هي التوجهات المتعددة للبحث في الاتصال؟ وفيم تتمحور الدراسات الحالية في هذا الحقل العلمي؟ وهل يمر مسار البحث في الاتصال في العالم العربي بنفس المسار كما هو في العالم الغربي؟ ولم ترجع الأسباب؟ وما هي المقاربات الجديدة للبحث في الاتصال؟

1) تاريخ البحث في الاتصال:

مرت بحوث علوم الإعلام والاتصال بمراحل منذ نشأتها. وقد عانت من نفس المعرقلات الإبستمولوجية والمشاكل المنهجية التي عانت منها العلوم الإنسانية الأخرى.

غير أنها ونظرا لحداثتها ولتعدد المصادر النظرية والمنهجية التي تبنتها، فإنها عانت وما زالت تعاني من الكثير من الصعوبات والمعرقلات.

---

[1] Ibid.

وفي الواقع، شغل الاتصال بال المفكرين مند القديم. بيد أن الاهتمام بهذه المسألة تزايد مع انتشار وسائل الإعلام والاتصال خصوصا مع التلفزيون، ثم بروز وانتشار الميديا الجديدة وتأثيرها في الأفراد والمجتمع على حد سواء، مما مهد الطريق لبروز نظريات مهمة في حقل علوم الإعلام والاتصال، البعض منها خاص بهذا الحقل والبعض الآخر استمد من العلوم الإنسانية المختلفة، بغرض محاولة فهم عمليات الاتصال والتغيرات التي تنجر عنها.

ونظريات الاتصال متعددة ويصعب وقد يستحيل في بعض الأحيان إدراجها في كتاب واحد. والواقع، ليست هنالك نظرية أحسن من نظرية، بل الأمر مرتبط بمدى إدراك افتراضات كل نظرية من طرف الباحث، وإدراك السياق الذي ظهرت فيه والإمكانيات التي تتيحها لتطبيقها في سياقات أخرى، وأيضا مدى تطابقها مع الإشكالية والهدف من الدراسة.

وقد شكلت نظريات علوم الإعلام والاتصال جوهر العديد من التساؤلات ومحور الكثير من الإشكاليات، خصوصا مع العولمة والإفرازات التي تنجر عنها والظواهر الاتصالية الجديدة، لا سيما في العالم العربي والتي لا تجد في الكثير من الأحيان إرهاصات نظرية تتأسس عليها وتفسرها.

وحتى ستينات القرن الماضي، الدراسات المتصلة بالمحتويات الإعلامية والاتصالية كانت تقام من طرف علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء السياسة.

غير أن الوضع بدأ يتغير مع بروز معاهد ومراكز بحث ومجلات متخصصة تهتم بشكل حصري بكل ما هو إعلامي واتصالي، مما جعل علوم الإعلام والاتصال تتخصص وتنفصل عن التخصصات الأخرى.

بل وحتى سبعينات القرن الماضي، لم تحرز علوم الإعلام والاتصال على اعتراف وعلى إجماع المفكرين في حقلها على مكانتها العلمية كتخصص قائم بذاته، حتى من قبل كبار المختصين في هذا الحقل العلمي.

والواقع أن دراسة الاتصال كانت تهتم إلى وقت ليس بالبعيد بالإقناع من خلال فهم مبسط للعملية الاتصالية التي تكون متكونة من ثلاثة عناصر فحسب: المرسل الذي يرسل الرسالة، والمتلقي الذي يتلقاها، والمصدر الذي يتم عن طريقه إرسال الرسالة، ولم يتم التشكيك في أن هذه العملية أعقد مما يعتقد.

في الواقع، دراسات الاتصال ليست بالحديثة، حيث نجد في التراث المعرفي نموذجا اتصاليا قديما استلهم العديد من المفكرين في الاتصال والذي يرجع إلى الفلسفة اليونانية.

وتنطلق الفلسفة من "علاقة الإنسان بالآخرين وبعلاقته بالمدينة"[1] باعتبارها تنظيما تسيره مجموعة من المؤسسات، مما يربطه بعالم العلامات التي بات من الضروري فك شفرتها.

ولعل أقدم نموذج اتصالي يرجع إلى الثقافة اليونانية وتحديدا إلى Aristotle (384-322 ق.م)، حيث كان يعتبر الاتصال "نشاطا لفظيا يحاول المتكلم (الشخص الذي يتحدث) عن طريقه إقناع المستمع، وبالتالي الوصول إلى هدف محدد، وهذا عن طريق استخدام بناء تكتيكي للحجة وعرض الخطاب."[2]

وفي الأصل، حتى منهج Aristotle فعال من الناحية البيداغوجية إذ نجده "يناقش، يريد إقناع نفسه، وبالتالي فهو يقنع".[3]

ولا تتحقق وظيفة الإقناع بشكل اعتباطي، بل تتم عندما "يهيأ المستمعون ويستميلهم القول الخطابي".[4]

وحتى يكون للخطاب الأثر المنتظر، يجب أن يضم نسقا تبريريا إقناعيا، عبر مجموعة من الأدلة، وهذه الأدلة تتفرع إلى ثلاثة أنواع.

---

[1] André Akoun, **Sociologie de la communication et philosophie**, France, L'Année sociologique 2001/2, Vol.51, p.p 327-336

[2] Petra Zia Sluková, op.cit.

[3] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.28

[4] أرسطو، **الخطابة**، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2008، ص.16

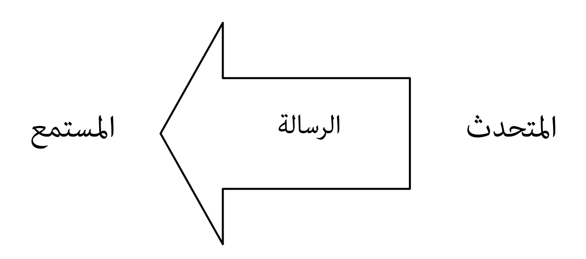
"أولها يقوم على طباع الخطيب ومزاجه، ويقوم ثانيها على الاستعدادات التي يوضع عليها المستمع، ويتعلق ثالثها بالخطاب ذاته، لأن الخطاب إما أن يبرهن أو يبدو عليه أن يبرهن".[1]

وينسج القائم بالاتصال (بمعنى الخطيب) بناءا متوازنا منسقا باختيار عناصر دالة تفي بالغرض، "باختيار أشكال أساسية تجعل من الرأي مقبولا لجمهور معين"[2]، بحيث "يكون تحويل الرأي إلى حجة تحديدا هو موضوع الإقناع".[3]

وقد تطرق Aristotle إلى المسائل المتعلقة بالاتصال من خلال فن الخطابة، حيث كان يرى أن للأخيرة هدف نفعي، إذ إنها تمكن من الاتصال عبر عملية تشمل ثلاثة أقطاب.

يتمثل القطب الأول في **اللوغوس** (logos) الذي يتمثل في الرسالة في حد ذاتها أي محتوى الخطاب بما تحتويه من معلومات ومعطيات وتبريرات. أما القطب الثاني، فيتمثل في **الإيتوس** (ethos) بمعنى المرسل، مرسل الرسالة عبر السلطة والمصداقية التي يمثلها. أما القطب الثالث والأخير، فيتمثل في **الباتوس** (pathos) أي الجمهور الذي ترسل إليه الرسالة.

ويتمثل نموذج Aristotle فيما يلي:



[1] نفس المرجع السابق، ص.15.

[2] Philippe Breton, **L'argumentation dans la communication**, Alger, Edition Casbah, 1998, p.20

[3] Ibid.

يتضح لنا من خلال هذا النموذج أنه لا يشمل الكثير من العناصر، حيث يتمثل الاتصال في هذا المخطط في خطيب يتحدث إلى جمهور عريض حول مضمون معين بدون أن تتدخل عناصر أخرى في العملية الاتصالية، اللـه م شخصية الخطيب ومصداقيته والسلطة التي يخضع عن طريقها الجمهور المستمع إليه. أما عن **الحجة** (argument) فهي موجودة في الخطاب، وهنا يبرز الدور الريادي للخطيب (المرسل) في عملية الاتصال الذي سيوظف صورة حسنة عنه، مستخدما وسائل إقناع محددة. وبذلك، يرى Aristotle في الاتصال فنا يتطلب الممارسة.

ويمكن تطبيق هذه السيرورة كما جاء في مثلث Philippe Breton[1]، حيث قام بتطوير نموذج الاتصال الذي وضعه Aristotle:

خطاطة الاتصال الإقناعي

رأي

خطيب

حجة

مخاطب

سياق الاستقبال

لدى الخطيب رأي يود عرضه من خلال مجموعة من الحجج، لمجموعة من المخاطَبين بغية استمالة آرائهم لما يصبو إليه، في **سياق استقبال** (reception context) مميز.

[1] Philippe Breton, op.cit., p.19

وقد تطور البحث في الاتصال عبر نماذج تفسيرية متعددة وحتى أحيانا متناقضة، مارا بمراحل متعددة أدت إلى تحديد دقيق لمجال وموضوع هذا التخصص العلمي.

أ) الرواد:

مدرسة شيكاغو:

يعتبر باحثو مدرسة شيكاغو السباقون الذين أسسوا لعلوم الإعلام والاتصال، والذين كان لهم الفضل لتطور البحث في هذا الحقل العلمي بين السنوات العشر وأربعينات القرن الماضي، فأسسوا لبحوث الإعلام والاتصال على أساس تجريبي، منطلقين من فكرة أن العلوم الإنسانية يمكن أن تحل المشاكل الاجتماعية. مستقين نموذجهم النظري من علوم الطبيعة، كرس الباحثون جهودهم في هذه المدرسة في دراسة كيفية تنظيم وعمل الجماعات الاجتماعية المختلفة الانتماءات داخل المدينة، حيث قاموا بالدراسات الميدانية الأولى مستخدمين عدة تقنيات للتقرب من الجماعات التي تنصب عليها الدراسة، معتمدين على الملاحظة المباشرة ومجموعة من المقابلات نوعا ما مهيكلة، كما قاموا بالسير الذاتية للوصول إلى مصادر المعلومات، مما أضفى ميزة إمبريقية على دراساتهم.

وقد أدت الهجرة المكثفة للولايات المتحدة الأمريكية ابتداء من 1910 إلى وجود جماعات مختلفة العرقيات والتي تعيش مهمشة في هذا المجتمع، مما أدى بمفكري مدرسة شيكاغو إلى التفكير في سبل إدماج هذه الجماعات لا سيما الشباب فيها.

وقد أسهم مفكرو مدرسة شيكاغو بشكل واضح في مجال الاتصال عندما أكدوا على أهمية التفاعل الاجتماعي بين الأفراد، من خلال انتهاجهم لطرق علمية لم تكن منتهجة آنذاك في العلوم الإنسانية، والمتمثلة في تجميع المعطيات الإحصائية والقيام بمقابلات مع الأشخاص المعنيين بالدراسة واستخدام الملاحظة بالمشاركة. كما استفادوا من علم الاجتماع التطبيقي، بجعل البحث التطبيقي مكملا للبحث النظري مما أسهم في تطور البحث في حقل الاتصال.

أضف إلى ذلك، أنهم أيقنوا أن للاتصال دور في الحياة الاجتماعية، عملية يتم من خلالها تبادل الرموز بين المرسل والمتلقي. وهنا ظهر مفكرون أمثال Dewey وCooley وMead، حيث اقترن اسم الأخيرين **بالتفاعلية الرمزية** (symbolic interactionism).

وقد بين Cooley القوى الكبرى التي جعلت وسائل الإعلام والاتصال التي عرفتها تلك الفترة (من صحافة وكتب ومجلات) أكثر فعالية في العملية الاتصالية، والمتمثلة في "التعبيرية والتسجيل المستمر والسرعة والنشر الموسع إلى كل الساكنة".[1]

كما اقترح نظرية "الأنا" والرأي العام، موضحا أن "الأنا" هو في أصله اجتماعي حيث يكون "الوعي نتاج حدس الإدراكات حول الأنا من طرف الآخرين والاتصال بالآخرين".[2]

وقد استفاد Mead من هذه الأفكار وقام بتطويرها، حيث اقترح نظرية التكوين الاجتماعي "للذات" "كلحظة حيث يكون الفرد واعيا بنفسه عن طريق وجهات نظر الجماعة التي ينتمي إليها"[3]، موضحا أن الاتصال يتكون ويبنى من خلال التواصل مع الآخرين عبر رموز جماعية يرتكز عليها.

أما بالنسبة إلى Dewey، فالاتصال هو أساس أي علاقة اجتماعية، حيث يتم من خلاله ربط الأفراد ببعضهم البعض وبناء حياة جماعية. وبالرغم من مرور مدرسة شيكاغو بعدة مراحل، إلا أن المرحلة الثانية * ستعتبر منعرجا في علم الاجتماع الأمريكي، إذ استخدمت في الدراسات الميدانية بعض التقنيات التي تستخدم اليوم في علم الاجتماع، لإدراك العلاقة بين أشكال سلوكات اجتماعية لاحتلال فضاء جغرافي معين، حيث تبين عن طريق استخدام مفهوم **الاستيعاب** (assimilation) بأن هنالك

[1] Judith Lazar, **La science de la communication**, France, Presses universitaires de France, 2ème édition, 1992, p.9

[2] Ibid.

[3] Ibid.

* تمتد هذه المرحلة من عشرينات إلى ثلاثينات القرن الماضي

حركة بين تهديم، بمعنى عدم تنظيم (desorganization) وإعادة بناء أو إعـادة تنظـيم (reorganization) والتي تمر عبر أربع مراحل.

في البداية، تكون الجماعات المختلفة العرقيات في منافسة ولا تدخل في تواصـل إلا من أجل علاقات اقتصادية. ثم، تدخل في صراعات بعد إدراكها للمنافسة القائمة بينها. ثم، تدخل مرحلة جديدة والمتمثلة في التكيـف بإقرارهـا للفـروق الموجـودة بينهـا. في المرحلة الأخيرة، تقبل الاستيعاب بعد انتهاء الصراعات التي كانت قائمـة بينهـا وتقبـل القيم الخاصة بكل واحدة منها.

ويؤكد Park أن "العلاقات بين الأشخاص تسمح بالتكامل الاجتماعـي، حيـث يـتم الحفاظ على هذا المجتمع بفضل الاتصالات".[1]

كما تساءل من خلال الدراسات التي قام بها حول الجماعات العرقية عـن "الـدور الاندماجي للصحف، ولا سيما المطبوعات العديـدة باللغـات الأجنبيـة، وعـن طبيعـة المعلومـات، ومهنيـة الـصحافة، والفـروق التـي تميزهـا عـن الدعايـة الاجتماعيـة أو الإعلانات البلدية".[2]

بالرغم من تأثيرها القـوي لعـدة سـنوات، عرفـت نهايـة أربعينـات القـرن المـاضي انحطاط مدرسة شيكاغو. حينذاك، برز تيـاران اثنـان في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة: إمبريقية Lazarsfeld والنبيوية-الوظيفية التي كان يمثلها Parsons.

ب) المؤسسون:

لكل تخـصص علمـي مؤسـسون أثـروا في مـساره وكانـت بـصماتهم واضـحة عـلى تطوره. في علوم الإعلام والاتصال، عرف أربعة مفكرين يعتبرون مؤسسي هـذا الحقـل العلمي والمتمثلين في: Lazarsfeld و Lewin وHovland وLasswell.

---

[1] Fernando Huamán Flores, op.cit.

[2] أرماند ماتيلار وميشيليه ماتيلار، **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة: نـصر الـدين لعيـاضي، الـصادق رابـح، مرجع سبق ذكره، ص.41

كان هؤلاء من تخصصات علمية مختلفة، بيد أنهم سرعان ما انتقلوا إلى مجال الاتصال ليكونوا فرقا بحثية ومعاهد للتكوين.

يعتبر Lazarsfeld Paul Felix(1901-1976) من بين المؤسسين الأوائل للبحث في الاتصال.

من أصل نمساوي، انتقل Lazarsfeld إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة1931 باقتراح من مؤسسة روكفلار. وقد استقر بجامعة كولومبيا سنة 1941.

تاريخيا، يرجع الفضل إلى انتشار تقنية المقابلة في حقول معرفية متعددة: علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا وحتى علم السياسة إلى أعمال كل من Lazarsfeld وMerton، حيث استُعملت في بدايتها أساسا كتقنية مكملة لتأويل البيانات الكمية. وأول من استخدمها هو Lazarsfeld في دراسة الجمهور وتلقي الحصص الإذاعية حيث "جمع اثني عشر مستمعا ليستمعوا إلى حصص إذاعية وليحددوا ردود أفعالهم اتجاهها؛ إن كان رد الفعل سلبيا فسينقرون على زر أحمر. أما إن كان إيجابيا، فينقرون على زر أخضر. فتتم معالجة ردود الأفعال إحصائيا بربطها مع ما أثارها."[1]

وقد قام Lazarsfeld بدعوة Merton إلى إحدى تلك الحصص، إذ اقترح "إغناء المادة المجمعة عن طريق المقابلات حيث كان يُطلب من المستمعين تفسير ردود أفعالهم. ثم قام Merton وفريقه بدراسات في نفس النموذج مع جنود، حيث كانت تُعرض عليهم أفلام دعاية للجيش."[2]

فكان الهدف الأساسي من هذه الدراسة هو تحديد سلوكات المستمعين إلى الإذاعة. كما كانت أبحاث Lazarsfeld تنصب على دراسة عمليات أخذ القرارات من طرف

[1] Sophie Duchesne, Florence Haegel, **L'enquête et ses méthodes : L'entretien collectif**, France, Armand Colin, 2005, p.09

[2] Ibid., p.10

جماهير مختلفة: المنتخِبون والعاطلون والمستهلكون والمستمعون إلى الإذاعة. وقد اشتهر بالدراسات التي كان يقوم بها حول تأثير وسائل الإعلام والاتصال.

وقد بين مع كل من Stanton وCantril أن هنالك "علاقة بين الخصائص الاجتماعية للأفراد والاستخدامات التي يمكن أن يقوموا بها لوسائل الإعلام والاتصال"[1]، حيث كل جنس وكل فئة عمرية تتفاعل مع الوسيلة الإعلامية التي تستخدمها بشكل خاص. فقد بينت الدراسات التي أقيمت حول القرارات التي يتخذها الجمهور أن "عملية الاختيار (...) هي مرتبطة بمتغيرات لها علاقة بمجموع الاستعدادات والظروف كالسن والتاريخ العائلي والانتماء السياسي".[2]

تتمثل الإسهامات الكبرى التي قام بها Lazarsfeld في المنهجية، من خلال تطوير بعض التقنيات كتقنية الاختبار المتكرر[*].

وقد أولى اهتماما خاصا للغة العلمية، جهود ترسخت في كتاب جماعي عنوانه: **The Language of Social Research** والذي بحث فيه عن بنية لغة العلوم الإنسانية.

وقد امتد تأثير هذا الباحث ليس إلى علم الاجتماع التطبيقي بالولايات المتحدة فحسب من خلال نموذجه الإمبريقي، بل حتى إلى أوربا. كان ذلك عن Lazarsfeld.

أما الاسم الآخر لمؤسسي البحث في الاتصال فينسب إلى Lewin (1890-1947). من أصل ألماني، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1932 ويرجع إليه الفضل إلى تأسيس البحث في **ديناميكية الجماعة**.

---

[1] Thomas Guy, op.cit., p.34

[2] Elihu Katz, **Communications Research Since Lazarsfeld**, University of Pennsylvania, Scholarly Commons, 1987, https://doi.org/10.1093/poq/51.4_PART_2.S25, consulted on August 24 [th], 2018

[*] تحدثت عن هذه التقنية آنفا.

قام بعدة دراسات في هذا المجال، ولعل أشهرها في علم اجتماع التنظيم تلك التي قام بها على مجموعة من الأطفال العاملين، لمعرفة تأثير أنماط التسيير في إنتاجية الجماعات وتصرف أعضائها تبعا لنمط تسيير معين. وهو الذي أسس مفهوم **الحقل السيكولوجي** الذي يعرفه على أنه "مجموع الأفعال الموجودة والمدركة كمتبادلة".[1]

وبدون أن ينفي وجود عوامل فطرية، اهتم Lewin بشكل أساسي "بالمشاكل الديناميكية المتعلقة بالشخصية، وبشكل خاص الظواهر ذات الصلة بالتوتر وبالاتصال وبالتفاعل وبالتغير، وفي الأخير بتطور الشخصية".[2]

كان يرى في الفرد "كائنا حيا" حيث يكون "تماسكه غير أكيد ويكون حوصلة لقوى متعارضة".[3]

أما الاسم البارز الآخر في البحث في مجال الاتصال فيعود إلى Hovland (1912-1961) الذي قام بدراسة مختلف أنماط الاتصال وتغير الآراء.

تمركزت أبحاثه حول علم النفس التجريبي بجامعة يال، ثم في علم النفس الاجتماعي حول آليات الإقناع مع فريق عمله، وحدد أن اكتساب موقف (attitude) معين يرجع إلى أن "المحيط والسياق هو الذي يعزز تعلمه. بتغيير محيط الاتصال وجها لوجه، نقوم في ذات الوقت بجعل الموقف أقل تطابقا مع "الواقع" الجديد."[4]

بعد الحرب العالمية الثانية، توسعت أعمال فريق بحث Hovland حيث استمر في دراسة الإقناع وأسسه، ولكن هذه المرة ركزت أعماله على "تغير قوة الإقناع تبعا للخصائص الاجتماعية المختلفة للجمهور، وتبعا لإدراك المرسل من طرف الجمهور".[5]

---

[1] Judith Lazar, **La science de la communication**, op.cit., p.12

[2] Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit, p.220

[3] Judith Lazar, **La science de la communication**, op.cit.

[4] Valérie Fointiat, Laura Barbier, **Persuasion et Influence : changer les attitudes, changer les comportements. Regards de la psychologie sociale**, Journal d'Interaction Personne-Système - Vol. 4, Num. 1, Art. 1, Juin 2015, p.p 1-18

[5] Judith Lazar, **La science de la communication**, op.cit.

فقد تبين بأن تفاعل الجمهور مع مضمون الرسالة مرتبط مع الصورة التي يتمثلها الجمهور عن المرسل، وخصوصا عن مصداقيته وشخصيته. لذلك، وجود جو ثقة بين المرسل والمتلقي عامل أساسي لتقبل الرسالة والاقتناع بفحواها.

وفي الأخير، يعتبر Lasswell (1902-1978) هو من قام بتطوير البحث في الاتصال عند استخدام تقنية تحليل المحتوى، حيث قام بدراسة عدة مواضيع متصلة بالدعاية في الحرب العالمية الأولى. وقد أسس خطاطة الاتصال المعروفة اليوم **والمتمثلة في طرح خمسة أسئلة:**

1- من يتكلم (who?)؟
2- ليقول ماذا (what?)؟
3- لمن (for who)؟
4- كيف (how?)؟
5- بأي نتيجة(what effect?) ؟

تكمن أهمية هذه الخطاطة في أنها توجه نحو إشكالية تأثير وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية.

1) من يتكلم؟

توجهنا الإجابة عن هذا السؤال إلى معرفة من مرسل الرسالة أو مصدرها أو منتجها. وهو شخص عادة ما يكون بارزا.

كما يمكن أن يكون موجودا وقت إرسال الرسالة، أي أنه ما يزال حيا ويدل عليه محتوى الرسالة من خلال خطبه مثلا أو مذكراته، أو غائبا لأن الرسالة في حد ذاتها ترجع إلى ماض بعيد لم يعد موجودا فيه مرسلها.

يهدف هذا السؤال التعرف على مرسل الرسالة، خصائصه (الخصائص النفسية لروائي، انتماؤه السياسي مثلا)، اتجاهه (نحو قضية أو قضايا معينة)، قيمه (إن كان داعية دينيا مثلا)، لنحصل في الأخير على بيانات شخصية عن مرسل الرسالة.

وهذا الهدف مهم لما نود مثلا تحليل خطبة زعيم سياسي مناهض لنظام حاكم للتعرف على شخصيته وميولاته، مثل الدراسة التي قام بها White "عند مقارنته بين خطب هتلر وروزفلت، حيث لاحظ أن الأول يستخدم بكثرة موضوع القوة أكثر من الثاني بنسبة 35% للأول و15% فقط للثاني."[1]

2) ليقول ماذا؟

طرح هذا السؤال يساعد الباحث على تحديد ماهية الرسالة في حد ذاتها، وتحديد محتواها، وهذا ما يسميه Lasswell "بقوة البلاغ أو متانته وقيمته الإعلامية"[2]، لمعرفة حول ماذا يدور موضوع المحتوى. بمعنى أنه على هذا المستوى، يتم ضبط موضوع الاتصال أو الرسالة أو البلاغ.

من الناحية الإجرائية، لا يمكن تحديد أي فئة أخرى بدون تحديد هذه الفئة والمعروفة بفئة الموضوع.

فمعرفة الموضوع ومحتواه يمكن الباحث من التعرف على اتجاهات مرسل الرسالة، للتمكن من تحديد شخصيته وسلوكه والإيديولوجية التي يتبناها والتي يسقطها -شعوريا أو لا شعوريا- على الرسالة، كما فعلت الدراسات الريادية الخاصة بتحليل المحتوى، لما كانت تقارن بين الشعارات المستخدمة من طرف قادة الاتحاد السوفييتي والتي يحملها قادة الولايات المتحدة الأمريكية.

3) لمن؟

تقود الإجابة عن هذا السؤال الباحث إلى تحديد لمن تُرسل الرسالة، بمعنى معرفة من هو المستقبل (أو المتلقي) والتعرف على خصائصه.

فهذا السؤال يخص دراسة الجمهور، لمن تُوجه إليه الرسالة. فدراسة الدراما التركية لمعرفة لمن تٌوجه، دفعنا إلى الاعتقاد بأنها تُوجه ليس للجمهور العربي، بل إلى العالم

---

[1]Madeleine Grawitz, **Méthodes des sciences sociales**, op.cit., p.612

[2]أحمد أوزي، **تحليل المضمون ومنهجية البحث**، جامعة محمد الخامس، كلية علوم التربية، 1993، ص.38

الغربي بتمرير رسالة ضمنية مفادها أن الأتراك يسلكون نفس نمط عيش الغربيين من طريقة لبس خصوصا لدى الإناث، من تناول للكحول، وحتى في أنماط التفكير كفكرة العلاقات غير الشرعية بين رجل وامرأة والتي يمكن أن يتقبلها المجتمع المحافظ.

وبالفعل لا يكاد يخلو مسلسل تركي من استظهار ثنائيتين اثنتين: تناول الخمر من طرف الذكور والإناث على حد سواء، ووجود أطفال غير شرعيين يتقبلون، وإن لم يكن ذلك منذ بداية القصة فسيكون ذلك في نهايتها.

وبالتأكيد، هذه الأفكار تحمل إيديولوجية معينة، لا توجه للمجتمعات العربية-الإسلامية (إلا كأفكار يمكن أن تُرسخ على المدى البعيد) بل للعالم الغربي، لممارسة سلطة رمزية متجسدة في المواضيع المعروضة، بغية التأثير في الأفكار التي يتم بثها في قيم ومعتقدات الأفراد وتصرفاتهم.

4) كيف؟

يفيد هذا السؤال البحوث التي تُعنى بالبحث عن الوسائل التي يستخدمها القائم بالاتصال لإقناع المتلقي، بمعنى ما هي الوسائل التي يستخدمها مرسل الرسالة للتأثير في المتلقي؟

ففي دراسة تُعنى بمعرفة كيفية تأثير أفلام الكرتون في الأطفال، على الباحث أن يحدد ماهية المؤثرات التي تجعل الطفل ينجذب لبعض أفلام الكرتون أكثر من أخرى ويعيد مشاهدتها عدة مرات بدون أن يسأم، بمعنى البحث عن سيرورة التلقي لدى الأطفال لأفلام الكرتون.

فعند تحليل فئات الشكل وحتى فئات المضمون، يتضح لنا بأن العديد من المتغيرات تتداخل فيما بينها لتمنح للطفل المتلقي تلك المتعة التي لا يجدها إلا في بعض أفلام الكرتون، كالألوان وطبيعة الموسيقى والصورة ودمج صور حقيقية (لممثلين حقيقيين) مع الرسوم المتحركة في نفس فيلم الكرتون، ومحتوى القصة في حد ذاتها، وغيرها من العناصر التي تمثل أداة سحرية يتفاعل معها الأطفال ليقبلوا عليها بشكل كبير.

فالسؤال "كيف" يفيد الباحث في التعرف على بنية الرسالة أو المادة قيد التحليل. غير أن الإجابة عنه تكون استنادا إلى متغيرات ذاتية (خاصة)، لأن تأثير أفلام الكرتون يختلف من طفل إلى آخر حسب متغيرات تُحدد من طرفه.

5) للوصول إلى أي نتيجة؟

نسعى عن طريق هذا السؤال إلى البحث عن تأثير الرسالة في المتلقي. يفيد هذا السؤال بحوث الرأي العام لمعرفة مثلا ما هو تأثير الخطاب الأخير لرئيس الجمهورية في المتلقين لمعرفة نيتهم في التصويت عليه، أو لمعرفة تأثير أفلام العنف في الأطفال، من خلال رصد انفعالاتهم المباشرة ورأيهم في المادة السمعية-البصرية.

ما يمكن الإشارة إليه، أن الباحث من البداية يحدد ما يود بلوغه عند استخدامه لتقنية تحليل المحتوى. غير أنه يمكن أن يحدد أكثر من هدف في الدراسة الواحدة.

ففي دراسة تُعنى بتحليل أغاني الراب لدى المغنيين الجزائريين، قد يكون الهدف مثلا هو تحديد طبيعة المواضيع التي تعالجها الأغاني والمقارنة بينها فحسب: هل هي أغان ذات بعد عاطفي؟ اجتماعي؟ سياسي؟

وقد يستهدف الباحث من هذه الدراسة في ذات الوقت معرفة الجمهور الذي تُوجه إليه هذه الأغاني: هل يتعلق فقط بالشباب أم أنه موجه لفئات أخرى كالشيوخ، علما بأن الكثير من أغاني الراب أصل كلماتها قصائد في الشعر الملحون؟

ثم، قد يستهدف الباحث في نفس الدراسة التعرف على الأهداف الضمنية في الرسالة، كأن يقوم في نفس الموضوع بالتعرف على ما يستهدفه المغني من أغانيه: هل يستهدف فقط الترفيه وإمتاع الجمهور؟ أم أن أغانيه لها بعد آخر؟ كأغاني "هواري دوبل كانو"[*]، التي تحمل بعدا سياسيا يحاول تمريره للمتلقي.

---

[*] هو مغنى راب جزائري

ج) فترة الإثبات:

مثلت نهاية الحرب العالمية الثانية منعرجا مهما لبحوث الاتصال، حيث وبعدما وظف الباحثون في مكاتب حكومية وعسكرية لوضع مؤسسات للدعاية أثناء الحرب، قام هؤلاء الباحثون بالاهتمام أكثر بتأثير الدعاية على عدة مستويات بعد انتهاء الحرب، من خلال فرق بحث ومعاهد ومؤسسات مختصة بالقضايا الاتصالية.

فتطورت الأبحاث في الاتصال من طرف مهتمين بهذا المجال من تخصصات مختلفة، وبالتالي المقاربات كانت مختلفة حول مسألة نشأة علم اتصال مستقل بذاته.

فبرزت صراعات فكرية عبر مدرستين اثنتين معروفتين في تراث البحث في الاتصال ألا وهما: المدرسة الإمبريقية من خلال أبحاث Lazarsfeld ومكتبه، والمدرسة النقدية (المتأثرة بالماركسية) من خلال ما قدمه الباحثون الذي كانوا ينتمون بداية إلى مدرسة فرانكفورت (الذين انتقلوا إلى جامعة كولومبيا بنيويورك أثناء الحرب العالمية الثانية) بزعامة كل من Horkheimer وFromm وMarcuse وAdorno.

تميزت المدرسة الأولى بتبنيها المقاربة الكمية/الوصفية اعتمادا على الوظيفية، مركزة على وظائف الاتصال بشكل عام.

أما الثانية، فقد منحت الأولوية للمحيط الثقافي والاجتماعي اللذين تتم فيهما العملية الاتصالية، عن طريق تأكيد روادها على التأثيرات السلبية لوسائل الإعلام والاتصال وعلى تسليع الثقافة.

من هذا المنظور، كل ما تقوم به الصناعة الثقافية هو إعادة إنتاج القيم السائدة في هذه المجتمعات، المبنية أساسا على عدم المساواة الاجتماعية.

فالحضارة الغربية تقوم بالإنتاج المستمر لنفس السلع – وتحديدا السلع الثقافية - للهيمنة على الأفراد، مدعية بأنه يمكن لهم الاشتراك في كل الأمور، حتى في الأذواق، مروجة لفكرة مفادها أنه يمكن لهم الوصول إلى مستوى معيشة الطبقة البورجوازية عن طريق وصولهم للمنتوجات الثقافية على اختلاف مجالاتها (السينما، الإذاعة، التلفزيون، الموسيقى، الفن التشكيلي، الخ...).

فهذه السلع الثقافية المعممة هي "مفروضة من "فوق"، من طرف نظام صناعي للتوزيع مهيمنة عليه الرأسمالية، حيث يسود منطق الاستهلاك والربح"[1]، إذ نجدها تستخدم أجهزتها المختلفة وعلى وجه التحديد وسائل الإعلام والاتصال التي تروج لصورة مثالية لهذه المجتمعات، للمحافظة على الأوضاع الاجتماعية كما هي عليه. أما عن الأسئلة التي كانت تشغل بال مفكري المدرسة النقدية، **فقد تمركزت حول ثلاثة محاور:**

"-من يراقب الاتصال

-لماذا؟

-لصالح من؟"[2]

يدور مركز الاهتمام من خلال هذه المحاور الثلاثة حول مالكي وسائل الإعلام والاتصال، وبالتالي حول من يراقب مؤسسات الاتصال.

وما كان يعيبه مفكرو المدرسة النقدية على الإمبريقيين هو "تجاهلهم للسياق التاريخي والثقافي"[3] للفعل الاتصالي.

وتكثف البحث في الاتصال من كلا الاتجاهين الاثنين، كل حقل مسهم بمجموعة من البحوث التي أسهمت في بروز تخصص علمي جديد، بالدور الذي لعبته المجلات المتخصصة وصدور كتب في هذا المجال، مما قعد لتأصيل البحث في الاتصال عبر تبني "لغة مشتركة للباحثين من جهة. ومن جهة أخرى، إيصال وبث الأفكار على نطاق واسع.

أضف إلى ذلك، نشأت الأقسام الأولى في الاتصال مع برامج الدكتوراه الأولى في الجامعات الأمريكية".[4]

---

[1] Philippe Breton, Serge Proulx, **L'explosion de la communication**, France, La Découverte, 1996, p.148

[2] Judith Lazar, **La science de la communication**, op.cit., p.19

[3] Ibid.

[4] Ibid.

كل هذه العوامل مشتركة أدت إلى مرور البحث في الاتصال إلى مرحلة الإثبات.

د) التاريخ الجديد:

بالرغم من هذا العرض الذي نجده في جل المراجع التي تتطرق إلى تاريخ البحث في الاتصال، بيد أن هنالك **"تاريخ جديد"** (new history) للبحث في هذا الحقل المعرفي.

لا يؤكد التاريخ الجديد لهذا الحقل العلمي على التطور الخطي الذي عرفه هذا البحث، بل إنه يؤكد على "التطور المحتمل لهذا الحقل، في مفترق السياقات والمؤسسات التي قامت بتشكيله".[1]

يرى Pooley بأن هنالك ستة مفكرين من تخصصات مختلفة هم الذين رسموا تاريخ البحث في الاتصال، وهم: "المحقق الصحفي Christopher Simpson وأستاذ التربية Timothy Glander، والمختص في اتصال التنمية Rohan Samarajiva، وأستاذ التاريخ Brett Gary، والمدرّب الألماني في علم الاجتماع المعرفة William Buxton و J.Michael Sproule الذي اهتم بخطابات الاتصال".[2]

حسب Pooley، هؤلاء الستة هم الذين بينوا الدور البنيوي الذي قامت به مؤسسة Rockefeller في وضع النموذج المهيمن لدراسات الاتصال، حيث لاحظ المؤرخ Christopher Simpson أن التمويل الحكومي بعد الحرب العالمية الثانية "مثل على الأقل 75% من مكتب: Applied Social Research للزارسفيلد بجامعة كلومبيا،

[1] Dominique Trudel, **Théorie critique et histoire de la communication: la théorie critique de Max Horkheimer comme critique de la philosophie bourgeoise de l'histoire**, COMMPOSITE 17(2), 2014, www.commposite.org/index.php/revue/article/view/202, consulted on September 03[th], 2018

[2] Jefferson Pooley, **The new history of mass communication research**, New York, NY : Peter Lang., 2008, p.p 43-69, www.jeffpooley.com/pubs/NewHistoryPooley2008.pdf, consulted on September 04[th], 2018

وأيضا ل: Institute for International Social Research لكانتريل ببرنستون."[1]

أضف إلى ذلك، توضيح كيفية مأسسة البحث في هذا الحقل العلمي للقيام بعدة دراسات التي كانت ذات صلة بالحرب النفسية والدعاية إبان الحرب العالمية الثانية، ثم إبان الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي (روسيا حاليا).

فلو لا وجود مؤسسات ومراكز بحث ممولة من طرف جهات حكومية تقوم بمشاريع بحث منظمة ضمن سياسة توجيهية (حتى وإن كان بعدها إيديولوجي)، لما تطور البحث في مجال الاتصال.

يتميز التاريخ الجديد للبحث في الاتصال "بالصرامة والتوثيق (...) ويعرف تفكيرا منهجيا غنيا في مجالي: التاريخ وعلم اجتماع العلوم، وربما الأهم من ذلك أن هذا التاريخ يحتضن بشكل كبير انتقائية تفسيرية جديرة والمتمثلة في رفض البقاء على نفس نمط التحليل".[2]

فالتاريخ الجديد للبحث في الاتصال "لا يولي أهمية للدراسات التي كانت تنصب على دراسة الرأي العام (...) كما أنه يهمل أيضا العلاقة التي كانت توليها بحوث الاتصال في الخمسينات للجمهور (...) كما أننا لا نعرف الكثير عن مجموعة البحوث التاريخية عن العلوم الاجتماعية في فترة ما بعد الحرب."[3]

فقد تمت مأسسة حقل علوم الإعلام والاتصال عبر مراكز بحث مختلفة كان لها الفضل في رسم معالمه وتحديد مواضيع بحثه وحدوده، هذا ما يحدده التاريخ الجديد للبحث في الاتصال، بتوضيح الدور المؤسساتي الريادي لمراكز ومؤسسات البحث المتعددة والسياق الذي أقيمت فيه هذه الدراسات، ليس عن طريق عرض تاريخ الحقل المعني

[1] James F. Tracy, op.cit.

[2] Jefferson Pooley, op.cit.

[3] Ibid.

ولمناهجه ومفاهيمه، بل بالتأكيد على "التاريخ الخارجي لتطور هذا الحقل عن طريق تاريخ الأفكار التي كانت تطرح فيه".[1]

وقد قامت مؤسسة Rockefellerببرمجة سلسلة من الملتقيات التي تضم ألمع الباحثين في الاتصال، حيث برز بشكل خاص Lasswell في الملتقى الذي كان موسوما ب: Needed Research in Communication الذي انعقد عام 1940 والذي قام فيه آنذاك بعرض نموذج الاتصال الذي أنشأه، والمتمثل في الأسئلة الخمسة المشهورة: من؟ ماذا؟ لمن؟ بأي وسيلة؟ وبأي تأثير؟

فتحول هذا النموذج إلى إطار منهجي يوجه توجهات الباحثين في دراسة تأثير الاتصال الجماهيري بالولايات المتحدة الأمريكية، وليمتد إلى تحليل العملية الاتصالية في كل التخصصات العلمية. وقد تحول البحث من مجرد تدخلات محتشمة مبعثرة هنا وهناك، إلى برامج بحثية تقام في مكاتب ومراكز بحث متخصصة كان لها الفضل في تقعيد البحث في الاتصال.

فقد قام Hovland "بتقييم أفلام دعائية موجهة إلى إقناع الجنود الأمريكيين الذين يقومون بالتدريبات بصحة التزام الحلفاء في الحرب من جهة. ومن جهة أخرى، بأن هذه الحرب يمكن أن تدوم أكثر مما هو مخطط له".[2]

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، سيواصل Hovland دراساته في علم النفس التجريبي في جامعة يال.

بالنسبة إلى عالم السياسة Lasswell، فقد قعد لمنهجية تطبيق تقنية تحليل المحتوى على الرسائل الدعائية، بتطبيق خطاطته ذات الأسئلة الخمسة والتي سبق عرضها آنفا.

أما Norbert Wiener المختص في الرياضيات، فقد أدت أعماله إلى "ولادة السيبرنتيقا"[3] بجامعة كومبريتج، الذي كان يماثل بين الآلة والكائن الحي، قائلا بأن

---

[1] Dominique Trudel, op.cit.

[2] Ibid.

[3] Dominique Trudel, op.cit.

الآلات لها قدرة على رجع الصدى (feed-back)، بمعنى القدرة على إعادة التوازن بعد مرورها بحالة اضطراب خارجي.

ثم يأتي دور عالم الرياضيات Claude Shannon الذي قام بأبحاث تهدف إلى "التحكم في تقنيات التشفير وفك تشفير الرسائل".[1] كان Shannon مهندسا في الشركة الأمريكية Bell للهاتف. وما كان يهمه من خلال أعماله هو كمية المعلومات التي تنقل والتي قال بأنه يمكن قياسها. والهدف الذي كان يبتغيه من ذلك هو التقليل من ثمن الاتصالات باستخدام لقنوات نقل فعالة.

أما Wilbur Schramm فقد قام "بكتابة خطب الرئيس روزفالت التي بثت عبر الإذاعة"[2] في وكالة بحث Facts and Figure التي تحولت فيما بعد إلى وكالة: The Office of War Information.

وقد استمر في توظيف إشكالية Schramm والمنهجية الكمية الرائجة آنذاك إلى غاية ستينات القرن الماضي. وقد أسهمت الحرب الباردة في استمرار البحث في الإقناع والاتصال، كما برزت "مقاربات في الاتصال بين الثقافات وبرامج "الاتصال والتنمية" بفضل عقد مع الحكومة الأمريكية".[3]

2) التوجهات المتعددة للبحث في الاتصال:

في بدايات البحث في الاتصال، كانت البحوث تندرج ضمن مدرستين اثنتين ألا وهما: المدرسة الإمبريقية والمدرسة النقدية.

بيد أنه من ستينات القرن الماضي، تعددت المدارس والاتجاهات لمعالجة الظواهر في هذا الحقل العلمي، حتى تلك المهيمنتان فقد تفرعتا إلى اتجاهات.

---

[1] Ibid.

[2] Ibid.

[3] Ibid.

فنجد المدرسة الإمبريقية قد تشعبت إلى مقاربات مختلفة، سواء انصبت اهتمامات الباحثين على "آثار أو استخدامات أو محتوى"[1] وسائل الإعلام والاتصال.

فيما يخص المقاربة التي انصبت على البحث حول استخدامات وسائل الإعلام والاتصال، فقد لاقى تيار **الاستخدامات والإشباعات** (uses and gratifications) إقبالا كبيرا من طرف الباحثين؛ وهو تيار استسقى مبادئه من الوظيفية.

تم استعمال مصطلح "الوظيفة" في علم الاجتماع من طرف الوظيفيين، من خلال ذلك الإشباع الذي يحس به الأفراد عندما تلبى حاجاتهم النفسية والاجتماعية. ثم انفتحت السوسيولوجيا الوظيفية على الدراسات الأنتروبولوجية للتلقي والمشاهدة من خلال تيار الاستخدامات والإشباعات.

تطور هذا المدخل في سبعينات القرن الماضي مستمدا أفكاره من الدراسات الأولى التي قام بها Lazarsfeld ومجموعة من الباحثين الذين نبهوا إلى الدور المحدود لوسائل الإعلام والاتصال.

وكان كردة فعل على الدراسات التي كانت تولي أهمية قصوى لتأثير وسائل الإعلام والاتصال في مستخدميها، مضفيا صفة الإيجابية على الجمهور.

يهتم هذا المنظور "بطبيعة الجمهور المشارك والإشباعات التي تتم تلبيتها بالتعرض للتلفزيون، مع قوة تحفيزات الوسيط حيث تؤثر سمات نفسية واجتماعية في هذا الاستخدام، وتتطور السلوكات كنتيجة لتأثير التحفيزات والسمات معاً"[2].

فلا يعتبر الجمهور من هذا المنظور كجمهور سلبي، وإنما هو ينتقي بوعي وسائل الإعلام والاتصال التي يتعرض لها وأيضا مضمون الرسائل، لأنها في الواقع تلبي حاجاته النفسية والاجتماعية.

---

[1] Judith Lazar, **La science de la communication**, op.cit., p.27

[2] Zizi Papacharissi, **Uses and gratifications**, An Integrated Approach to Communication Theory and Research. Lawrence Erlbaum, Communications Routledge Series, 2008, p.p 137-152

من هذا المنطلق، فإن "استهلاك وسائل الإعلام لا يتم انطلاقا من فكرة التأثير الذي تحدثه وسائل الإعلام، ولكن انطلاقا من الاختيار."[1]

يعتبر كل من Katz وBlumler وGurevitch من أبرز ممثلي هذا التيار النظري.

ينظر إلى الجماهير قبل أي شيء "كفاعلين اجتماعيين، لديهم ذاكرة وقدرات نقدية الذين يجب منحهم حرية الاختيار، وليس كمتلقين سلبيين في نسق يفرض عليهم".[2]

تم اقتراح خمسة دوافع رئيسية لاستخدامات وسائط الإعلام: "الحاجات المعرفية والحاجات العاطفية والحاجات التكاملية الخاصة بكل فرد، والحاجات التكاملية الاجتماعية وحاجات التخلص من التوتر."[3]

فالجمهور يقبل على مضامين وسائل الإعلام والاتصال المختلفة، بناء على **تحفيزات** ((motivationsخاصة به تجعله يختار هذه الوسيلة الإعلامية دون أخرى وهذه الرسالة دون أخرى.

ومن هنا، فاستخداماته للميديا ترتكز على هذه التحفيزات ذات الطابع النفسي والاجتماعي.

وقد طور هذا المدخل مفهومه الخاص عن "القارئ المفاوض" من حيث إن "المعنى والآثار يظهران عبر التفاعل بين النصوص وبين الأدوار المفترضة للجمهور (حيث) يرتبط فك الشيفرة بدرجة انشغال الجمهور واهتمامه".[4]

---

[1] مخلوف بوكروح، **التلقي في الثقافة والإعلام**، الجزائر، مقامات للنشر والتوزيع، 2011، ص.121

[2] Éric Maigret, **Sociologie de la communication et des médias**, Paris, Armand Colin, 3ème édition, 2015, p.11

[3] Tai-Li Wang, **The Usage Behaviors, Motivations and Gratifications of Using User-Generated Media: The Case Study of Taiwan's YouTube,** Taiwan, National Taiwan University, Advances in Journalism and Communication, 2014, n° 2, p.p 137-150

[4] أرمان ماتيلار وميشليه ماتيلار، **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة: نصر الدين لعياضي، الصادق رابح، مرجع سبق ذكره، ص.163

أما البحث بفرنسا، فقد ركز على "ممارسات" المستخدمين لا سيما عن طريق أعمال Michel de Certeau الذي يرى أنه ظهر نوع جديد من الإنتاج يشار إليه "بالاستهلاك" الذي يتميز بأن لديه "تكتيكاته وتفتته، ومحضوراته وسريته (...) هذا الاستهلاك لا يشار إليه عبر مواد معينة، بل عن طريق فن استخدام تلك المواد التي تفرض عليها".[1]

فمع الإنتاج المعقلن، ظهر الإنتاج "الاستهلاكي" الذي يعمل بشكل "صامت" وهو غير مرئي، حيث تكون ميكانيزمات المقاومة الناتجة عن توحيد المقاييس (standardization)، وأن "اليومي" يخترع يوميا من طرف أناس عاديين.

ومع التقدم الذي شهده البحث في الاتصال، أعيد تقييم مكانة الجمهور: القارئ أو المستمع أو المشاهد الذي اعترف بقدرته على النقد، حيث تتجلى هذه القدرة على ثلاثة مستويات: "على المستوى السيميائي-عبر المواضيع، الرسائل، الخ...- أو على مستوى بناء الجملة -النوع، الصيغ، الخ... أما الفئة الثالثة فتخص الطريقة التي من خلالها يتصور المشاهد تحول الأنا المعرفي والعاطفي والاجتماعي لديه والذي يؤثر في البرنامج أي النقد "البراغماتي".[2]

في سياق آخر، شكل على الساحة الفكرية تيار**"الدراسات الثقافية"** (cultural studies)خلفية معرفية لكثير من الدراسات، وجدت الأرضية المناسبة للقيام بهذا النوع من الدراسات في أوربا بشكل عام (تحديدا بفرنسا) وفي بريطانيا بشكل خاص، ممثلة الأخيرة في مفكري مركز برمنغهام، لتنصب على دراسة "الأشكال والممارسات

---

[1] Michel de Certeau, **L'invention du quotidien**, Paris, Union Générale d'Editions, 1980, p.79

[2] Tamar Liebes, Elihu Katz, **Six interprétations de la série** « **Dallas** », Traduit par Eric Maigret et Daniel Dayan, HERMÈS 11-12, 1992, p.p 125-144

والمؤسسات الثقافية وعلاقتها بالتغير الاجتماعي"[1]، متسائلة عن "مدى هيمنة الأنماط التي تنشرها وسائل الإعلام على المتلقي، وهل لها القدرة على تعديل وجهة الفعل المهيمن إلى وجهات أخرى؟"[2]

تكون المدرسة النقدية مصدر هذا التيار الذي ينطلق من منطلقات ماركسية من حيث فكرة وجود هيمنة، ولكنها ذات طابع ثقافي يقوم بها من يملكون السلطة، لتمرير رسائل معينة (تخدم مصالحهم) إلى من يعارض هذه السلطة.

وتبعا لذلك، فإن الثقافة قد تحولت إلى حقل للصراع للحصول على الهيمنة. كما بين هذا التيار إمكانية وجود اتصال متعدد "الذي يسمح بتجاوز التعارضات الجذرية بين الثقافة النبيلة المسيطرة والثقافة الشعبية المسيطر عليها."[3]

وقد استعان هذا التيار الفكري لمقاربة الظواهر المدروسة بعدة تيارات فكرية.

أكدت هذه الدراسات على الدور النشيط للمتلقي وأيضا على سياق تلقي المضامين الإعلامية، من خلال التركيز على مجالات بحث دقيقة والمتمثلة في الأنتروبولوجيا ودراسة وسائل الإعلام ونظريات اللغة. كما اهتمت بمسائل تخص الحركات الاجتماعية وتحديدا الحركة النسوية.

انتشر هذا التيار الفكري خلال ستينات القرن الماضي ومن أبرز ممثليه: Hoggart وWilliam وThompson وHall.

تأثر هذا التيار بأعمال النقد الأدبي التي قام بها Raymond Levis في ثلاثينات القرن العشرين، الذي كان يرى بأن تأثير الرأسمالية وتمظهراتها على الساحة

---

[1] أرمان ماتيلار وميشليه ماتيلار، **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة: نصر الدين لعياضي، الصادق رابح، مرجع سبق ذكره، ص.118.

[2] مخلوف بوكروح، ص.125.

[3] Eric Maigret, **Sociologie de la communication et des médias**, Paris, Armand Colin, 2010, p.147, dans :

مخلوف بوكروح، مرجع سبق ذكره، ص.126.

الثقافية والدور الذي تلعبه وسائل الإعلام والاتصال لتعزيز النظام القائم، سيؤثرون سلبا في أشكال الثقافة التقليدية. وقد أثرت أفكاره لاحقا "لتكريس نموذج تربوي، تمثل في رؤية منهجية لمختلف أشكال الإنتاج الأدبي، مؤسسة على التحليل النصي، والبحث عن المعنى والقيم السوسيو-ثقافية (...) وقد تم تبني هذه التقاليد في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، التي شهدت توسع النظام المدرسي من طرف حركة تربوية ضمت جيلا ملتزما من المدرسين في المرحلة الثانوية."[1]

غير أن هذا الجيل على العكس مما كان يدافع عنه Levis عبر تثمينه للثقافة الرفيعة، فقد دافع عن فكرة "التوجهات الذوقية للتلاميذ المنتمين إلى الطبقة العمالية".[2]

يعتبر Hoggart هو من أسهم في "تطوير مفهوم مقاومة الجمهور"[3] الذي يعني به مقاومته للثقافة التجارية. وقد كان كتابه الذي نشره سنة 1957: **"ثقافة الفقير"**[*] نقدا لاذعا لما آلت إليه الثقافة، حيث تأثرت الأخيرة بمجموعة من "التبدلات العميقة التي غيرت جوانب حياة الطبقة العاملة"[4] على عدة مستويات: "العمل والحياة الجنسية والعائلة ووقت الفراغ"[5].

---

[1] أرمان ماتيلار وميشليه ماتيلار، **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة: نصر الدين لعياضي، الصادق رابح، مرجع سبق ذكره، ص.117.

[2] نفس المرجع السابق

[3] Laure Bolka-Tabary, **La circulation des contenus télévisuels au cœur des pratiques médiatiques, perspective sémio-pragmatique et héritage culturaliste**, MEI, n°24-25, 2006

[*] ترجم هذا الكتاب إلى الانجليزية: **The Uses of Literacy**

[4] أرمان ماتيلار وميشيليه ماتيلار، **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة: نصر الدين لعياضي، مرجع سبق ذكره، ص.112.

[5] نفس المرجع السابق

ويأتي دورWilliams الذي صدر كتابه: "**الثورة الطويلة**" عام 1965 مدافعا فيه عن أطروحة العلاقة الكامنة وغير المنفصلة بين الثقافة والمجتمع، ناقلا من خلال هذه الفكرة الثقافة إلى الفئات الواسعة من المجتمع، حيث اعتبر الأدب والفن جزءا لا يتجزأ من الاتصال الاجتماعي من خلال تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض.

أما Thompson فقد بين العلاقة القائمة بين وسائل الإعلام والاتصال ونمو المجتمعات الحديثة. وبالرغم من استحسانه لأفكار Habermas، إلا أنه ينتقده على أساس أن "موقف مدرسة فرنكفورت من صناعة الثقافة كان يتسم بالسلبية البالغة. فوسائل الإعلام الحديثة، في رأيه، لا تحرمنا من فرصة التفكير النقدي؛ بل إنها في واقع الأمر تقدم لنا أشكالا كثيرة من المعلومات التي لم يكن بوسعنا أن نحصل عليها في الماضي."[1]

فهو يرى بأن مفكري مدرسة فرنكفورت يتصورون المتلقي لوسائل الإعلام والاتصال كأفراد سلبيين، لا يمكنهم أن يدركوا الإيديولوجية المضمرة التي تحملها هذه الوسائل، كما أنه ليس بقدرتهم إبداء رأي مخالف لما يُعرض أمامهم من معلومات.

بالعكس من ذلك، يرى Thompson أن المتلقين قادرون على إدراك المعاني الخفية وراء الرسائل الإعلامية، وبقدرتهم تفسيرها والتعقيب عليها بشتى أشكال التعبير الممكنة.

ومهدت هذه الدراسات بروز زاوية جديدة للتحليل والمتمثلة في تحليل المضامين الثقافية لوسائل الاتصال الجماهيرية وبشكل خاص التلفزيون، يمثلها Hall من خلال دراسته الشهيرة: **Coding and Decoding** الذي يعتبر أول من قام بدراسة إمبريقية داخل تيار فكري نقدي.

[1] أنتوني غدنز، مرجع سبق ذكره، ص.516

ينطلق Hall من فكرة مفادها أن "المنتجين أو مرسلي الخطابات التلفزيونية يتصرفون داخل عالم مهيمن؛ فقد يصطدمون بمشاهدين لا ينضمون إليه أو يعيدون تشكيله."[1]

فما يوده القائم بالاتصال عبر عملية **التشفير**(coding) لا يتناسب دائما مع عملية **فك التشفير**(decoding). تتدخل في العملية قوى سوسيو-اقتصادية وسياسية مرتبطة بهوية وتاريخ المتلقي التي تحدد في آخر المطاف تأويلاته.

ويحدد المعنى النهائي الذي يؤول به المتلقي "النص التلفزيوني" عن طريق "الاجتماعي، (إذ) تحدد المكانة الاجتماعية الوصول أو عدم الوصول إلى الشيفرات الثقافية الأساسية لفك الشيفرة".[2]

ولا يوجد بالضرورة دائما تطابق بين شيفرات المرسل والمتلقي. تنتج قلة التطابق بين التشفير وفك التشفير بشكل كبير عن "الاختلافات البنيوية للروابط وموقع المرسلين وجمهورهم، وأيضا عن عدم التماثل بين شيفرات المصدر والمتلقي أثناء عملية التحول من خلال الشكل الاستدلالي."[3]

بينت دراسة للإنتاج أن "الإكراهات المؤسستية والبنيوية تؤثر في سيرورة التشفير بفرض أسلوب للعرض على الشاشة، لغة سمعية-بصرية... التي تجعل المشاهدين يخلقون دلالة واحدة، وبذلك ينقصون من تعدد معاني التلقي".[4]

---

[1] Anne Astou Lopes, **Les différentes perceptions des chaînes de télévision internationale en période de conflit**, Maîtrise en communication, Université de Québec, Juin 2009, p.16

[2] Laure Bolka-Tabary, op.cit.,p.215

[3] Stuart Hall, **Encoding and decoding in the television discourse**, University of Leicaster, Organised by the council and the centre for mass communication research, 1973, p.04

[4] Didier Courbet, Marie-Pierre Fourquet-Courbet, **Les influences de la télévision : Etat des recherches**, De Boeck Université, colloque : Médias Recherches-INA, 2003, p.p 9-21

لذلك، يميز Hall بين ثلاثة أنظمة لفك شيفرة محتوى الرسائل التلفزيونية؛ فقد يكون "مهيمنا أو مفاوضا أو معارضا."[1]

يتماشى النظام الأول مع تأويل الرموز بطريقة مشابهة للطريقة التي وضعها المرمزون أو في نفس الإطار التأويلي الذي تم وضعه. فيتم تسيير مجموعة من الرموز في المواد الإعلامية التي تبث عن طريق عرض مجموعة من الأحداث، "بالاختيار الدقيق لظروف وحجم العرض وانتقاء الأشخاص واختيار الصور وإخراج النقاش، حيث يتم انتقاء كل هذه العناصر عن طريق عملية الرمز المهني."[2]

يخضع **الرمز المهني**(professional code) لمعايير مهنية تبدو محايدة (اختيار الصور، إخراج الحوارات والنقاشات، الخ...)؛ غير أنها معايير موجهة لإعادة إنتاج الرموز المهيمنة.

في هذه الحالة، يستقبل المتلقي الرسائل التلفزيونية بشكل سلبي ولا يقوم بأي مقاومة اتجاه محتواها. وهذا هو الاعتقاد السائد إلى وقت ما، وحتى إنها الغاية المرجوة من استخدام وسائل الإعلام والاتصال.

أما النظام الثاني، فيكون فيه المشاهد مفاوضا، بمعنى أنه يقبل جزءا من الرسائل التي يتلقاها، غير أنه يكيفها أو يعارضها بشكل ما. وهذا المتلقي هو وسيط بين نموذجي: المهيمن والمعارض.

يظهر الرمز المفاوض من خلال "التناقضات الموجودة أو التي تظهر بين مستويات الترميز المهيمنة، والطريقة المفاوضة والخصوصية في فك هذه الرموز."[3] هذا الجمهور المفاوض يتفق مع القيم المسيطرة بشكل جزئي، غير أنه يقوم بفك رموز التشفير ويؤولها استنادا إلى واقعه المعيش.

---

[1] Laure Bolka-Tabary, op.cit.

[2] Ibid., p.16

[3] عزيز لعبان، **الخليفة النظرية لبحوث الإعلام**، الجزائر، مجلة الوسيط في الدراسات الجامعية، الجزء الرابع، دار الهومة، 2003، ص.15.

أما الصنف الثالث والمتمثل في الجمهور المعارض، فسيقوم بتأويل الرسالة التلفزيونية ضمن إطار مرجعي مغاير. هنا، المتلقي يتعارض كل التعارض مع ما يتلقاه من مواد تعرض عبر التلفزيون، تبعا للإيديولوجية التي يتبناها.

ولإدراك ما يحدث مع عمليتي: التشفير وفك التشفير، قسم Hall عملية الاتصال التلفزيونية إلى أربع مراحل: الإنتاج والتداول والتوزيع/الاستهلاك وإعادة الإنتاج، تتحكم فيها العلاقات المؤسساتية، ولكل واحدة منها أسسها وإجراءاتها. لكل مرحلة من هذه المراحل خصائص، غير أنها مرتبطة ببعضها البعض ضمن سيرورة اتصالية.

يتجسد الإنتاج في وسائل الإعلام والاتصال عن طريق مجموعة من الممارسات التي تنتج عن العلاقات الاجتماعية للإنتاج من خلال مجموعة من الشيفرات.

ثم إن الخطاب المنتج ينتشر ويتداول بين المتلقين المختلفي الانتماءات. في مرحلة الاستهلاك، يتحول الخطاب إلى دلالة جديدة يضفيها عليه المتلقون.

كما للدراسات التي قام بها الأمريكي Lull James في مجال تأثير التلفزيون والتي أشار إليها David Morley في عدة مواضع أهمية كبرى في التراث الأنتروبولوجي، إذ أكد على أهمية "الملاحظة المعمقة للأسرة كجماعة طبيعية للمشاهدة".[1]

في مقال له بعنوان: **الاستخدامات الاجتماعية للتلفزيون**، اهتم Lull "بالطرق التي يستخدم بها التلفزيون والذي يصفه "بالمورد المحيطي" (environmental resource)(...) الطريقة التي تسهم عن طريقها مشاهدة التلفزيون في هيكلة اليوم، وتسيير الوقت والنشاط العائلي -مثل أوقات الواجبات، وأوقات الأعمال المنزلية وهلم جرا."[2]

---

[1] Serge Proulx, op.cit

[2] David Morley, **Family television, Cultural power and domestic leisure**, London and New York, A Comedia Book, ,Fifth Edition, 2005, p.32

أما الدراسات الحديثة ل Lull، فقد ركزت على "المقارنة بين الاستخدامات الأسرية للتلفزيون في ثقافات العالم المختلفة."[1]

وقد تناول Morley في دراسته للتلفزيون مسألة التكنولوجيا كفضاء للتفاعل الأسري. فالتلقي من هذا المنظور هو سيرورة مهمة لبناء المعنى من طرف المشاهد.

فقد اهتم بالتأثير الذي يحدثه امتلاك التكنولوجيا (جهاز التسجيل، حاسوب) في الأسر، مسلطا الضوء على "أهمية سياق الاستقبال حيث سيتم الانتقال من دراسة النصوص إلى دراسة الجمهور إذ سيحل محل مفهوم **"سياق المشاهدة"** مفهوم "فك الترميز".[2]

سيحاول Morley فهم فعل المشاهدة في حد ذاته، بدلا من التركيز على برنامج معين. في مؤلفه: **التلفزيون العائلي: السلطة الثقافية والترفيه المنزلي**، سيقوم الباحث بعرض مجموعة من الدراسات التي اهتمت بالاستخدامات الأسرية للتلفزيون، وكيفية تفاعل المتلقين (باختلاف العائلات وانتمائها الطبقي والإيديولوجي ودخلها وطبيعة العلاقات السلطوية بين الأولياء وأبنائهم) وتأويلهم لمحتوى الرسائل التلفزيونية، معتبرا "الطبقة الاجتماعية أو الدخل كمؤشر أكثر مما هو عامل يؤثر مباشرة في تحليل الأبعاد الاجتماعية للمشاهدة التلفزيونية وتأويل الرسائل."[3]

كما سيبرز التقسيم غير المتكافئ لمشاهدة البرامج التلفزيونية، والتي تتحدد بشكل عام من طرف الوالد الذي يعبر بذلك عن سلطته داخل الفضاء العائلي.

ويعتبر Morley "العلاقات الأسرية كباقي العلاقات الاجتماعية والتي هي أيضا علاقات قوة لا محالة"[4]، حيث يقوم الأب "بمراقبة اختيار البرامج التلفزيونية"[5]، محددا بذلك ما سيشاهده بقية أعضاء الأسرة.

---

[1] Serge Proulx, op.cit

[2] Florence Millerand, **David Morley et la problématique de la réception**, Université de Montréal, 1997

[3] علي قسايسية، **جمهور وسائط الاتصال ومستخدموها**، الجزائر، دار الورسم، 2011، ص.94

[4] David Morley, op.cit., p.36

[5] Ibid.

أشير إلى مقاربة أخرى قام بها كل من Kubey وCsikszentmihalyi اللذان قاما بالدمج بين منظور نفسي ومقاربة كمية خاصة.

فقد لاحظا أن "الأفراد الذين يجدون متعة في تواجدهم داخل الأسرة هم أكثر ميلا لمتابعة التلفزيون مع أعضاء أسرتهم"[1].

وبذلك، بدلا من أن ينجر عن متابعة التلفزيون نفور أعضاء الأسرة الواحدة من بعضهم البعض، هو بالعكس من ذلك يشجع على النقاش والاتصال مما يعزز لا محالة التلاحم الاجتماعي.

كما انصبت تحليلات خاصة بالتلقي على أفراد ينتمون إلى فئات سوسيو-اقتصادية أو تجمعات إثنية-ثقافية مختلفة، بمقارنة "تحليل محتوى الرسائل بتحليل التصورات المتباينة لهذه الرسائل، عن طريق أعمال كل من Katz و Liebes حول فك التشفير المتباين لمسلسل Dallas من طرف المشاهدين في ألمانيا والجزائر والدانمارك وبريطانيا وهولندا، وأيضا من طرف مهاجرين من أصول عرقية متعددة في إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية."[2]

كان الهدف من القيام بهذه الدراسة رصد ردود فعل تلك الجماهير المختلفة عن ذلك المسلسل الذي بث عام 1978 في شتى أرجاء العالم، مبرزين الأحكام النقدية الموجهة لهذا المسلسل، عبر تحديد كيفية تأويل الجماهير المختلفة لمعنى نص تلفزيوني *، معيدين تشكيل النص كما يحلو لهم.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى، ظهرت نظريات جديدة أخرى ذات توجه مميز، لا تستند لا إلى افتراضات المدرسة الإمبريقية ولا إلى افتراضات المدرسة النقدية؛ يتعلق

---

[1] Serge Proulx, op.cit.

[2] Ibid.

* يمكن أن تكون هنالك عدة قراءات لمضمون مسلسل Dallas، تبعا للسياق السياسي والثقافي والمعرفي الذي يصاحب مرحلة تحليله وتأويله.

الأمر **بالحتمية التكنولوجية** (technological determinism) التي يمثلها كل Harold Innis وMarshall Mc Luhan.

فقد بين هذان الباحثان دور **"الميديا"** (media) في عملية الاتصال وحتى تأثيرها في تنظيم المجتمعات. وقد فضلا في تحليلهما "التكنولوجيا التي تستخدمها الميديا المهيمنة في كل مرحلة"[1]، باعتبارها نسقا اتصاليا في المجتمع في مرحلة من مراحل تاريخه.

يصرح Mc Luhan قائلا بأنه "الوسيلة هي الرسالة (...) والنتائج الشخصية والاجتماعية المترتبة عن أي سند هي امتداد لأنفسنا"[2].

فوسائل الاتصال هي امتداد للإنسان، تفعل حواسه الاتصالية، مكتسبة معنى في حد ذاتها ومتجاوزة محتوى المعلومة. بذلك، فالوسيلة هي التي تؤثر (وليس المحتوى) في الأفراد والتي ستكون أهم من الرسالة (المحتوى).

كانت لأعمال Mc Luhan إسهامات كبيرة حتى في تغيير بعض المفاهيم. ففي نهاية ستينات وبداية سبعينات القرن الماضي، أسهمت أطروحاته في "تعميم كلمة "ميديا" والتنازل عن عبارة "وسائل الإعلام الجماهيرية""[3].

ولم يكن هذا الانتقال إلى هذا المفهوم بدون دلالة؛ فقد مكن توسيع استخدام مفهوم الميديا من الانتباه إلى نقطة في غاية الأهمية والمتمثلة في "انتقال الانتباه من معالجة "سلطة" الصحافة أو التلفزيون إلى سلطة المؤسسات التي نشأت عنها، ونمط تنظيمها وعملها وجماهيرها المختلفة"[4]، كإدراك للسلطة الجديدة التي تمارسها المؤسسات الإعلامية، باعتبارها تنظيمات مهيكلة.

---

[1] Judith Lazar, **La science de la communication**, op.cit., p.29

[2] Marshall Mc Luhan, **Understanding Media, The extensions of man**, London and New York, 1964, p.9

[3] Francis Balle, **Médias et sociétés**, Paris, Editions Montchrestien, 11ème édition, 2003, p.8

[4] Ibid.

وتتمثل الفكرة الأساسية ل Mc Luhan في أن وسائل الإعلام والاتصال هي جزء لا يتجزأ من التطور التكنولوجي الذي عرفته المجتمعات.

كما أنه يؤكد على أن "الاختراعات التكنولوجية العامة هي التي تؤثر أساسا في المجتمعات، (كما يؤكد(على أن التحول الأساسي في الاتصال التكنولوجي يجعل التحولات الكبرى تبدأ ليس فقط في التنظيم الاجتماعي، ولكن أيضا في الحساسية الإنسانية".[1]

من هذا المنطلق، يؤكد Mc Luhan بأنه بفضل التطور التكنولوجي الخاص بكل مرحلة من مراحل تاريخ المجتمعات *، برزت أشكال جديدة من الحياة الاجتماعية، مما أثر هذا الوضع في التنظيم الاجتماعي الخاص بالمجتمعات مع كل اختراع جديد.

كما أن Mc Luhan اعتبر بأن وسائل الإعلام والاتصال قد أدت إلى اختزال الزمان والمكان، وبدأت تتبنى مقولته المشهورة، عندما قال بأن العالم أضحى قرية صغيرة، رابطا هذه المقولة بوسائل الإعلام والاتصال التي أضحت تربط في وقت قصير الأفراد والمجتمعات.

بيد أن Dominique Wolton ينتقد هذا التصور الذي آلت إليه البشرية، حيث يرى بأنه إن كانت "الأنساق التقنية مربوطة بالإنترنت، الأفراد والمجتمعات نادرا ما يرتبطون ببعضهم البعض. لذلك، التطور التقني هو في ذات الوقت أحسن وأسوء ما يحدث للاتصال".[2]

---

[1] بسام عبد الرحمن المشاقبة، **نظريات الاتصال**، الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2015، ص.156.

* فقد حول اختراع الطباعة شكل الحياة الاجتماعية في القرن الخامس عشر، إذ قضى ذلك على احتكار الكنيسة والطبقة الأرستقراطية للكتب حيث انتشر تداولها بين عامة الناس، كما أدى ذلك إلى ظهور الدوريات مما عمم وصول الأفكار والمعلومات إلى الجميع، بدون استثناء.

[2] Dominique Wolton, **La communication, les hommes et la politique**, Paris, CNRS Editions, 2015, p.659

فالاتصال كما نعرفه اليوم بتعدد قنواته وسرعة بث المعلومة واستقبالها، قد أدى إلى تعدد التبادلات وآنية الحصول على المعلومة.

غير أنه في ذات الوقت لم يمكن من تفعيل الاتصال، حيث أدى هذا الواقع الجديد إلى "جعل أكثر وضوحا عناء اللااتصال (incommunication)"[1]، حيث ينتج الأخير عن "الإحساس المتبادل بعدم الوصول إلى تفاهم (عدم رضى)، أو الاعتقاد بأنه قد تم التفاهم بينما لم يتم ذلك".[2]

كان ذلك عن بعض التوجهات المتعددة للبحث في الاتصال.

3) الدراسات الحالية في الاتصال:

وشيئا فشيئا، التفت علوم الإعلام والاتصال حول قضايا الإعلام والاتصال ودراسة الظواهر التي برزت بعيد الثورة الصناعية والتي مهدت لثورة الاتصالات، إذ تطور الاتصال بشكل مذهل لم تشهده البشرية من قبل، والرسائل السمعية والسمعية البصرية أضحت تحيط بنا حيثما توجهنا، بدون أن ننسى تلك الخاصة باللغة الموازية.

تنصب الدراسات الحالية في الاتصال على دراسة "اليومي"، لما يلعبه الاتصال في الحراك اليومي، ضمن وتيرة متسارعة ومستمرة. ولم يكن أحد يتوقع هذا الانتشار الموسع والمتسارع لوسائل الإعلام والاتصال الجديدة بعد الثورة المعلوماتية وتجلياتها على المستوى المحلي والعالمي.

وتدريجيا، تطور البحث في مجالي: الإعلام والاتصال الذي كان في بدايته عبارة عن بحوث مبعثرة من هنا وهنالك، يقوم بها مفكرون في السياسة وعلم الاجتماع وعلم النفس واللغة والإدارة والمعلوماتية وغيرها من التخصصات، لتتوحد وتتكثف في تخصص له إرهاصاته ومناهجه والنظريات التي تقعد للبحث فيه.

---

[1] Ibid.

[2] Eric Dacheux, **L'incommunication, sel de la communication**, La Revue- Cognition, CNRS-Editions, 2015,
No. 71, p.p 266-271

ما يجب التذكير به هو الطابع المتعدد التخصصات الذي برز فيه حقل البحث في علوم الإعلام والاتصال. ونحن نعلم جيدا أن أي حقل علمي وهو في البحث عن مكانته وتحديد موضوعه، إلا ويصطدم بمعرقلات وبتداخله مع تخصصات أخرى، حتى في علوم الطبيعة.

وحتى عندما وجد مهتمون بحقلي: الإعلام والاتصال، فإنهم كانوا من تخصصات مختلفة (علم النفس الاجتماعي، مسرح، أدب، علم الاجتماع،...) وكانت محاولاتهم محتشمة، كما كانوا يفتقدون للغة مشتركة، مما وقف عائقا ليكون هذا التخصص قائما بذاته.

ونحن نعرف كم هي مهمة المفاهيم لتحديد لغة خاصة بكل تخصص علمي، حيث كان يرى Aristotle أن التعريف والبرهنة هما ركيزتا أي علم كان.

البحث العلمي مسيرة مستمرة بين القطيعة (مع أحكام القيمة والحس المشترك) والبناء، عبر تحديد مواضيعه بشكل دقيق، من خلال "صياغة وتحويل موضوع المعرفة في حد ذاته، والبناء المنظم وإثبات صحة الظواهر الملاحظَة"[1]، عبر تحديد شكل الموضوع الذي لا يتعلق بمحتواه بل باللغة المستعملة فيه. فتُضفى على الموضوع تلك الصبغة العلمية التي تميز حقلا علميا معينا. على هذا المستوى، يتم تحديد "بناء الموضوع العلمي بتحديد التصورات الخاصة بواقع هذا الموضوع."[2]

المعرقل الذي واجهه البحث في علوم الإعلام والاتصال أنه لم تكن لدى الأخيرة لغة مشتركة في بداية تشكيلها [*]. بالرغم من ذلك، كان هنالك اهتمام مشترك بين مؤسسي هذا الحقل العلمي، علما بأنهم كانوا من تخصصات متباينة، ويؤدون وظائف مختلفة، من خلال عرضهم "آراء ناقدة ومستقلة التي تود تغيير المجتمع والرجال،

---

[1] Paul de Bruyne, Jacques Herman, Marc de Schoutheete, op.cit., p.47

[2] Michelle Lessard, Hébert Gabriel Goyette, Gérald Boutin, op.cit., p.14

[*] هذه المسألة لم تكن خاصة بعلوم الإعلام والاتصال، ولكنها خاصة بتشكل كل العلوم، إذ يود كل تخصص إيجاد لغة مشتركة يتفاهم عليها الباحثون فيه ويجمعون على تحديد معانيها.

واهتمام كبير بالتقنيات"[1] التي غيرت نمط العيش وسلوكات الأفراد وعلاقة الإنسان بالآخر. فظهور وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية كان له الأثر الكبير في تغيير نمط عيش الأفراد وتغيير علاقاتهم ببعضهم البعض، كما أفرز ظواهر جديدة للاتصال، مما مثل فضاء جديدا للبحث في علوم الإعلام والاتصال وتميز مواضيعها.

وقد شهدت العقود الخمسة الماضية جدلا ما زال قائما إلى وقتنا الراهن حول واقع وآفاق البحث في **علوم الإعلام والاتصال**. يرجع هذا الجدل إلى طبيعة علوم الإعلام والاتصال في حد ذاتها من حيث مكانتها، كما أنه يرجع إلى طبيعة البحث في هذا المجال من جهة أخرى. فما يواجه الباحث في هذا المجال خصوصا في العالم العربي هو تحديد طبيعة البحث في الإعلام والاتصال، مجالاته والمشاكل التطبيقية والمنهجية التي يعاني منها، مما يقف عقبة أمام تطور البحث في هذا الحقل. ويتعقد الأمر أكثر لما يتعلق الأمر بمجال البحوث الكيفية التي تستخدم بشكل خاص تقنية تحليل المحتوى؛ فهذان المتغيران يؤزمان المسألة بشكل أكبر.

لا يجب أن ننسى بأن هذا التخصص حديث النشأة، والعديد من المسائل المنهجية والنظرية وحتى التطبيقية ما تزال مطروحة حوله.

ثم، إنه يمكن التساؤل عن أسباب ظهور علوم الإعلام والاتصال في هذه الفترة بالذات. فقد ظهرت عوامل خاصة أدت إلى ظهورها لأن "مجتمع الاتصال يحتاج إلى علم يدرس عمليات الإعلام والاتصال الناجمة عن أعمال منظمة، هادفة، مرتكزة على التقنيات، ومشاركة في أشكال التواصل الاجتماعية والثقافية".[2]

فمسألة تعميم استخدام **وسائل الإعلام والاتصال** وظهور الإنترنيت بما يقترحه من خدمات واستخدامات جديدة، والنتائج التي تتولد عن هذا الواقع الجديد الذي يندرج

---

[1] Dominique Wolton, **De l'information aux sciences de la communication**, France, Hermès, n°48, 2007, p.p 189-202

[2]Bernard Miège, **La pensée communicationnelle**, Grenoble, Pug, 1995, p.p3-84, in :
مي العبد اللـه ، **البحث في علوم الإعلام والاتصال**، بيروت، دار النهضة العربية، 2011، ص.37

ضمن **العولمة المعلوماتية** فتح أبوابا جديدة للبحث، إذ نجمت عنه ظواهر اتصالية جديدة لم تعرفها البشرية من قبل. بالتأكيد أن عملية الاتصال ليست بالجديدة أو المستحدثة؛ فقد عرف الإنسان الاتصال منذ أن وجد على الأرض بأشكاله المختلفة.

يعرف Wright **الاتصال** على أنه تلك العملية التي "توجد علاقات اجتماعية، وتنمو وتتطور الرموز العقلية بواسطة وسائل نشر هذه الرموز عبر المكان واستمرارها عبر الزمن."[1]

فالمعروف أنه لو لا الاتفاق على معان موحدة لتفسير **الرموز** الموجودة في محيط الأفراد، لما كان في الأصل اتصال بينهم.

وعن طريق الاتصال تخلق العلاقات الاجتماعية التي لا تبقى على حالها، بل تتطور خالقة رموزا كإنتاج ثقافي تحمل معان يدركها أفراد الجماعة الاجتماعية الذين يتبادلونها، والتي تشترط الاستمرارية في الزمن وتواجدها في مكان معين. ولا يتم ذلك بالتأكيد إلا عبر **وسائط** (mediums) تؤمن وظيفة نقل هذه الرموز.

كانت هذه الوسائط أو الوسائل قبل الثورة التقنية التي عرفتها البشرية في العقود الأخيرة تقليدية، إذ إنها كانت وسيلية حيث تتم عملية الاتصال بين الأفراد في اتجاه واحد، كما أنه كان يُنظر إلى المستقبِل كفرد سلبي يمكن التأثير فيه بمجرد تلقيه الرسائل الإعلامية.

رافقت وسائل الاتصال البشرية منذ أن وجد الإنسان على الأرض كالدخان والحمام الزاجل وقرع الطبول. ثم باختراع الطباعة، انتقلت البشرية نقلة نوعية نحو تعميم قراءة الكتب وميلاد الصحافة المكتوبة. ثم في بداية القرن العشرين، امتدت ثورة الاختراعات إلى الإذاعة فالسينما فالتلفزيون.

---

[1] محمود عودة، السيد محمد خيري، **أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي**، بيروت، دار النهضة العربية، 1988، ص.7 في:

فضيل دليو، **الاتصال، مفاهيمه، نظرياته، وسائله**، القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2003، ص.15.

غير أنه ظهرت تكنولوجيات جديدة أثرت في وسائل الاتصال حتى التقليدية، مكنت البشرية هذه المرة من المرور إلى الثورة الرقمية التي قلبت الكثير من الموازين، وغيرت هذه المرة "باسم الإنسانية" و"التقدم" خريطة توزيع المعلومات.

مما زاد من اتساع نطاق مقولة Mc Luhan بقوله إن "العالم أصبح قرية صغيرة"، هو "مراحل التقدم المثيرة التي تحققت في مجالات الاتصال وتقانة المعلومات والمواصلات."[1]

ما تتميز به وسائل الإعلام والاتصال الجديدة هو **التفاعل** (interaction) الذي ينتج عن عملية الاتصال التي على خلاف وسائل الإعلام والاتصال التقليدية، فهي تتم بتفاعل كلا طرفي العملية الاثنين: المرسل والمتلقي، من خلال الحوار بين الأطراف المتصلة. كما أنها تتميز بميزة أخرى ألا وهي "فردانية الاتصال المعلوماتي الذي يقابل الاتصال الجماهيري".[2]

فالذي يميز وسائل الإعلام والاتصال خصوصا الجديدة منها، هو أنها تجعل الفرد يتواصل عن طريق وسيط بدون الحاجة إلى التواصل بشكل مباشر مع الطرف أو الأطراف الأخرى، مما ينجر عنه ما يسمى **"بالاتصال الفرداني"**.

كما أن الخاصية الأخرى لهذه التكنولوجية الجديدة تتمثل في "اللاتزامن"[3]. فعن طريق هذه التكنولوجية التي تمكّن من جعل عملية الاتصال لاتزامنية، فإن المتلقي يمكن أن يؤجل اتصاله متى يشاء.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى، أدى **التدفق المعلوماتي** الذي تعرفه البشرية حاليا إلى احتكاك مجتمعات نائية بالعالم "المتقدم"، وبالتالي إلى إدراك الهوة التي تفرق بينهما، حيث "تحمل وسائل الاتصال والإعلام العالمية كل يوم الأنباء والصور

---

[1] عبد الغني عماد، مرجع سبق ذكره، ص.116.
[2] أ.لارامي، ب.فالي، مرجع سبق ذكره، ص.90
[3] نفس المرجع السابق، ص.ص90-91

والمعلومات إلى الناس في بيوتهم حيثما كانوا، وتخلق صلة دائمة بينهم وبين العالم الخارجي."[1]

تُعرَّف وسيلة الإعلام والاتصال على أنها "وسيط"، كما أنها "أداة وتقنية تمكّن الأفراد من التعبير والإيصال إلى الآخرين هذه العبارة مهما كان الموضوع أو الشكل. ولكنها تُعرَّف كذلك باستخداماتها التي تشير إلى دور محدد والطريقة الأمثل لتأدية هذا الدور".[2]

هذه الوسائط هي كذلك أدوات، بل وحتى تقنيات تطلبت مهارات وكفاءات لإنجازها، حيث مكّنت الأفراد على تنوعهم وتواجدهم في أماكن متباعدة من التواصل بينهم وإيصال أفكارهم، مهما كان محتواها والشكل الذي تُقدّم فيه بسرعة لم يتصورها العقل البشري من قبل. كما أنها تُحدَّد حسب استخداماتها والدور الذي يمكن أن تلعبه داخل النسق الإعلامي وحتى النسق الاجتماعي كجزء لا يتجزأ منه، يعكس قيمه ونسق الرموز الخاص به. لذلك، فهي تُستخدَم لأهداف معينة ولتقوم بوظائف محددة داخل النسق الاجتماعي.

بيد أنه قد نتجت عن **الثورة الرقمية** التي عرفها العالم **"فجوات رقمية"**، عدم المساواة في الوصول إلى تكنولوجيات الإعلام والاتصال.

وتُعتبر "عدم المساواة في النفاذ التواصلي في مجتمع المعلومات والمعرفة، من أهم التحديات الناتجة عن هيمنة الدول المتقدمة على إنتاج وتوزيع التكنولوجيات الرقمية للإعلام والاتصال."[3]

---

[1] أنتوني غدنز، مرجع سبق ذكره، ص.123

[2] Francis Balle, **Les médias**, Paris, PUF, 2004, p.3

[3] فضيل دليو، **الفجوات الرقمية في عصر العولمة**، ص.ص 185-202، في:
مجموعة من الباحثين، سلسلة أعمال الملتقيات، **العولمة والهوية الثقافية**، جامعة قسنطينة، مخبر علم الاتصال للبحث والترجمة، 2010

ما يحدث في الوقت الراهن هو أن تدفق المعلومات يتم في اتجاه واحد، مع التزايد المستمر للفجوة المعلوماتية بين الدول التي تنتج وتوزع المعلومة- والتي هي في آن واحد تلك مؤسسات الإنتاج والتوزيع- وتلك التي تستهلكها فحسب. فتدفق المعلومات يخضع لقواعد تمييزية واضحة، تبرز الفجوات بين الدول وتعزز مبدأ اللامساواة بينها.

وعكس ما كان يتنبأ به المتفائلون بمستقبل وآفاق العولمة على البشرية، فقد أدى اختراع التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال إلى تحديد **"جغرافية للإبداع"**[1]، كمنطقة تتحدد عن طريقها الدول التي تخترع والتي تستهلك فحسب. ومن هنا، حدث عكس ما كان منتظرا. نجد أن "جغرافية تمركز هذه الشبكة الرقمية وتطورها المتسارع تكاد تتطابق مع جغرافية الإبداع: الشمال والحواضر الكبرى."[2]

عزز هذا الوضع تمركز قطاع الاقتصاد الرقمي في رقعة جغرافية محددة، بدلا من أن يكون مجالا لتبادل الخبرات والمعارف.

وهكذا، أدت الثورة الرقمية إلى فجوة وحتى إلى فجوات رقمية، تسيرها مؤسسات الاقتصاد الرقمي بتوجيه تنظيمها ونشاطاتها نحو تدعيم مركزية خدماتها، وإعادة تشكيل قطاعات المجتمعات المختلفة، مما سيزيد من حدة الفجوة الرقمية. أدى هذا الوضع إلى التشكيك حتى في وجود **"مجتمع معلومات"** (information society).

يرى Castells أن مجتمع المعلومات يتكون من "عدد من العناصر المتداخلة من بينها الرأسمالية، أو بالأحرى الرأسمالية المعلوماتية ومناهضة العولمة الرأسمالية. ولكن تكنولوجيات المعلومات والاتصال هي التي سهلت هذه التطورات ومكنت الشبكات من تنظيم أنشطتها."[3]

---

[1] فضيل دليو، مرجع سبق ذكره

[2] نفس المرجع السابق

[3] بول هوبر، **نحو فهم للعولمة الثقافية**، ترجمة: طلعت الشايب، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2011، ص.108.

كما يرى أن ميلاد مجتمع المعلومات هو نتاج "لعمليات ثلاث مستقلة: ثورة تكنولوجيات المعلومات في السبعينات، وإعادة هيكلة الرأسمالية والدولانية في ثمانينات القرن العشرين، والحركات الاجتماعية في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين وبخاصة "النسوية" و"البيئية"".[1]

كل هذه المسائل تفتح آفاقا جديدة للبحث في الاتصال. فقد تعقدت العمليات الاتصالية وتنوعت وتعددت من حيث المضمون والشكل، حيث ظهرت ظواهر اتصالية جديدة لم تعرفها البشرية إلا في السنوات القليلة الماضية، كظاهرة الرنة القصيرة (bipage) التي تعبر عن مضامين اتصالية مختلفة بين من يرسلها ومن يستقبلها، عن طريق رموز ودلالات يتفق عليها كلا الطرفين الاثنين، وما خلقه إرسال الرسائل القصيرة والمواقع الاجتماعية من لغة جديدة كانت وما زالت محل اهتمام الكثير من الباحثين، علما بأن تحليل الظواهر الاتصالية يتم على ثلاثة مستويات: اللغة المكتوبة واللغة الشفهية واللغة الموازية. وتُعتبر هذه الأخيرة مجالا خصبا تكون فيه الدراسات نادرة؛ هي مجال يهتم بكل أشكال الاتصال غير المكتوبة وغير الشفهية.

وتكثفت الدراسات الإعلامية بوجه خاص والدراسات التي تمس الحياة الاتصالية بتفرع الظواهر فيها وتعقدها بوجه عام، خصوصا بعد الانتشار الموسع لوسائل الإعلام والاتصال الجديدة، خالقة زوايا جديدة للدراسة نظرا للوظائف المختلفة التي تؤديها والرهانات التي تدور حولها، مما استدعى وجود علم قائم بحد ذاته يعالج هذا النوع من الظواهر. وإلى غاية ستينات القرن الماضي كان ينظر إلى الاتصال بشكل خطي: مرسل يقوم بإرسال رسالة ذات محتوى معين إلى متلق، فيقع الأثر المنتظر. بيد أن هذا التصور الميكانيكي للعملية الاتصالية قد تم تجاوزه إثر إدراك بعض المفكرين بأن هذه العملية أعقد مما كان يعتقد، فظهرت نماذج اتصالية جديدة تأخذ بالحسبان تأثير المحيط والشخصية المعقدة للمتلقي.

---

[1] نفس المرجع السابق

كما تم احتواء دراسات الاتصال في العقود الأخيرة من طرف مختصين في الاتصال، بعدما كانت الدراسات تقام في هذا الحقل المعرفي من طرف باحثين من فروع علمية متعددة، فاستقلت علوم الإعلام والاتصال كتخصص دقيق قائم بذاته من حيث المواضيع والمشاكل التي تعالجها، فأضفى هذا الواقع العلمي الجديد تجانسا في الأفكار والمناهج وطرق التقصي في هذا الحقل العلمي، وخلق معاهد متخصصة يدرس فيها هذا التخصص، وإنشاء مجلات ومراكز بحث متخصصة في هذا المجال.

ونحن نشهد ابتداء من عام 2000 عصر المواقع الاجتماعية وتعدد الوسائط والركائز التي تمكن من الاتصال، حيث نتج عن هذا الوضع الجديد نموذج مهيمن خاص "بالمجالات والتدفقات والنظم الإيكولوجية".[1]

هو عهد انفجار الاتصال الذي لم يعد ينظر إليه بشكل خطي، ووسيلة الاتصال أضحت **"وسطا"** (middle) حيث "يتحرك فيه الأفراد وينمون".[2] ولم تعد الرسائل تخضع لنفس المنطق البسيط من خلال إرسالها من طرف مرسل إلى متلق عبر وسيلة اتصال معينة؛ فقنوات الاتصال تعددت وتشعبت وتعقدت ولم يعد سهلا تحديد مصدر الرسائل والتعرف الدقيق على متلقيها. وبالتالي، يتم تجاوز الكثير من نماذج الاتصال نظرا لعدم ملاءمتها للعملية الاتصالية التي أضحت معقدة. بيد أنه بالرغم من بساطة نماذج الاتصال التي كانت سندا للكثير من الدراسات، إلا أنها ما زالت صالحة (على الأقل بعضها) لإدراك الفعل الاتصالي.

فها هو نموذج Roman Jakobson الذي طبق في بدايته على تحليل الفعل اللغوي، يتم إسقاطه فيما بعد على الفعل الاتصالي بشكل عام لتفسيره.

---

[1] Coordonné par Olivier Aïm et Stéphane Billiet, **Communication**, Paris, Dunod, 2015, p.6

[2] Ibid.

تـؤدي اللغـة عـدة وظـائف في المجتمـع. ولعـل أبرزهـا هـي التـي حـددها André Martinet، حيث يرى بأن الوظيفة الأساسية للغة تتمثـل في "تمكـين كـل إنـسان مـن إيصال تجربته الشخصية للآخرين".[1]

فالإنسان يتصل بالمحيطين به بواسـطة اللغـة، التـي يفهمهـا كـلا الطـرفين الاثنـين: المرسل والمتلقي. وفي هذه العملية، نجده يرسل رسالة تعبر عن تجاربه الخاصة.

وفي هذا الـسياق، يـرى Buhler بـأن العنـاصر المكونـة للغـة هـي ثلاثـة: المرسـل والمتلقي والسياق.

المرسل، هو الذي يصدر عنه الكلام. أما المتلقي، فهـو المعنـي بـالكلام. وفي الأخـير، يعني السياق، تحديد الظروف التي أُنتج فيها الخطاب أو الكلام.

بذلك، تُعتبَر اللغة فعلا اتصاليا يقوم به مجموعة من الأفراد للاتصال فيما بينهم.

وقد حدد Roman Jakobson وظائف كل فعل اتصالي بست، **وهي:**

"- الوظيفة المرجعية (referential function): تُحال الرسالة إلى واقع معين.

- الوظيفة الانفعالية (emotive function): هي تجلي الذاتية في الخطاب.
- الوظيفة الاعتزامية(conative function) : هـي موجهـة للمرسَـل إليـه بغيـة التأثير فيه.
- الوظيفـة الـشعرية(poetic function) : يمكـن تحديـدها عـلى أنهـا تقيـيم لمحتوى رسالة باستخدام بعض الأساليب كالتكرار والتماثلات.
- وظيفة المحافظة على الاتصال(function phatic): تهـدف هـذه الوظيفـة إلى إقامة الاتصال.

[1] A.Martinet, **La linguistique synchronique, études et recherches**, Paris, P.U.F, 1965, p.3, dans :
Paul- Michel Filippi, **Initiation à la linguistique et aux sciences du langage**, Paris, Edition Marketing, 1995, p.76

– وظيفة لغة اللغة(metalingual function):* : تمكّن من القيام بخطاب حول الرسالة."[1]

تتمثل الوظيفة المرجعية في تحديد السياق الذي أُنتجت فيه الرسالة. أما الوظيفة الانفعالية فتتعلق بمرسل الرسالة. فيما يخص الوظيفة الاعتزامية، فهي تخص في هذه الحالة الذي تُرسل إليه الرسالة. أما الوظيفة الشعرية، فتستهدف الرسالة في حد ذاتها، بمحتواها حتى تؤثر في المستمع.

وعندما نصل إلى تحديد وظيفة المحافظة على الاتصال، فيعني أننا نركز على العلاقة التي تُبنى -بفضل الاتصال الشفوي- بين المرسل والمتلقي ونعمل على ديمومتها، كأن نسأل الذي على الطرف الثاني من الهاتف: "ألو، هل تسمعني؟"

وفي الأخير، نصل إلى تحديد وظيفة "لغة اللغة" التي تمكن من وضع شيفرة، معنى للكلمات المستخدمة، المفهومة من كلا الطرفين الاثنين. غير أن هذه الوظائف ليست منفصلة، هي بالعكس من ذلك؛ فهي مرتبطة وفي علاقة تفاعلية ببعضها البعض، وتهدف في الأخير إلى إقناع المستمع.

وبالرغم من تعدد وظائف الفعل الاتصالي، إلا أنها تتفق على أنه عملية اتصالية تهدف إلى التواصل بين الأفراد، بواسطة نسق إشارات يتفق عليه كل من المرسل والمتلقي.

تمثل هذه الخطاطة مرجعا يمكن إسقاطه على تطور وسائل الإعلام والاتصال، من وسائل الاتصال الجماهيرية إلى وسائل الإعلام والاتصال الجديدة، من وسائط وركائز وقنوات اتصال متعددة، حيث تحول الفعل الاتصالي وتحديدا وظيفة المحافظة على الاتصال إلى "هوس "تواصلي"[2]، حيث يكون الهدف منها هو الإبقاء على الاتصال مهما

---

* يترجم بعض اللسانيين مصطلح metalingual function – وتحديدا عبد الملك مرتاض- إلى العربية بمصطلح لغة اللغة.

[1] Paul-Michel Filippi, op.cit., p.p 79-80

[2] Coordonné par Olivier Aïm et Stéphane Billiet, op.cit.

كان محتواه ومدته؛ فلا يمكن ألا نتواصل خصوصا ونحن في عصر المواقع الاجتماعية والاتصال "الافتراضي" بكل أشكاله.

بالرغم من عدم صلاحية بعض نماذج الاتصال، إلا أنها توضح جليا تطور طرق الاتصال في سياق معين والعناصر الممثلة لفعل الاتصال تبعا للنموذج المتبنى. فأحيانا كانت تتجاوز وأحيانا أخرى كان البعض منها يكمل سابقيه، معبر كل واحد منها عن مسائل خاصة تعكس أولويات البحث في سياقات مختلفة.

تهتم دراسات الاتصال في الوقت الراهن "بذاتية الأفراد وبسياقات الحياة اليومية"[1]، وما ينجر عنها من ظواهر تخص التفاعل في الحياة اليومية. كما أنها أضحت تولي أهمية "لإنتاج المعنى"[2] لأنه أكثر من أي وقت مضى، بحوث علوم الإعلام والاتصال أضحت تعنى **بالمعنى** (meaning)الذي يوليه الأفراد وهم يتفاعلون عند تلقي المواد الاتصالية والثقافية.

في بدايته، اهتم البحث في الاتصال بالرسائل التي تبثها وسائل الإعلام والاتصال، و"توسعت في الوقت الراهن إلى تلك التي تبثها الوسائل الأخرى. وقد أولت أهمية خاصة للتأثيرات في المتلقين، من طبيعة متنوعة، سواء أكانت تنتج عن محتويات الإعلام أو الترفيه أو حتى التجارة." [3]

فالبحث في الاتصال يهتم اليوم –أكثر من أي وقت مضى- بسياقات الحياة اليومية عند تلقي الرسائل الاتصالية والثقافية ذات المضامين المختلفة وكيفية إنتاج المعنى، دراسات ظهرت وترسخت بإسهام الدراسات الثقافية البريطانية. فقد كان لهذه الدراسات الأثر الكبير في تطور البحث في الاتصال، بتأكيدها على فكرتين اثنتين:

---

[1] Miguel De Aguilera, **Les modèles de la communication et leur objet d'étude**, Communication & Organisation, December 2007,

https://journals.openedition.org/communicationorganisation/3457, consulted on September 13th, 2018

[2] Ibid.

[3] Ibid.

"تعدد المعاني في أي رسالة كانت، والعلاقة النشيطة لمتلقي المواد الثقافية حيث يقومون بانتقائها والاستحواذ عليها ويمنحون إياها معنى"[1].

ولا تنتهي هذه العملية هنا، بل لها نتائج على السلطة التي سيستحوذ عليها المتلقون. وتحديد المعاني الناتجة عند تلقي المواد الاتصالية والثقافية سيسهم في تحديد أدق لموضوع علوم الإعلام والاتصال.

4) واقع البحث في الاتصال في العالم العربي:

بالرغم من تطور البحث في الاتصال في العالم الغربي، بيد أنه بالعالم العربي يعرف واقعا مغايرا لعدة عوامل. ما يميز البحث في المنطقة العربية هو غياب **التنظير** (theorization)؛ فالباحثون ومراكز البحث في العالم العربي ما تزال "تستهلك" النظريات التي ظهرت في الغرب في مجال العلوم الإنسانية، متغافلة عن السياق الذي ظهرت وتطورت فيه، والذي لديه خصوصيته ومجال تطبيقه.

نحن نعيش في عالم طغت فيه وسائل الإعلام والاتصال خصوصا الجديدة منها على معيشنا اليومي، خالقة ظواهر جديدة ومعيدة بناء الواقع الاجتماعي مع تغيير نمط العيش وبالتالي توجهات فتصرفات الأفراد، واقع يبخل فيه البحث العلمي بدراسات تسلط الضوء عليه، بما يحدث من تغيرات في الحياة اليومية.

وقد تطور الفكر العلمي في الغرب بفعل نظريات كان لها الأثر الكبير في إدراك المتغيرات والعلاقة الكامنة بينها التي تتحكم في الظواهر المدروسة، ضمن إطار نظري خاص يتماشى مع البيئة التي برز فيها. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، لا يجب أن ننسى أن علوم الإعلام والاتصال كما ظهرت وتطورت فقد اعتمدت في بدايتها على نظريات خاصة بعلوم إنسانية أخرى مما أثر في مسارها. وعلى هذا الأساس، ورفضا لتطبيق النظريات الغربية التي تفسر الظواهر الاتصالية، يقوم بعض الباحثين بالعالم العربي والإسلامي بالنفي القاطع لتوظيف هذا النوع من النظريات، متحججين بأنه لا

[1] Miguel De Aguilera,op.cit.

يصلح بل وحتى لا يجوز توظيفها لدراسة ظواهر اتصالية تخص الواقع العربي-الإسلامي. وهذا أمر يمكن فهمه وإرجاعه إلى السياق الخاص الذي ظهرت فيه هذه النظريات والذي لا يصلح تطبيقه على واقعنا.

غير أن هذا الموقف يتوجه إلى منعرج خطير؛ فالاستغناء عن نظرية في البحث العلمي الذي يستند إلى الاستنباط "أو ذكرها دون تشغيلها يطرح التساؤل حول طبيعة الإشكاليات التي تطرحها هذه البحوث. فالإشكالية ذات صلة وثيقة بالبناء النظري لموضوع البحث. ومن الصعب بناء هذا الأخير من دون الاستعانة بنظرية ما."[1]

فكيف يمكن تصور بحث صارم يقوم على بعض الملاحظات التي لا تستند إلى إطار تفسيري يقوم بدور تبريري-تعزيزي للنتائج المتوصل إليها، اللـه م الاستناد إلى بعض الملاحظات و"التصورات"؟

ينجر عن هذا الوضع، عدم وجود إطار تفسيري يمنح قوة وصلابة عند تأويل النتائج من جهة. ومن جهة ثانية، سيترتب عن هذا الواقع اهتمام بالإطار الإمبريقي فحسب بدون التدقيق في بنائه النظري. ومن جهة ثالثة، سيكون هنالك إهمال للإطار الإبستمولوجي الذي لا يؤخذ بعين الاعتبار.

يجرى البحث في العالم العربي في حقل علوم الإعلام والاتصال، بيد أنه عبارة عن دراسات "مبعثرة"، وقلما تقام ضمن فرق ومخابر ومجموعات بحث **ممؤسسة** (institutionalized)، التي من المفروض أن تجرى بشكل مستمر من طرف مختصين في الميدان. كما أنه مما يعاب على هذه البحوث هو إهمالها للجانب الإبستمولوجي، علما بأن مسألة علمية (scientificness)العلوم الإنسانية برمتها لم تحسم بعد، وليس علمية علوم الإعلام والاتصال فحسب.

[1] نصر الدين لعياضي، **البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال في المنطقة العربية وغياب الأفق النظري**، مرجع سبق ذكره

تعقد الإشكاليات في العلوم الإنسانية نظرا للمواضيع الجديدة التي تتطلب معالجتها، خصوصا مع الثورة المعلوماتية وتجلياتها والممارسات الثقافية الجديدة، يجعل حتمية التعامل بحذر مع رباعية الأقطاب أو اللحظات المنهجية: الإبستمولوجية والنظرية والمورفولوجية والتقنية، والتأكد من كل قطب بشكل نقدي ومستمر من بداية الدراسة إلى نهايتها. تمثل رباعية الأقطاب هذه الإطار المنهجي والذي لا يهتم بموضوع الدراسة فحسب، بل كذلك بعرض كيفية بنائه. وهذه الأقطاب ليست منعزلة عن بعضها البعض، فهي تكوّن بنية متماسكة متسقة للممارسة العلمية لا استغناء عن أحدها.

غير أننا لاحظنا إهمالا **للقطب الإبستمولوجي** (epistemological pole)من طرف الباحثين، ليس فقط لدى المبتدئين.

للقطب الإبستمولوجي أهمية كبرى في المسار العلمي؛ فهو يحرك البحث من خلال القطيعة مع الأحكام والأفكار المسبقة، والنقد المستمر لسيرورة البحث والنتائج المتوصل إليها *.

يتم على مستوى هذا القطب تحديد موضوع الدراسة بشكل دقيق والإشكالية، حيث تبرز ضرورة القيام **بقطيعة إبستمولوجية** (epistemological rupture) للتمييز بين الموضوع "الحقيقي" والموضوع "المتصور" والموضوع "المبني".

فالانتقال من الموضوع الواقعي إلى الموضوع المتصور فإلى الموضوع المبني هو وتيرة مستمرة ومهمة شاقة، تتطلب من الباحث أن يقوم بتلك القطيعة الإبستمولوجية التي ستمكنه تدريجيا من بناء موضوع علمي.

فالموضوع الواقعي هو الموضوع الأول كما يظهر في بدايته والذي يستند إلى الأحكام المسبقة والحس المشترك. أما **الموضوع المتصور** فهو الموضوع الذي "يعتمد على الحواس، على شكل صور".[1]

---

* تطرقت إلى القطب الإبستمولوجي في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

[1]Paul de Bruyne, Jacques Herman, Marc de Schoutheete, op.cit., p.50

وفي الأخير، يعكس **الموضوع المبني** "ترجمة خاصة، مفاهيمية للواقع، مستندا إلى قوانين مستقلة، مبني بمناهج واضحة".[1]

الموضوعان الأولان يسبقان الموضوع المبني وينتميان بذلك إلى مرحلة ما قبل البناء الموضوعاتي، حيث يجب أن يقطع الباحث مع المرحلة الأولى بشكل مستمر حتى يقوم ببناء موضوعه. فالموضوع لا يكون مهيكلا ومبنيا بشكل تام من البداية، إذ يخضع لسيرورة قطع مستمرة منذ لحظة تصوره في شكله الخام. يجب أن يكون تحديد صارم للمواضيع داخل التخصص الواحد، هذا الذي يميز في الأساس الحقول العلمية المختلفة [*]. وبناء الموضوع يجب أن يتم عبر القطيعة الإبستمولوجية التي ترى في الملاحظات والتصورات الأولى حاجزا (obstacle) أمام التطور العلمي.

وهنا، يرى Weber بأن الذي يحدد المجالات العلمية المختلفة هو "العلاقات المفاهيمية بين المشاكل."[2] وتُفرض مسألة الصرامة العلمية خصوصا في العلوم الإنسانية حيث يكون "الفصل بين الرأي المشترك والخطاب العلمي هو أكثر التباسا (...بحيث يمثل) التعايش مع الفضاء الاجتماعي لعالم الاجتماع المعرقل الإبستمولوجي بامتياز"[3]، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الباحث في علوم الإعلام والاتصال.

معرفة الفضاء الاجتماعي من طرف الباحث في العلوم الإنسانية ومعايشة نفس الظواهر أو أخرى شبيهة بها، يجب أن يجعله أكثر حذرا أمام التفسيرات الأولى والبديهيات. ولعل الباحث في علوم الطبيعة تواجهه نفس المشاكل. غير أنه قادر على

---

[1] Ibid., p.51

[*] حتى وإن كانت المناهج بدورها هي التي تميز تخصصا علميا عن آخر، إلا أن الكثير منها تتشارك في الكثير من التخصصات، كالمنهج التجريبي الذي تستخدمه علوم الطبيعة والذي يستخدمه أيضا علم النفس.

[2] Paul de Bruyne, Jacques Herman, Marc de Schoutheete, op.cit.

[3] Pierre Bourdieu, Jean-Claude Chamboredon, Jean-Claude Passeron, op.cit., p.35

الفصل بشكل واضح وجذري بين الحياة اليومية والمخبر الذي يجري فيه تجاربه. أما القيام بهذه القطيعة في العلوم الإنسانية فهو أكثر تعقيدا.

وبفضل التطور التقني الذي أسهم في التطور العلمي، فإننا اليوم "نعرف القياس والوزن وتحليل الشمس وتقييم عدد الجزيئات التي تكوّن الكون، وفك تشفير اللغة الوراثية".[1]

هذه المعرفة العلمية بهذه المسائل مكنتنا من معرفة تنظيم العالم الذي نعيش فيه. غير أن الأمور تتعقد في العلوم الإنسانية لأنه يصعب قياسها وتحليلها.

يضمن القطب الإبستمولوجي ذلك التفكير النقدي لكل ما تنتجه المعرفة العلمية عبر تحديد صارم للموضوع العلمي وتحديد الإشكالية، بالقيام بنقد مستمر للمعارف التي تنتمي إلى الحس المشترك. وبذلك، يجب أن يضمن القطب الإبستمولوجي بشكل مستمر القيمة الإبستمولوجية للطريقة المنتهجة.

فيجب أن تكون هنالك قطيعة بين ما هو متعارف عليه (والذي ينتمي إلى اللغة العادية) واللغة العلمية، بكل محدداتها وضوابطها الإبستمولوجية. فتطور المعرفة العلمية مرهون "بتحليل نقدي للغة العلمية"[2]، وليس بالتراكمات العلمية. وهذا ما لا نلمسه في الكثير من بحوث الاتصال (وحتى في العلوم الإنسانية الأخرى) في العالم العربي.

كان ذلك عن أهمية القطب الإبستمولوجي في أي بحث علمي كان.

وهنا، يستوقفنا سؤال لا بد من طرحه: هل يرجع واقع البحث في الاتصال والإعلام بالعالم العربي إلى تبعية الباحثين إلى النظريات الغربية أم إلى عدم قدرتهم على استخدام افتراضاتها وعدم إدراكهم إياها بشكل دقيق؟

[1] Edgar Morin, **Science avec conscience**, op.cit., p.29

[2] Raymond Boudon, Paul Lazarsfeld, dans : **La sociologie**, France, Librairie Larousse, 1978, p.115

يبدو من خلال مسح شامل لمجمل الدراسات حول الاتصال والإعلام بالعالم العربي، أنها "انحصرت في إطار الدراسات الوصفية".[1]

يتطلب البحث العلمي الدقة، ويُعتبر **وصف** الظاهرة محل الدراسة هدفا أساسيا، إذ من خلاله يتم "جرد أكثر صدق ما أمكن حول خصائص الموضوع أو الظاهرة المطروحة للدراسة".[2]

من خلال الوصف، يتم تحديد الخصائص المتعلقة بالظاهرة بشكل منظم ودقيق. بيد أن الوصف لا يمكن الباحث من التمحيص والتعمق في حيثيات الظاهرة، ومن اكتشاف العلاقة الكامنة بين المتغيرات المتحكمة في حدوثها. فوصف خصائص قراء الصحافة الصفراء أو خصائص متتبعي المواقع الاجتماعية مسألة مهمة للتعرف على السمات العامة للجمهور، غير أنها غير كافية لكشف العلاقات القائمة بين الظواهر، استنادا إلى بناء علاقات دالة وبناء نماذج تفسيرية.

فواقع البحث في الاتصال والإعلام بالمنطقة العربية يرجع إلى عدم الفهم المعمق للنظريات الغربية وعدم قدرتنا على الاستفادة منها، حيث يجب على الباحث إدراك السياق الاجتماعي والثقافي والسياسي الذي برزت فيه. كما أن الأمر يعود إلى عدم الإلمام بالنظريات الحديثة التي تعتبر الاتصال فعلا يندرج ضمن سياق اجتماعي خاص، باعتبار الأخير الإطار المحيط بالمتلقي والمتمثل في ظروف التعرض والتجارب القبلية وهوية المتلقي وثقافته والمنظومة القيمية التي يتبناها، والتي ستؤثر حتما في كيفية تلقيه وتفاعله مع الرسائل الاتصالية.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فهو يخص السياق الاجتماعي للمرسل مع كل الخلفية الإيديولوجية التي يتبناها والتي يسيرها عن طريق الرسائل التي يقوم

[1] نصر الدين لعياضي، **البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال في المنطقة العربية وغياب الأفق النظري**، مرجع سبق ذكره

[2] موريس أنجرس، مرجع سبق ذكره، ص.56

بإنتاجها؛ فهو فضاء رمزي يسير النسق القيمي لكلا الطرفين الاثنين: المرسل والمتلقي بكل ما يحمله كليهما من تمثلات وقيم وإيديولوجية وأفكار.

وهنالك واقع جديد يخص فضاء الإعلام والاتصال والذي أثر بشكل أو بآخر في النماذج الاتصالية التي كانت صالحة لمدة من الزمن. فالمرور من وسائل الاتصال الجماهيرية إلى ما هو شائع استخدامه حاليا ألا وهو مصطلح الميديا كان له الأثر الكبير في إعادة النظر في النماذج الاتصالية كنموذج Lasswell.

فبعدما كان المرسل مجرد مرسل أضحى اليوم بفعل الوسائط المتعددة مستخدما في ذات الوقت؛ وبعدما كان المتلقي مجرد متلق للرسائل والمضامين الاتصالية والإعلامية والثقافية أضحى اليوم مرسلا في ذات الوقت، يتفاعل مع هذه المضامين ويعيد بناء معانيها. وحتى الوسيلة تغير دورها من مجرد قناة تنتقل عن طريقها الرسائل، لتتحول إلى "وسائط ومنصات بث وتبادل".[1]

ما لم توليه البحوث في المنطقة العربية هو عدم تركيزها على المتلقي، والاكتفاء بتبيين إن كان أم لا يتأثر بالرسائل التي يتعرض لها، ولم تبحث في كيفية تفاعله معها.

غيرت الثورة التقنية التي شهدتها البشرية من أنماط الممارسات اليومية، كما أنها غيرت علاقة الإنسان بالإنسان وبالمكان والزمن، بحيث اختزلت الوقت والمكان وعلاقتنا بما يحيط بنا من أغراض وصور نجدها حيثما توجهنا.

مس الرقمي كل مجالات الصناعة الثقافية بكل تجلياتها من موسيقى وسينما وتلفزيون وإشهار، إلخ... وقد ترتب عن هذا الأمر خلق سلوكات جديدة من طرف المتلقي تفعل العملية الاتصالية وتحفز على التفاعل بين المتلقين. وقد لاحظنا في

---

[1] نصر الدين لعياضي، **البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال في المنطقة العربية وغياب الأفق النظري،** مرجع سبق ذكره

الآونة الأخيرة "مشاركة أكثر تكثفا وأكثر استمرارية"[1] من خلال النقاشات والتعليقات المتبادلة في المواقع الاجتماعية المختلفة. ولم يعد المتلقي ذلك المستقبل السلبي، بل وتحول حتى إلى مرسل في ذات الوقت عبر مشاركته في البرامج ذات المحتويات السمعية والسمعية-البصرية، خصوصا تلك التي تبث على المباشر وفي الحوار عبر شبكات التواصل الاجتماعي. وهكذا، خلقت سلوكات اتصالية جديدة من خلال الحوار والمشاركة في الحوارات وفي نشر الصور والفيديوهات والبيانات ذات المحتويات المختلفة التي يمكن مشاركتها مع "الأصدقاء"، مما يفعل التفاعل بين المتلقين سواء أكانوا على معرفة مسبقة ببعضهم البعض أم لا.

يتطلب هذا الواقع المعرفي الجديد تحديدا دقيقا لمفهوم الجمهور، حيث يذهب الأخصائيون اليوم إلى تحديد كمي وكيفي لهذا المفهوم في ذات الوقت (وليس تحديد كمي فحسب)، على خلاف الدراسات الأولى التي كانت تولي اهتماما كميا وصفيا لهذا النوع من الدراسات. فالجمهور هو ليس ذلك التحديد الكمي لبعض خصائص متلقي محتوى إعلامي أو اتصالي أو ثقافي فحسب، من حيث بعض المؤشرات الكمية كسنه وجنسه ونسبة الأفراد الذين يقبلون على ميديا أو برنامج معين، والفترة الزمنية التي يتابعون فيها بكثافة قناة أو برنامجا معينا وأوقات متابعته، وبعض المحددات الأخرى كتقديراته لمسألة معينة في مجال التلقي فحسب.

هذا ما يسمى في دراسات التلقي **بالجمهور** كترجمة للمصطلح باللاتينية: Audience(سواء بالفرنسية أو بالإنجليزية). بينما دراسات **الجمهور** التي هي ترجمة لمصطلح: Public باللاتينية (سواء بالفرنسية أو بالإنجليزية)، والتي هي تهدف "فهم دوافع المتلقي وتحديد تحفيزاته وإدراك عوالم الدلالات وأشكال المشاركة أو المقاومة التي تفعلها الميديا".[2]

[1] Rémy Reiffel, **Révolution numérique, révolution culturelle?**, France, Editions Gallimard, 2014, p.143

[2] Rémy Reiffel, **Sociologie des médias**, Paris, Ellipses Edition Marketing S.A, 2001, p.118

من هذا المنظور، لا يدرس الجمهور من حيث مؤشرات كمية؛ هذه المسألة مهمة لمنح تصور عام عن هذا الجمهور أو ذاك. غير أن الذي يهم في المدلول الثاني للجمهور * (public)هو البعد الكيفي لما يشير إليه هذا المصطلح، من حيث "البحث عن سبب وكيفية وتأثير ما يستقبله الجمهور من رسائل التي تبث من طرف الميديا، إذ يكون الأمر أكثر غموضا ويتطلب دقة أكبر"[1] مما هي الدراسات الكمية للجمهور، حيث تتعقد الأمور لما يبحث في مجال "الظروف الفعلية للتلقي.[2]

لا تهتم إشكاليات البحث في الاتصال في العالم العربي بدراسات الجمهور إلا في بعدها الكمي، متغافلة وحتى جاهلة للبعد الكيفي لها، حيث لا يتم إدراك الدلالات والمعاني التي يوليها الجمهور إثر تلقيه للمواد الثقافية والاتصالية، وماهية الدوافع والتحفيزات التي تجعله يتفاعل معها.

فالجمهور ينتقي الرسائل التي تبثها وسائل الإعلام والاتصال بحذر وتريث، بدون التأثر بها بشكل مباشر وآني. فلم يعد ينظر إلى المتلقي كفرد سلبي بدون حاجات ودوافع تحركه، كمستقبل للرسائل الإعلامية والتي بمجرد أن تصل إليه يتأثر بمضمونها مباشرة وبشكل تلقائي (ما كانت تتصوره نظرية الإبرة تحت الجلد أو الرصاصة السحرية)، بدون أي مقاومة أو محاولة نقد لمحتواها. يرى منظرو هذا التصور للجمهور كأفراد مجزئين، على شكل "ذرات" منفصلة عن بعضها البعض،

---

[1] Rémy Reiffel, **Sociologie des médias**, op. cit., p.128

*مدلول مصطلح Audience بالفرنسية يختلف عما هو عليه في الانجليزية. لدى الأنجلو-ساكسونيين يقصد **بالجمهور** المعنى الواسع للكلمة، للتعرف أكثر عليه، مهما كانت تقنيات ومناهج البحث المستخدمة في هذه الدراسات. أما بفرنسا، فهو مرادف لكلمة: Auditoire بالانجليزية: Audience)، بحيث يوضح Rémy Reiffel بأن الأمر مرتبط بتعداد مجموع الأفراد الذين في لحظة ما هم على تواصل بميديا معين، من حيث الإمكانيات الرقمية والتسويقية التي يوفرها هذا النوع من الدراسات.
غير أنه ما يجب التنويه إليه، هو أن كلا المقاربتين الاثنتين للجمهور (في معناه الكمي أو الكيفي) لا تتناقضان، بل تكملان بعضهما البعض من حيث كمية أو كثافة المعلومات التي تقدمها عن المتلقي.

يستقبلون الرسائل الإعلامية المختلفة التي تمثل منبها مباشرا وقويا يدفع المتلقين إلى الاستجابة الفورية لها تبعا لما ينتظره القائم بالاتصال.

وحتى إن ثنائية سلبي-نشيط قد تجاوزت في دراسات التلقي الحالية، لتنصب على دراسة المتلقين وهم يقومون بتلقي الرسائل المتعددة التي ترد إليهم من وسائل الإعلام والاتصال المختلفة وقت تعرضهم لها. ويضحى كل متلق حسب سياقات اتصالية مختلفة "يخضع لمنطقين اثنين من السلوك: إما أن يتأثر بدون أن يعيَ، وإما أن يطور نشاطا معرفيا يمكنه من مقاومة كل محاولة إقناع. فهو ليس سلبيا أو نشيطا ولكن الاثنان معا: متلق مركب (complex)".[1]

فلم يعد يهتم المختصون في دراسات التلقي بثنائية: المتلقي النشيط والسلبي، بل بالسياقات التي تجعله متلق مركباً يتأثر بالرسائل الإعلامية والاتصالية المختلفة أو كيفية مقاومته إياها، تبعا لسياقات ورهانات اتصالية معينة.

يتبين لنا بأن فعل التلقي علاقة يقيمها المتلقي مع الرسالة الاتصالية بحيث يعيد بناء وتشكيل معنى لما يتعرض له من رسائل. وهو بذلك، يقيم علاقة تصارعية مع تلك الرسائل عن طريق فك تشفيرها وإعادة بناء المعنى. فهو لا يقوم بمشاهدتها والإعجاب بها فحسب، بل لديه نظرة نقدية إزاءها من حيث تقييم مضامينها وشكلها وإدلاء تصوراته حول هذه المسائل.

ليس المتلقون سلبيين أمام الرسائل التي يتعرضون لها؛ لديهم آراؤهم وتمثلاتهم حول هذه المسألة إذ يقومون بتحليلها ونقدها من زوايا متعددة؛ فقد ينتقدونها من حيث المحتوى أو الدور الذي قام به الممثلون الذين استدعوا للإشهار على سبيل المثال، باعتبارهم شخصيات فعالة للتأثير في المتلقي وإقناعه بفحوى الرسالة.

[1] Marie-Pierre Fourquet, **Un siècle de théories de l'influence, Histoire du procès des médias**, France, MEI «Médiation et information », nº 10, 1999, p.p 105-120

هنالك دراسات نادرة في كيفية تلقي المـواد الإعلاميـة والثقافيـة في العـالم العـربي، ونحن نتساءل لماذا هذا التأخر في الاعـتماد عـلى هـذا النـوع مـن الدراسـات في ظـل اكتساح التلفزيون حياة الأفراد وتغيير سلوكاتهم اليومية، التي ترتبط إلى درجـة كبـيرة بتتبـع الـبرامج المفـضلة. كـما أدى تعـدد الركـائز المربوطـة بالإنترنـت والمتمثلـة في الحاسوب والهاتف المحمول * واللوح الإلكتروني والساعة الذكية في العـالم الرقمـي إلى تنوع في الاستخدامات وأنماط التفكير والتصورات؛ كلها ظواهر جديدة جديرة بتسليط الضوء عليها. فدراسات التلقي أسهمت في معرفة كيفيـة فعـل المـشاهدة التلفزيونيـة وكيفية تأثيرها في الممارسات اليومية، ظواهر يمكن إسقاطها أيضا على متابعة الإنترنت واستخدام الركائز الإلكترونية المتعددة.

فـما يطغـى عـلى الدراسـات العربيـة هـو الاسـتخدام المفـرط للنظريـة الوظيفيـة ولنموذج الاستخدامات والإشباعات، حتى من طرف الباحثين الشباب الذين المفـروض أنهم على دراية بأحدث النظريات في الاتصال، ولديهم القدرة عـلى النقـد والتمحـيص لتجاوز البراديغمات المفرط استخدامها.

وحتى إن استخدام الوظيفية هو اسـتخدام مـن أجـل معرفـة الوظـائف الظـاهرة المؤداة، علما بأن للوظائف الكامنة دور لا يستهان به لإدراك ما هـو خفـي في تنظـيم ما أو مؤسسة معينة.

إبراز الوظائف الكامنة يـبرز جليـا تعقـد الحيـاة الاجتماعيـة عـلى اخـتلاف بناهـا ومؤسساتها، حيث ستبرز متعارضة مع الوظائف الظاهرة. بيد أنـه لا يجـب أن نـنـسى أهمية الاتـصال الشخـصي الـذي يـتم عـبر الجماعـات غـير الرسـمية في حـل الأزمـات والصراعات داخـل المؤسـسة، مـما يـبرز أهميـة تـسليط الـضوء لـيس عـلى الوظـائف الظاهرة فحسب لأنها سهلة التحديد، بل أيضا على الوظائف الكامنـة لمـا تؤديـه مـن دور في الاتصال والتفاعل داخل النسق محل الدراسة.

* **الهاتف المحمول** أو النقال أو الخلوي أو الجوال أو المتحرك

فالباحث -بتركيزه على الوظائف الظاهرة- لا يهتم إلا بما هو سطحي ولا يأخذ من الوظيفية إلا ما يسهل عمله ويسرع وتيرة الانتهاء منه، متغافلا من ظواهر معقدة لا يمكن الكشف عنها إلا عن طريق التمعن في النظرية الوظيفية، وإدراك كل افتراضاتها وكل الإسهامات التي قدمها منظروها. هذا من جهة.

ومن جهة ثانية، هنالك طغيان الطابع الكمي-الوصفي الذي لا يمكن أن يسدل الستار عن أوجه التفاعل الرمزي الذي ينجر عن فعل المشاهدة والظواهر الجديدة التي يخلقها، والتي تؤدي حتما إلى تغيير أنماط العيش وعلاقة الأفراد ببعضهم البعض، وضع مردّه أيضا إلى فردانية المشاهدة في ظل الأسرة الواحدة بفعل تعدد الركائز.

للدراسات الكمية مجال تطبيقها ولها حدودها المنهجية والإبستمولوجية. لذلك، اللجوء إلى البحوث الكيفية بات أمرا ضروريا لاستخراج المعاني المستترة وراء الظواهر المدروسة بتحديد السياق الذي تتشكل فيه.

وعكس البحوث الكمية التي تعتمد على الاستنباط وعلى إجراءات بحث صارمة، فإن البحوث الكيفية ترتكز على "التفكير الاستقرائي وعلى طريقة بحث مرنة ومعادة"[1]، بمعنى استخراج المعاني الضمنية بمحاولة فهمها عبر الأسئلة المعادة. كما أنها بحوث تُطبق على بعض الظواهر الإنسانية الخاصة التي تتطلب الفهم ثم التأويل نظرا لتعقدها، بمحاولة فهم معاني الأفعال في سياقات خاصة.

وبذلك، تتميز البحوث الكيفية عن البحوث الكمية في:

"- طبيعة المقاربة: ستكون تفسيرية في البحوث الكمية وفهمية في البحوث الكيفية.

- منطق بناء المعرفة العلمية: البحث الكمي ينحصر في منطق الاكتشاف (تفكير استنباطي)، بينما البحث الكيفي سينحصر في منطق بناء (تفكير استقرائي)."[2]

[1]Luc Bonneville, Sylvie Grosjean, Martine Lagacé, op.cit., p.154

[2]Luc Bonneville, Sylvie Grosjean, Martine Lagacé, op.cit., p.155

فهنالك ظواهر لا يمكن إدراكها بالقياسات الكمية لأن لديها بعد كيفي، لا يتم إدراكه إلا من خلال المناهج الكيفية التي تمنحها دقة ومنحى مختلفا عن القياسات الكمية.

للبحوث الكيفية خصائص تميزها عن البحوث الكمية. ولعل أهم خاصية لها هو كونها استقرائية بشكل عام، مما يمنحها تلك القدرة على استخراج المعاني الضمنية التي تتضمنها ملاحظة التصرفات واستخراج المعاني المستترة من الوثائق (المكتوبة، السمعية والسمعية-البصرية). فمن خلال حالات خاصة، يمكن التوصل من خلال الاستقراء وما يتضمنه من إجراءات منهجية إلى استدلالات عامة.

عندما يتعامل الباحث مع معطيات كيفية يعني ذلك أنه يهتم بشكل حصري "بالسيرورات الاجتماعية، المعنى الذي يمنحه بعض الأفراد لأفعالهم والحياة اليومية والواقع الاجتماعي."[1]

والهدف الذي يضطلع إليه الباحث من هذه الدراسات هو **فهم** الظاهرة المدروسة وإدراك أنها معقدة. ويمر الفهم من خلال "مفاهيم أو علاقات. في حالة السلوك الإنساني، الفهم هو شكل ما مباشر"[2]، إذ لا يحتاج الباحث إلى أجهزة أو معدات معقدة لملاحظة الظواهر كما هو حال علوم الطبيعة.

ونتساءل هنا: لماذا لا يتم توظيف النظريات والنماذج الجديدة في علوم الإعلام والاتصال في العالم العربي؟ هل هذه المسألة راجعة إلى الجهل بهذه النظريات والدراسات الحديثة في الاتصال أم إلى عدم الإلمام بها؟ أم إلى "فشل إدراكي" في تزويد الفكر بما استجدت به ساحة البحث العلمي في هذا المجال؟

بالتأكيد أن هذا الوضع لا يرجع إلى عدم الوصول إلى هذا النوع من الدراسات، علما أننا في عصر الإنترنت، باعتبار الأخير وسيلة ناجعة للحصول على المعلومات، مهما كانت طبيعة هذه الأخيرة، حيث تكون المعلومات التي يبحث عنها فورية، من نصوص

[1]Ibid., p.156

[2]Raymond Aron, op.cit., p.504

مقروءة وسمعية وسمعية-بصرية وصور ووثائق مختلفة في جميع المجالات. وهو بذلك مكتبة عالمية نحصل بواسطتها على معلومات آنية مهما كان مجال البحث، بفعل تكثف المعلومات وسرعة الحصول عليها.

وقد قورنت التغيرات التي أحدثتها الإنترنت بعهد اختراع الطباعة الذي كان على يد Gutenberg في القرن الخامس عشر.

وبعدما كانت الآلة اليدوية هي التي تساعد الإنسان على القيام بمهامه، أضحت اليوم الأدوات المعلوماتية "وسائط رمزية تضخم ذكاء مستخدميها بدلا من عضلاتهم."[1]

وقد تنبأ Bill Gates في كتابه: **المعلوماتية بعد الإنترنت** عما سيكون عليه مستقبل البشرية مع التطور الهائل الذي بدأ يشهده آنذاك عالم المعلوماتية، قائلا بأن سوق المعلوماتية الكونية "ستكون هائلة وستجمع كل الطرق المختلفة التي يتم بها تبادل السلع والخدمات والأفكار الإنسانية. وعلى الصعيد العملي، سيوفر ذلك خيارات أوسع فيما يتعلق بأغلب الأشياء"[2].

وهكذا، تنشر العديد من المقالات والكتب في كل التخصصات بما فيها علوم الإعلام والاتصال، يوم وحتى ساعة صدورها، من أمهات المجلات الدولية ومن أكبر دور النشر في كل اللغات، ناقلة لنا أحدث الأفكار والتصورات عن المواضيع التي نبحث فيها؛ فأنى للباحث ألا يجد ضالته فيها؟

في ظل الإعلام الجديد لم تعد النظريات الكلاسيكية في علوم الإعلام والاتصال تفي بالغرض. فمثلا نظرية انتقال المعلومات عبر مرحلتين* (two-step flow of

[1] بيل جيتس، **المعلوماتية بعد الإنترنيت**، ترجمة: رضوان عبد السلام، الكويت، عالم المعرفة، 1998، ص.16.

[2] نفس المرجع السابق، ص.20.

* بين كل من Katz وLazarsfeld في دراسة لهما سنة 1955 أن الاتصال الجماهيري له تأثير محدود، إذ ليس هو الوحيد المؤثر في التغيرات التي يمكن أن تحدث في اتجاهات وسلوك الجماهير.

(communication التي قام بـصياغتها كـل مـن Katz وLazarsfeld لم تعـد كافيـة أمام واقع الإعلام الجديد، حيث توجد معلومات تتدفق في كل الاتجاهات ولـيس مـن مصدر واحد.

فقد ارتبط ظهور نظريات الإعلام والاتصال بتوسع انتشار وسائل الإعلام والاتـصال الجماهيرية. بيد أننا اليوم نتعامل مع واقع جديد، ألا وهو تطبيقـات الإعـلام الجديـد الذي لا يقوم على الاتصال المباشر بين مرسل ومتلق عبر وسيلة اتصال، ولا يقوم أيـضا على الاتصال الجماهيري.

فكيف لنا في ظل هذا الواقع الجديد الذي تعرفه المجتمعات، من ظواهر اتـصالية جديدة وعولمة تمـس جميـع مجـالات الحيـاة وتـدفق معلومـاتي، أن نطبـق نظريـات ظهرت في سياق مختلف كل الاختلاف عما نشهده اليوم؟

والاهتمام بهذا السياق المعرفي الجديد لدراسات الاتصال هو ما ينقص في المنطقـة العربية حتى لا نقول إنه ينعدم.

5) المقاربات الجديدة لظواهر الاتصال:

بالرغم من اسـتمرارية اسـتخدام الـنماذج التفـسيرية لدراسـة الظـواهر الاتـصالية والتي قام بصياغتها باحثون من تخصصات علميـة متباينـة، بيـد أن هنالـك مقاربـات جديدة قام بصياغتها مختصون في علوم الإعـلام والاتـصال، مقاربـات أعـدت خصيـصا لدراسة الظواهر الاتصالية.

يتعلق الأمر ب:

- مقاربة الاتصالات بالوساطة المادية: الميديولوجيا

فتـأثير وسـائل الإعـلام والاتـصال الجماهيريـة يمـر بمـرحلتين اثنتـين. في المرحلـة الأولى، يمـر بقـادة الـرأي والجماعات المرجعية. ثم في مرحلة ثانية، تقوم الجماعات المرجعية -التي يندمج عن طريقها الناخبون في شبكات اجتماعية (أفـراد الأسرة والأصـدقاء وزمـلاء العمـل)- ببـث المعلومـات الخاصـة بقـادة الـرأي إلى الجمهور، عن طريق الاتصالات الشخصية.

- مقاربة "مسار العملية الاتصالية"
- المقاربة بنسقية الاتصال
- **مقاربة الاتصالات بالوساطة المادية: الميديولوجيا:(Mediology)**

يحدد Régis Debray **الميديولوجيا** (mediology) على أنها تهتم "بالفرد الذي يرسل أكثر من اهتمامها بذلك الذي يتواصل".[1] ويحدد موضوعها على أنه "دراسة الظواهر المادية للنقل الثقافي".[2]

فكل اختراع مجسد عبر اختراع تقنية أو آلة ما إلا ويعبر عن الأفكار التي كانت سائدة وقت اختراعه، وحتى أبعد من ذلك، فهو يعكس مجموع التمثلات عن العالم الذي ظهر فيه.

يأخذ هذا المفهوم جذوره من مفهوم **الوسيط** (medium) الذي لم يكن متواجدا في كل مراحل التاريخ البشري؛ فقد كانت الكتابة، ثم الطباعة، فالإلكتروني، فالرقمي.

بيد أن الإرسال بالرغم من أنه كان يمر بوسائل تقنية، إلا أنه كان يمر أيضا عبر مؤسسات اجتماعية. وقد بين * Debray أن الصورة في العالم الغربي مرت بثلاث مراحل متباينة، لكل مرحلة منها مميزاتها والمتمثلة في: الكتابة والطباعة والسمعي-البصري.

إلا أن هذا التباين هو منهجي أكثر منه كرونولوجي، إذ لا يمكن الفصل بين هذه المراحل بشكل قاطع. فكل مرحلة هي بداية للمرحلة التي تليها ولا توجد حدود فاصلة بينها. وبذلك، لا تنفي أي مرحلة لاحقتها.

---

[1] Jean Baptiste de Vathaire, **Régis Debray**, **Introduction à la médiologie,** Paris, PUF « Premier Cycle », janvier 2000, https://lisenratinys.firebaseapp.com/2130501052.pdf, consulted on December 01st, 2018

[2] Alex Mucchielli, **Les sciences de l'information et de la communication**, op.cit., p.124

* يعتبر Debray من بين المنظرين في الميديولوجيا.

بالعكس من ذلك، فكل واحدة منها تكمل الأخرى وتأتي لتضيف معنى جديدا للصورة.

– المرحلة الأولى:

هي المرحلة المسماة **بلوغوسفار**(logosphère) أو عصر الوثنية التي هي مرحلة تمثل "عهد الوثنية في معناه الواسع من اليونانية: eidôlon بمعنى الصورة. تمتد من اختراع الكتابة إلى عهد الطباعة".[1] وكان الشك في هذه المرحلة "حول المرئي."[2]

ومعنى الوثن هنا ليس بالمعنى الديني للألوهية؛ هو بمعنى "صورة زمن ثابت، في غيبوبة مع الديمومة"[3]. وبذلك، الصور في هذا العصر ثابتة لا تتحرك، مؤدية وظيفة "الديني بدلا من السحري"[4].

- المرحلة الثانية:

وهي المسماة **بغرافوسفير**(graphosphère) أو عصر الفن والتي تتميز برواج الفن. وهذه المرحلة تقترن اقترانا ملحوظا بالغرب. تبدأ عند اكتشاف الطباعة، ومن بين ما ميزها أنها ربطت الكتابة بالصورة، فكانت ثورة فكرية جديدة على البشرية.

والهدف من الأعمال الفنية التي برزت بإيطاليا وأيضا بفرنسا هو جعل تلك الصور الفنية "أبدية" تدوم في الزمن. فأخذ الفن "استقلاليته بالنسبة إلى الدين، وهو خاضع للسلطة السياسية."[5]

وكان لهذا الاختراع تأثير في الحياة الاجتماعية، إذ أضحى الناس قادرين على الوصول إلى المعلومات التي كانت لزمن طويل حكرا على رجال الدين والنخبة، وأصبح بإمكانهم التعبير عن آرائهم ونشرها ووصولها إلى فئات عريضة من فئات المجتمع.

---

[1] Régis Debray, **Vie et mort de l'image**, France, Gallimard, 1992, p.222

[2] Ibid., p.393

[3] Ibid., p.224

[4] Ibid., p.225

[5] Ibid., p.228

والصورة متواجدة في هذه الفترة في أماكن العبادة والقصور وحتى في بعض الشوارع. في هذه المرحلة، أضحى المرئي مجسدا.

- المرحلة الثالثة:

وهي المعروفة **بفيديوسفير**(vidéosphère) بمعنى عهد الرؤية الذي ليس خاصا بمنطقة جغرافية ولا بانتماء عرقي أو ديني معين؛ هو ظاهرة كونية.

تمتد هذه المرحلة من "الطباعة إلى التلفزيون بالألوان"[1]. والعهد الذي دشنها وجسدها بشكل واضح هو عهد اختراع السينما التي أضفت على الصورة الثابتة غير المتحركة تلك الحركية والديناميكية وحتى الحياة، على قول Debray. ولم يكن ذلك ممكنا إلا بفعل اختراعات تقنية متتالية، تراكمت إلى يوم اختراع الكاميرا، مما أضفى تلك "الحياة" على الصورة ولزمن طويل.

في هذه المرحلة، يتحول الشك نحو اللامرئي حيث "ما لا يمكن رؤيته غير موجود."[2]

وما يميز كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث هو هيمنة وسيلة اتصال يتحكم فيها نظام فكري معين، يؤدي لا محالة إلى تغيرات في مستوى العقليات ونمط الحياة والتنظيم داخل المجتمع، الذي يهيمن فيه نمط معين من وسائل الاتصال. ولكن، كيف تقارب الميديولوجيا الظواهر التي تعكف على دراستها؟

تقاربها بالاعتماد على منهج دراسة الحالة، حيث ستحاول "إعادة تشكيل كل مراحل تطور أو فقدان تأثير فكر معين عبر كل الوسائل المادية التي توظفها"[3]، مما يتطلب إسهام مؤرخي التقنيات. غير أن هذا المنهج غير كاف.

لذلك، ستعتمد الميديولوجيا على الجدل، حيث يرتكز الأخير لإدراك الواقع المدروس على ثلاث مراحل: **الأطروحة** (thesis)، **نقيض الأطروحة** (antithesis)

---

[1] Régis Debray, op.cit., p.222

[2] Ibid., p.393

[3] Alex Mucchielli, **Les sciences de l'information et de la communication**, op.cit., p.125

و**التركيب** (synthesis). تجسيدا لهذه المراحل الثلاث، على الباحث اكتشاف "هذه التنافرات وتبيين كيف أنها تولد التركيب".[1]

فبمقابلة ظواهر من طبيعة تقنية وأخرى من طبيعة ثقافية، فإنه ستتضح العلاقة القائمة بين التقنية والثقافة، مما سيشكك في المفارقة بين الأخيرتين، حيث يتم التركيز على"الشروط المادية والمؤسسية لنقل الثقافة ونشرها عبر الزمن والمكان. وبفضل ذلك، تنتقل الأفكار والأيديولوجيات من جيل إلى آخر."[2]

بالرغم من اختلاف الثقافة عن التقنية، إذ الثقافة تتسم بالديمومة بينما التقنية تتسم بالتطور، فلا توجد ثقافة بدون تقنية ولا تقنية بدون ثقافة.

- **مقاربة "مسار العملية الاتصالية":(Processus-communication)**

وتسمى أيضا بالنظرية **السيميو-سياقية للاتصال**، والتي نشأت في تسعينات القرن الماضي، بإصرار الباحثين في حقل علوم الإعلام والاتصال على تحديد مفهوم **مسار العملية الاتصالية** الذي كان مبهما.

تهتم هذه المقاربة ببناء الدلالة لدى الأفراد. غير أنها تختلف عن السيميولوجيات الأخرى (السيميولوجيا السوسرية، السيميولوجيا البيرسية، سيميولوجية الصورة، ...) بأنها سيميولوجيا تمارس على "الاتصالات وهي تحدث، بمعنى اتصالات وهي تجرى في وضعية تبادل. يؤدي ذلك إلى دراسة التحولات التي أحدثها الاتصال، ودراسة السياقات التي يأخذ فيها الاتصال معنى(المبني من مجموعة من الدلالات)".[3]

حددت هذه المقاربة مسارات العملية الاتصالية حيث يظهر المعنى (meaning) عبر وضعية معينة والمسماة **بالسياق** (context).

---

[1] Ibid.

[2] Frédéric Vandenberghe, **Régis Debray and Mediation Studies, or How Does an Idea Become a Material Force?** Thesis Eleven, Number 89, SAGE Publications (Los Angeles, London, New Delhi and Singapore), May 2007, p.p 23–42, https://philpapers.org/rec/VANRDA-2, consulted on December 1st, 2018

[3] Alex Mucchielli, **La nouvelle communication**, op.cit., p.146

هذا السياق بالنسبة إلى فرد معين هو "واقع ذاتي الذي لديه صورة عنه. وبالتأثير في هذه الصورة يمكن أن يتغير معنى سلوكه في السياق المأخوذ بالاعتبار".[1]

أما عن **المسار**(processus) فيعرفه Alex Mucchielli على أنه "تدخل نوعا ما مركب، الذي يؤدي إلى تحول شيء الذي ينطبق عليه.

يوجد مسار -لما بمرور الوقت- يوجد تغير في الوضعية وفي شكل الظاهرة من خلال مرجعية معينة".[2] وباعتبار الاتصال مسارا، يجب التركيز على "ما يتحول حتى تأخذ النشاطات المختلفة معنى".[3]

تمكن هذه المقاربة من فهم سيرورات الاتصال وهي تحدث، حيث يتفاعل الأفراد مع بعضهم البعض في سياقات خاصة، بغية إدراك ما يحدث في العملية الاتصالية والآثار الناجمة عنها.

هذه المقاربة إذا هي فهمية، ترتكز على دراسة مسارات الفعل الاتصالي في **الوضعية** (situation). يتحدد ذلك وفقا **لنسق ملاءمة** (pertinence system) الذي يشمل عناصر متعددة، والتي يحددها Alex Mucchielli في رهانات ونوايا ومصالح الفاعلين.

وهذه الوضعية تتفرع إلى سبعة سياقات، وكلها تعتبر وضعيات اتصال.

1) "سياق المعايير والقواعد المتبادلة جماعيا.
2) سياق الرهانات والنوايا والمشاريع
3) سياق الوضعيات الخاصة للفاعلين

---

[1] Martine Zangerlu **Un modèle d'élaboration du sens en système de contextualisation. Une interprétation du processus de professionnalisation par altération identitaire**, Article mis en ligne le 7 octobre 2003, https://lesenjeux.univ-grenoble-alpes.fr/2003/Zangerlu/Zangerlu.pdf, consulted on December 05th, 2018

[2] Alex Mucchielli, **Les sciences de l'information et de la communication**, op.cit., p.131

[3] Ibid.

4) السياق العلائقي الاجتماعي المباشر. هذا السياق هو أساس كل نشاط يندرج ضمن كل فعل اتصالي.

5) السياق الفضائي هو ملازم لأي وضعية اتصال

6) السياق الزمني

7) السياق الفيزيقي والحسي".[1]

يعتبر السياق الأول المتمثل في سياق المعايير والقواعد المتبادلة جماعيا كبعد أساسي في وضعية الاتصال، الذي يحتوي على مجموعة من المعايير التي هي بمثابة طرق للسلوك تحدد اجتماعيا، ومتفق عليها من طرف الأفراد الذي ينتمون إلى جماعة اجتماعية بعينها أو مجتمع بعينه. ستقوم بتوجيه سلوك الأفراد بالارتكاز على مرجعية محددة. هذه القواعد المعيارية للسياق تحد من حرية التصرف لدى الأفراد.

يرتكز السياق الثاني على مجموع الرهانات والنوايا والمشاريع الخاصة بالأفراد الذين يتواجدون في وضعية اتصالية ما، حيث يتحدد وجود كل واحد منهم بوجود هذه العناصر التي تخص كل واحد منهم، والتي ستحدد سلوكهم.

أما السياق الثالث، فيخص سياق الوضعيات الخاصة للفاعلين، والمرتبطة بمتغيرات مختلفة كالجنس والسن والمكانة التي تخص كل فاعل.

أما البعد الرابع، فهو مرتبط بالسياق العلائقي الاجتماعي المباشر، والذي يمثل أساس أي اتصال، والذي يحدد طبيعة العلاقات بين الأفراد.

فيما يتعلق بالسياق الخامس المتمثل في السياق الفضائي، فهو ملازم لأي وضعية اتصال؛ فلا يمكن الاتصال إلا عبر مكان (فضاء) مجسد، مهما كانت طبيعته: في العمل أو في الشارع، بالاتصال المباشر أو الاتصال عبر الوسائط الإلكترونية.

---

[1] Lise Verlaet, **Les méthodes qualitatives : outils indispensables à la conception d'hypermédias adaptatifs**, Canada, Recherches Qualitatives, numéro 3, p.p 519-538

أما السياق الزمني الذي يمثل البعد السادس لوضعية الاتصال، فهو مرتبط بالسياق الفضائي. فوضعية الاتصال التي حدثت في زمن س ستكون مختلفة عن التي ستحدث في زمن س+1.

وفي الأخير، يوضح لنا السياق السابع أهمية السياق الفيزيقي والحسي، حيث يكون للاتصال معنى، عبر عناصر فيزيقية حسية والمتمثلة في السمع والنظر أساسا.

ولما تحدث مجموعة من التحولات في اتصال-مسار معين، سيسهم ذلك في بناء المعنى لدى الفاعل. وهذا النوع من الاتصال هو في الواقع "استراتيجي للفاعل في وضعية اتصال معينة"[1]، يمكنه من اتخاذ وضعية خاصة لحل المشاكل التي يتعرض لها.

- **المقاربة بنسقية الاتصال:(Approach of systemic communications)**

تمت صياغة نسقية الاتصال بإسهام مدرسة Palo Alto في خمسينات القرن الماضي والمعروفة أيضا بتيار أنتروبولوجيا الاتصال، عبر مقاربة نفسية-سوسيولوجية تنصب على دراسة العلاقات بين الأفراد. وتستند هذه المقاربة إلى مجموعة من المفاهيم المرتبطة ببعضها البعض. هي تضم مفكرين من تخصصات علمية مختلفة، الذين عملوا بمدينة صغيرة بسان فرانسيسكو.

بالرغم من تخصصاتهم المختلفة، إلا أن هؤلاء المفكرين تبنوا الطريقة النسقية لمقاربة الظواهر الاتصالية وتحليلهم للتغيرات.

لم يكن ينظر آنذاك إلى الاتصال من حيث العلاقة بين المرسل والمتلقي، ولكن كان يمثل على أنه "نموذج أوركسترا، بمعنى أنه نتاج مجموعة من الأفراد المجتمعين ليلعبوا مع بعضهم البعض والمتواجدين في وضعية تفاعل دائم".[2]

[1] Alex Mucchielli, **Les sciences de l'information et de la communication**, op.cit., p.132

[2] Denys Cuche, op.cit., p.49

ترتكز هذه المقاربة على ثلاثة افتراضات: "لا يمكن إلا الاتصال، كل اتصال يعرض شكلين اثنين: المحتوى والعلاقة. والاتصال يعني الدخول في أوركسترا."[1]

يوضح الافتراض الأول أن الاتصال ضروري بين الأفراد، مهما كان شكله وسواء أكان عن وعي أو عن غير وعي.

ثم يقتضي الافتراض الثاني أن محتوى الاتصال يخص الشكل البارز والواضح فيه. أما العلاقة، فتبين أن هنالك علاقات تفاعلية ذات طابع ثقافي بين الأفراد هي التي تحدد شكل الاتصال؛ فالعلاقة تفسر كيف يمكن تأويل المحتوى.

وفي الأخير، يعني الافتراض الثالث أن الأوركسترا تمثل نسقا رمزيا يشارك فيه أفراد مختلفون، عبر سلوكات يقومون بها والتي تنتمي أساسا إلى فضاء الاتصال غير اللفظي، معبرين عن تفاعلهم عن طريق حركات ونظرات وحتى سكوت؛ يتفاعل هؤلاء فيما بينهم، كأن كل واحد منهم يؤدي معزوفة موسيقية، وهم في تفاعل مستمر من خلال المنظومة الثقافية الخاصة بهم.

في الواقع، لم تقم مدرسة Palo Alto باكتشاف الطريقة النسقية، بل يرجع لها الفضل في "محاولة تطبيقها بشكل منهجي وصارم في مجال العلاقات الإنسانية، وتحديدا في الاضطرابات النفسية".[2]

بيد أن النسقية التي نتحدث عنها في هذا المحور، قد ابتعدت عن نسقية مدرسة Palo Alto، ولم تولي اهتماما خاصا ببعض المشاكل، بل يمكن تطبيقها على دراسة كل المشاكل، وبشكل خاص على "دلالات التبادل بين الفاعلين الاجتماعيين داخل نسق اجتماعي محدد بكل اعتباطي".[3]

---

[1] Mohamed Bendahan, **Les enjeux de la réception de la télévision arabophone par satellite en France**, Thèse de doctorat en Communication, Université Lumière Lyon 2, 2004, p.p 47-48

[2] Jean Lohisse, **La communication, de la transmission à la relation**, Paris, Editions De Bœck, 2009, p.185

[3] Alex Mucchielli, **Les sciences de l'information et de la communication**, op.cit., p.139

في الواقـــع، لم يقـــدم ممثلـــو النـــسقية: Watzlawick وHelmick-Beaving وJackson نمذجة للتفاعل، بعرض رسم بياني يوضح نسق التبادلات بين الأفراد.

نجد رسما بيانيا واحدا يوضح العلاقة بين زوج وزوجته. يوضح مرض هذين الزوجين أنهما "لا يتصلان إلا بهدف الحط من قيمة كليهما ولبناء وسائل للصراع لنفي الآخر"[1]، اعتمادا على ملاحظة التبادلات المتكررة بينهما وسلوكاتهما.

ويرتكز التحليل النسقي لمقاربة ظواهر الاتصال على المبادئ التالية:

"1- المبدأ النسقي: لا توجد ظواهر منعزلة

2- مبدأ التأطير

3-مبدأ أولوية السياق النسقي

4-مبدأ السببية الدائرية

5-مبدأ المحافظة الذاتية

6-مبدأ طبيعة الاتصال المعني

7-مبدأ التكرار "للألعاب" التفاعلية".[2]

يستند المبدأ الأول على أن الظواهر المنعزلة لا وجود لها؛ يجب أن تدرس على أنها في تفاعل مع ظواهر أخرى. أما المبدأ الثاني، فيرتكز على مبدأ التأطير بمعنى، أنه لا يمكن فهم الظاهرة الاتصالية إلا إذا أعيد وضعها في نسق يتعين تحديده، بهدف تحديد العناصر التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. يجب تحديد عدد وطبيعة هذه العناصر، كما يتعين تحديد حد للنسق الذي يفصل الكل (النسق) عن محيطه.

أما المبدأ الثالث فيعتمد على مبدأ أن الأولوية هي للسياق، حيث تأخذ الظاهرة معناها من خلال تحديد السياق الذي يتشكل عبره.

---

[1] Ibid., p.142

[2] Alex Mucchielli, **Les sciences de l'information et de la communication**, op.cit., p.p 143-144

فيما يخص المبدأ الرابع، فيخضع لمبدأ السببية الدائرية، بمعنى أن النسق يمثل مجموعة عناصر، عبر مركب من العناصر تكون في تفاعل مع بعضها البعض. فعكس ما كان يتحدث عنه العلم الكلاسيكي، العلاقة بين عنصرين اثنين ليست دائما فعلا سببيا بسيطا من طرف A على B. فالتفاعل قد يتحقق عبر فعل يصدر عن A مرورا ب B و C ثم يرجع إلى A، خالقا بذلك حلقة معقدة إلى درجة ما.

أما المبدأ الخامس فيبين أن لكل نسق قواعد خاصة به، تضمن إعادة إنتاجه بشكل مستمر. نصل إلى المبدأ السادس الذي يستند إلى مبدأ طبيعة الاتصال المعني، أي أن التحليل النسقي يستند إلى طبيعة التبادلات الملاحظة في العملية الاتصالية.

وفي الأخير، يعني مبدأ التكرار "للألعاب" التفاعلية أن الظواهر الاتصالية تدرك عن طريق سيناريوهات متكررة، تبرز طبيعة التفاعل والتبادلات.

وهكذا، فقد بينت في هذا الفصل ما كان عليه البحث في الاتصال، وأهم المعرقلات ذات الطابع الإبستمولوجي والنظري والمنهجي التي عانى منها، وآفاق البحث في هذا الحقل العلمي الذي ما يزال في تطور مستمر، حيث اتضح بأنه يتم ضمن مسار ديناميكي يتماشى مع الظواهر الجديدة التي تخص عالم الاتصال والثقافة..

نقاط للتركيب

يتمثل المشكل الذي تعاني منه النظرية في وجود انفصام وحتى تعارض في بعض الأحيان لما ندرس الممارسة والنظرية، كأنهما وحدتان منفصلتان وحتى متناقضتان.

وكأن التاريخ الحديث يعود بنا إلى العصور القديمة حيث كان هنالك فصل بين الأعمال الذهنية التي كانت من اختصاص الأسياد كمصممين، والأعمال اليدوية التطبيقية التي كانت حكرا على العبيد كمنفذين.

وبما أن التنظير بناء يرتكز على تعميم الملاحظات، فالممارسة التي تتمخض عن الملاحظة هي التي تؤدي في آخر المطاف إلى التنظير في مجال معين..

وتراكم المعارف مع مرور الوقت، سيمكن الباحثين من المرور من تجاوز المرحلة الإمبريقية وما تتطلبه من تراكم جملة من الملاحظات، حيث سيتم اكتشاف التشابهات والتمييز بين التباينات. وتدريجيا، سينتقل التفكير من مجرد تراكم معرفي إلى مراحل أكثر تطورا، إذ سيتم التصنيف الذي مكن العلماء من خلال التراكمات العلمية لقرون، من تجميع المعارف في القرنين 18 و19 إلى القيام مثلا بتصنيف للنباتات والحيوانات الذي نعرفه اليوم، والذي فتح الأبواب على مصراعيها فيما يخص مسائل عديدة كأصلها وتطورها عبر العصور، مما أعطى نفسا جديدا لمسألة التنظير في علوم الطبيعة.

غير أن هذا الأمر ليس خاصية علوم الطبيعة، بل أيضا العلوم الإنسانية التي عن طريق تجميع الملاحظات بدورها في مجال معين، تمكنت من الوصول إلى مستوى معين من التجريد كطريقة تفكير تتجاوز مجرد تراكم مجموعة من الملاحظات.

وتاريخ البحث في هذا الحقل يوضح لنا جليا أن الدراسات الأولى كانت كمية، بالتساؤل مثلاعن كم من شخص يستمع إلى برنامج إذاعي معين وكم يدوم استماعه إليه.

غير أن الدراسات الكمية بينت حدودها، مما دفع الباحثين في هذا الحقل العلمي إلى القيام بدراسات كيفية. ومهما يكن، لا يمكن لأي دراسة أن تقام بدون الاستناد إلى نظرية تبين المفاهيم الأساسية التي يجب توظيفها، والمتغيرات التي تتحكم في الظاهرة المدروسة.

لعبت كل من النظريات الكبرى والمتوسطة في حقل العلوم الإنسانية دورا مهما في التقدم العلمي، كل واحدة تهتم بمجال معين. وحتى وإن أثبتت النظريات الكبرى فشلها في الوقت الراهن، غير أنها استطاعت في الكثير من الأحيان أن تكون إطارا تفسيريا مهما لتفسير الظواهر. وتنصب النظريات حاليا على مجالات محددة وخاصة، معتمدة بشكل أساسي على افتراضات النظريات الكبرى.

نحن نعلم بأن العلم ليس حياديا ولا موضوعيا بالمعنى الذي تحدده المراجع؛ فالأدوات التي يستخدمها الباحث تؤثر بشكل أو بآخر في طريقة انتهاج البحث وعلى النتائج المتحصل عليها، بفعل وضعيته الإبستمولوجية اتجاه العلم في حد ذاته.

والملاحظ أن الذي أضعف الاهتمام بالتنظير هو الاندفاع إلى البحث الإمبريقي، نظرا للطابع الذي أضحى يطغى على البحوث الحالية، إما بسبب تمويلها من طرف جهات معينة لأغراض إيديولوجية، أم لأن سياسة المخبر الذي يشتغل فيه الباحث تدعو إلى هذا النوع من الدراسات، أم لأن هذا البحث أقل تعقيدا من البحث النظري.

وهذا ما ينقص بشكل واضح البحث العلمي خصوصا في العالم العربي؛ فالبحوث الأساسية (fondamental researchs) نادرة، إذ إنها لا تعنى بالانعكاسات التطبيقية في مجال معين، وبدون أن تهدف حل مشكلة عملية؛ فهدفها غير نفعي.

وقد تبين لنا أن الوقت قد حان للتفكير في دراسات **عابرة التخصصات** (transdisciplinary) التي لها أسسها وقواعدها، والكفيلة اليوم لوحدها برفع

التحدي أمام ما تعيشه المجتمعات من ظواهر معقدة، يصعب وقد يستحيل على تخصص علمي واحد تفسيرها، كميدان خصب من حيث طموحها في وضع لغة ومنهجية مشتركة بين عدة تخصصات.

فالعلوم الإنسانية بعدما انفصلت عن بعضها البعض وبعدما أضحى لكل تخصص منها حقله ومواضيعه والمشاكل التي يطمح في معالجتها ومناهجه وتقنياته، لم تعد "تتحاور"، باسم "التخصص".

بالتأكيد أن التخصص مسألة جد مهمة على المستوى الإبستمولوجي لضمان التفكير النقدي لكل ما تنتجه المعرفة العلمية، بتحديد صارم للموضوع العلمي وتحديد الإشكاليات والقيام بنقد مستمر للمعارف المنتمية إلى الحس المشترك، واستخدام لغة خاصة. بيد أن الاكتفاء بذلك في كل تخصص علمي لا يفيد تطور المعرفة العلمية في العلوم الإنسانية، التي ستدعي بعض تخصصاتها بأنها أكثر "علمية" من أخرى، وبأنها قادرة على خلق نظريات "كبرى" يستحيل على باقي التخصصات أن تصل إلى صياغة مثلها.

وهكذا، تنطوي بعض التخصصات على نفسها لاعتقادها بأنها غير قادرة على التحدي، نظرا لعدم احتكاكها بالتخصصات الأخرى، وبالتالي عدم إدراكها لإمكانياتها وحدودها.

يجب أن تتحاور العلوم الإنسانية بشكل خاص مع الفلسفة، بالارتكاز على استدلال فلسفي، معيدة رباطها القديم مع الفلسفة. لماذا؟

في الأساس، لما حددت عنوان الكتاب الذي بين أيديكم، بدا لي في بداية الأمر التحدث عن العلوم الإنسانية والاجتماعية. بيد أنني غيرت رأيي وارتأيت أن يدور حول التنظير في العلوم الإنسانية بشكل عام، بتخصصاتها المختلفة والمتعددة، لأن موضوعها (مهما كان تخصصها) هو الإنسان بشكل عام. فالتفكير إلى ما ستؤول إليه البشرية في مراحل لاحقة (كما فعل الرواد الأوائل في علم الاجتماع)، يربطنا بتفكير فلسفي عام حول الإنسان والمجتمعات البشرية.

ولما يخرج عالم الاجتماع أو الأنتروبولوجي أو الباحث في الاتصال أو في السياسة... من الميدان، فهو يدخل غمار التأويل والتبريرات، والذي يتطلب منه قدرة على التحليل والتركيب والنقد وطرح تساؤلات جديدة، هم مشترك مع الفلسفة، متسائلا عن طبيعة ومعنى الفعل (action) الذي يقومه به الأفراد، متجاوزا بذلك كل معرفة إمبريقية، مستعيرا مفاهيم وتصورات الفلسفة ليكون لكل باحث في العلوم الإنسانية تصوراته حول العالم الاجتماعي.

فهذا لن يمس بالصرامة العلمية للعلوم الإنسانية، لأنه شئنا أم أبينا فإن الباحث تحركه تساؤلات فلسفية، مرتبطة بالمعنى الذي يوليه لما يدرسه.

وبفعل التطور السريع الذي يعرفه العالم، فقد أعيد النظر في بعض النماذج التفسيرية التي ادعت عند صياغتها بأنها قادرة على تفسير ما يحدث في العالم الحديث. فنحن نعيش بروز ظواهر ثقافية واتصالية واجتماعية جديدة أكثر فأكثر تعقيدا، متطلبة نماذج تفسيرية جديدة تتماشى والمتغيرات التي يعيشها العالم على تنوعها.

كما اتضح لنا بعرض بعض نماذج لنظريات في العلوم الإنسانية أنها لا تخلو من البعد الإيديولوجي، متجاوزة الغاية العلمية التي تدعي أنها تصبو إليها.

وقد تطور البحث في العلوم الإنسانية المختلفة، إذ تحول حقل علم الاجتماع من دراسة البناء الاجتماعي والنظام إلى دراسة الحياة اليومية وتفاعلاتها وبكل تعقدها، ومن البحث عبر زوجين من المفاهيم المتناقضة (كالجماعي/الفردي) إلى تبني مفاهيم جديدة أو تعتمد على أعمال أجنبية، مما يشكل مجال **"السوسيولوجيات الجديدة"**.

كما يركز البحث في علوم الإعلام والاتصال اليوم على مقاربات جديدة للظواهر الاتصالية، كالميديولوجيا ومسار العملية الاتصالية أو المقاربة النسقية للاتصال.

يجب التعامل مع العملية الاتصالية باعتبارها نسقا يحتوي على عناصر مترابطة ومتداخلة ومتكاملة، عملية تتطلب تفاعل جميع عناصرها مع بعضها البعض، ومتطلبة فعلا تزامنيا بين المرسل والمتلقي.

واليوم أكثر من أي وقت مضى، يبقى المتلقي إما متعرف عليه، واقعيا أو افتراضيا بوجود رد فعل أو لا. وبالتالي، نماذج الاتصال الأولى قد أكل عليها الدهر وشرب ولم يعد يطبق إلا البعض منها وفي سياقات معينة. فقد تغير السياق الذي ظهرت فيه نظريات العلوم الإنسانية، مما دعا البعض إلى التفكير في نماذج تفسيرية جديدة، تتماشى والتغيرات التي تعرفها مختلف المجتمعات، لأن لكل واحد منها خصوصية وإمكانيات خاصة ووتيرة معينة من التطور.

وتحاول بعض المراجع وضع تاريخ لعلوم الإعلام والاتصال، حيث نجد تاريخا "رسميا" مسلطا الضوء على الآباء المؤسسين لهذا الحقل العلمي، مانحين معنى لتطور هذا التخصص والذي يرتبط بمكانته التي تطورت عبر الوقت. بيد أن هنالك تاريخ "جديد" يؤكد عبره على البعد المؤسساتي الذي أخذه البحث في هذا الحقل العلمي، لتحقيق غايات إيديولوجية أكثر منها علمية.

وبانفصال علوم الإعلام والاتصال عن التخصصات الأخرى، هنالك مسائل إبستمولوجية حولها وجب طرحها ثم حلها: إعادة صياغة المسائل المتعلقة بالاتصال (التي كانت تتساءل عنها السيميولوجيا وعلم النفس التحليلي وعلم النفس الاجتماعي وغيرها من التخصصات) وإعادة وضعها ضمن تطلعات خاصة بها وبإدراجها ضمن مواضيعها.

والواقع أننا لما نقوم ببانوراما لتطور نظريات علوم الإعلام والاتصال، يتضح لنا جليا بأن أي نظرية جديدة إلا وجاءت على أنقاض سابقاتها، تملأ الثغرات التي كانت موجودة فيها وتحاول تفسير التغيرات الجديدة التي تمر بها المجتمعات من خلال زوايا جديدة للتقصي.

يجب ألا تنصب الدراسات في الاتصال على مجال النشاطات المخصصة عادة للاتصال، بل يجب أن تمتد إلى أشكال أخرى للاتصال، كمجال الثقافة الشعبية بكل مكوناتها، مجال لم تتطور فيه الدراسات بشكل موسع. فالاتصال مجال متعدد الأشكال،

مشكلا نشاطات الإنسان المختلفة وذو منطق فعل خاص بكل فاعل في النسق الاجتماعي القائم.

وقد اعتبر البعض أن الطابع المتداخل التخصصات الذي يميز البحث في الاتصال نقطة قوة في هذا الحقل العلمي، حيث استفادت علوم الإعلام والاتصال من التخصصات الأخرى في العلوم الإنسانية لتحدد أطرها النظرية والمنهجية، وبالتالي ليحدد الباحثون في الاتصال وضعيتهم الإبستمولوجية اتجاه هذا التخصص بشكل دقيق.

في حين يعتبر آخرون أن الطابع المتداخل التخصصات في هذا الحقل العلمي هو بالأحرى نقمة على الباحثين فيه، إذ ليس لديه مرجعية نظرية ومنهجية خاصة به، مما يزحزح مكانته العلمية.

والمستقبل هو الذي سيعلمنا إن كان هذا التخصص العلمي سيقوى بفعل طابعه المتداخل التخصصات. كما سنرى إن كانت المفاهيم التي تنبثق من النماذج والنظريات الخاصة بها قادرة أم لا على توضيح ما يحدث في الألفية الثالثة.

كتابي هذا ليس دعوة للرجوع إلى النظريات التقليدية في العلوم الإنسانية، بل هو دعوة ليصب الباحثون اهتمامهم على التنظير لكونه الإطار التفسيري للظواهر المدروسة والتقعيد لأسس إبستمولوجية كفيلة بإعادة النظر في الكثير من المسلمات والأسس التي يجب تجاوزها، والتفكير أيضا في ذلك، في خضم الثورة التقنية والمعلوماتية التي تعرفها البشرية والتي تفرز ظواهر جديدة لم تعد النظريات التقليدية قادرة على تقديم إطار تفسيري لها.

يحتوي هذا الكتاب على فصول يمكن أن يتحول كل واحد منها إلى كتاب لوحده، نظرا لتعدد القضايا والإشكاليات التي تطرح في كل فصل منه.

وراودني شعور بالارتياب عند أوشكت على إتمام هذا الكتاب، لأن الموضوع المعالج عالم مليء بالاكتشافات والوصول إلى اليقين فالارتياب فاليقين، في حلقة لا متناهية، إلى درجة أنني في مرحلة ما من تأليفه عزمت على ألا أكمله.

فبالرغم من احتوائه على معلومات مهمة، وبالرغم من استخدامي لعدة مراجع بلغات متعددة، وبالرغم من تجربتي في الميدان، بيد أنني أيقنت (وأفعلها كلما انتهيت من كتاب) أنني لا أعلم إلا القليل. فعالم الفكر والمعرفة عالم واسع مليء بالاكتشافات والبحث عن المجهول.

بذلك، لا أدعي بأن هذا الكتاب كامل ولا يحتوي على نقائص؛ فهذا مجال مفتوح لا يمكن لأحد أن يقول بأنه وصل إلى ذروة المعرفة فيه. هو مجال لا يزال يبحث فيه وتطرح أسئلة من خلاله وحتى إشكاليات، يحاول كل مرة الباحثون الإجابة عنها. والمجال الخاص بالنظرية يطرح في كل مرة وبشكل مستمر أيضا تساؤلات وإشكاليات جديدة، نتعرف عليها لما نطلع على البحوث الحالية في هذا المجال.

كما لا أدعي بأنني أكملت البحث فيه، والدليل على ذلك أنه في المكان المعهود للخاتمة الذي عادة ما تختم به المراجع، وضعت كلمة "نقاط للتركيب"، لأن المجال واسع ويفتح الآفاق للكثير من التساؤلات والإشكاليات لباحثين آخرين تحثهم على البحث والتقصي فيها.

قائمة

المصادر والمراجع

باللغة العربية:

- **القواميس:**

- الجوهري عبد الهادي، **قاموس علم الاجتماع**، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 1997
- الحلو عبده، **معجم المصطلحات الفلسفية**، بيروت، مكتبة لبنان، 1994
- مصطفى حسيبة، **المعجم الفلسفي**، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2009

- **الكتب:**

- أبو بكر مصطفى محمود ، اللحلح أحمد عبد اللـه ، **مناهج البحث العلمي**، الإسكندرية، الدار الجامعية، 2009
- أرسطو، **الخطابة**، ترجمة: قنيني عبد القادر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2008
- إسماعيل قبارى محمد، **علم الاجتماع والفلسفة، الجزء الثالث: الأخلاق والدين**، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1989
- البروين محمد محمد، **مفاهيم في المعرفة**، بيروت، دار النهضة العربية، 1994
- الحسيني السيد، **التنمية والتخلف، الإسكندرية**، دار المعرفة الجامعية، 1993
- الخولي يمنى طريف، **فلسفة العلم في القرن العشرين**، الكويت، عالم المعرفة، 1978
- العبد اللـه مي، **البحث في علوم الإعلام والاتصال**، بيروت، دار النهضة العربية، 2011

- المشاقبة بسام عبد الرحمن، **نظريات الاتصال**، الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2015
- الميلاد زكي، **المسألة الثقافية، من أجل بناء نظرية في الثقافة**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2005
- النشار مصطفى، **نظرية المعرفة عند أرسطو**، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 2001
- أمين سمير، غليون برهان، **حوار الدولة والدين**، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1996
- أنجرس موريس، **منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية**، ترجمة: صحراوي بوزيد وآخرون، الجزائر، دار القصبة للنشر، 2004
- أوزي أحمد، **تحليل المضمون ومنهجية البحث**، جامعة محمد الخامس، كلية علوم التربية، 1993
- أوزياس جان ماري، **الفلسفة والتقنيات**، ترجمة: العوا عادل ، بيروت، منشورات عويدات، 1983
- باروت حمد جمال ، **الدولة والنهضة والحداثة**، سوريا، دار الحوار، 2004
- بركات حليم، **الاغتراب في الثقافة العربية** ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2006
- برنال ج.د.، **موجز العلم في التاريخ**، إعداد: الفيشاوي سعد، بيروت، دار الفارابي، 1982
- بن عمار الصغير، **الفكر العلمي عند ابن خلدون**، الجزائر، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1981
- بوبوف يوري، **دراسات في الاقتصاد السياسي**، ترجمة: ياسين اسكندر، موسكو، دار التقدم، 1982

- بوعزيزي محسن، **السيميولوجيا الاجتماعية**، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، 2010
- بوكروح مخلوف، **التلقي في الثقافة والإعلام**، الجزائر، مقامات للنشر والتوزيع، 2011
- تشاندلر دانيال، **أسس السيميائية**، ترجمة: وهبة طلال، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، 2008
- جيتس بيل، **المعلوماتية بعد الإنترنيت**، ترجمة: عبد السلام رضوان، الكويت، عالم المعرفة، 1998
- حسن مصدق، **النظرية النقدية التواصلية**، بيروت، المركز الثقافي العربي، 2005
- دليو فضيل، **الاتصال، مفاهيمه، نظرياته، وسائله**، القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2003
- روي هاريس، جي تيلر تولبت، **أعلام الفكر اللغوي**، ترجمة: الكلابي أحمد شاكر، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2003
- ساقور عبد الله ، **محاضرات في التنمية بالمشاركة**، عنابة، منشورات جامعة باجي مختار، 2007-2008
- صيام شحاتة، **النظرية الاجتماعية، من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة**، مصر، مصر العربية للنشر والتوزيع، 2009
- عبد الحميد محمد، **البحث العلمي في الدراسات الإعلامية**، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الثانية، 2004
- عبد الغني عماد، **سوسيولوجيا الثقافة**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006
- عزي عبد الرحمن، **الفكر الاجتماعي المعاصر والظاهرة الإعلامية الاتصالية**، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 1995

- علي حسين، **الميتافيزيقا والعلم**، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2006
- غدنز أنتوني، ترجمة: الصياغ فايز، **علم الاجتماع**، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الرابعة، 2005
- قرم جورج، **التنمية المفقودة**، بيروت، دار الطبيعة للطباعة والنشر ،1981
- قسايسية علي، **جمهور وسائط الاتصال ومستخدموها**، الجزائر، دار الورسم، 2011
- كيرزويل اديث، **عصر البنيوية، من ليفي شتراوس إلى فوكو**، ترجمة: عصفور جابر، بغداد، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، 1985
- لارامي أ.، فالي ب.، **البحث في الاتصال، عناصر منهجية**، ترجمة سفاري ميلود وآخرون، قسنطينة، جامعة منتوري، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة، 2004
- ماتلار أرمان وميشال ماتلار، **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة: لعياضي نصر الدين، الصادق رابح، بيروت، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثالثة، 2005
- ماتيلار أرماند وماتيلار ميشيليه، **نظريات الاتصال**، ترجمة: خضور أديب، سوريا، المكتبة الإعلامية، الطبعة الثانية، 2008
- محمود السيد دغيم، **المادية التاريخية بين الوهم والواقع**، بيروت، دار الحداثة، 1986
- معتوق فردريك، **منهجية العلوم الاجتماعية عند العرب وفي الغرب**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1985
- هابرماس يورغن، **التقنية والعلم كإيديولوجيا**، ترجمة: إلياس حجوج، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1999

- هوبر بول، **نحو فهم للعولمة الثقافية**، ترجمة: الشايب طلعت، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2011

- **المجلات:**

- عواج سامية، **خطوات تحليل الفيلم الاشهاري، من أسلوب تحليل المضمون الى أسلوب التحليل السيميولوجي**، جامعة بسكرة، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد 22، 2017
- لعبان عزيز، **الخليفة النظرية لبحوث الإعلام**، الجزائر، مجلة الوسيط في الدراسات الجامعية، الجزء الرابع، دار الهومة، 2003
- لعياضي نصر الدين، **البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال في المنطقة العربية وغياب الأفق النظري**، بيروت، المستقبل العربي، العدد 450، أوت 2016

- **المؤتمرات:**

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية، الدورة 17، الدوحة،27-28 أكتوبر 2010
- سلسلة أعمال الملتقيات، **العولمة والهوية الثقافية**، جامعة قسنطينة، مخبر علم الاتصال للبحث والترجمة، 2010

-باللغات الأجنبية:

- **Dictionaries:**

- Bloess Françoise, Noreck Jean-Pierre, Roux Jean-Pierre, **Dictionnaire de sociologie**, Paris, Hatier, 1997
- Boudon Raymond, Bourricaud François, **Dictionnaire critique de sociologie**, Paris, PUF, 1982
- **Dictionnaire de la philosophie**, Paris, Larousse, 1964
- Ferréol Gilles, **Dictionnaire de Sociologie**, Paris, Armand Colin, 1995
- Ferréol Gilles, Cauche Philippe, Duprez Jean-Marie, Gadrey Nicole, Simon Michel, **Dictionnaire de sociologie**, Paris, Editions Armand Colin, 4ème édition, 2011 Algérie, Editions Mehdi, 2013
- Golfin Jean, **Les 50 mots- Clés de la sociologie**, Toulouse, Edition Privat, 1972

- Grawitz Madeleine, **Lexique des sciences sociales**, Paris, Dalloz, 2004
- **La sociologie**, France, Librairie Larousse, 1978
- Sumpf Joseph, Hugues Michel, **Dictionnaire de Sociologie**, Paris, Librairie Larousse, 1973
- **Books :**
- Aron Raymond, **Les étapes de la pensée sociologique**, France, Gallimard, 1967
- Bachelard Gaston, **Le nouvel esprit scientifique**, Algérie, ENAG Editions, 1994
- Badie Bertrand, **Culture et politique**, Paris, Economica, 3eme édition, 1993
- Balle Francis, **Les médias**, Paris, PUF, 2004
- Balle Francis, **Médias et sociétés**, Paris, Editions Montchrestien, 11ème édition, 2003
- Beaud Stéphane, Weber Florence, **Guide de l'enquête de terrain**, Paris, La Découverte, 2010
- Blanchet Alain, Ghiglione Rodolphe, Massonnat Jean, Trognon Alain, **Les techniques d'enquête en sciences sociales**, Paris, Dunod, 2005
- Blanchet Alain, Gotman Anne, **L'enquête et ses méthodes : L'entretien**, France, Nathan, 2001
- Bonneville Luc et autres, **Introduction aux méthodes de recherche en communication**, Canada, Gaëtan Morin Editeur, 2007
- Boudon Raymond, **Etudes sur les sociologues classiques**, Paris, Presses Universitaires de France, 1998
- Boudon Raymond, **Les méthodes en sociologie**, Paris, Presses universitaires de France, 7ème édition, 1988
- Boudon Raymond, Lazarsfeld Paul, dans : **La sociologie**, France, Librairie Larousse, 1978
- Boutefnouchet Mostefa, **Introduction à la sociologie, les fondements**, Algérie, Office des Publications Universitaires, 2eme édition, 2012

- Boutefnouchet Mostefa, **Société et modernité, Les principes du changement social,** Alger, OPU, 2004
- Breton Philippe, **L'argumentation dans la communication**, Alger, Edition Casbah, 1998
- Breton Philippe, Proulx Serge, **L'explosion de la communication**, France, La Découverte, 1996
- Burke Peter J., Stets Jan E., **Identity Theory**, New York, Oxford University Press, 2009
- Chappuis Raymond, **La solidarité**, France, PUF, 1999
- Collectif, **La sociologie, histoire et idées**, France, Editions Sciences Humaines, 2000
- Combessie Jean-Claude, **La méthode en sociologie**, Alger, Editions Casbah, 1998
- Coordonné par Aïm Olivier et Billiet Stéphane, **Communication**, Paris, Dunod, 2015
- Corcuff Philippe, **Les nouvelles sociologies**, Paris, Armand Colin, 2007
- Courbet Didier, Fourquet-Courbet Marie-Pierre, **Les influences de la télévision : Etat des recherches**, De Boeck Université, colloque : Médias Recherches-INA, 2003
- Cuche Denys, **La notion de culture dans les sciences sociales**, Alger, Edition la CASBAH, 1998
- Cuvillier Armand, **Cours de Philosophie**, Tome 1, France, Librairie Armand Colin, 1954
- De Bonville Jean, **L'analyse de contenu des médias**, Editions De Boeck, Bruxelles, 2006
- De Bruyne Paul, Herman Jacques, De Schoutheete Marc, **Dynamique de la recherche en sciences sociales**, France, PUF, 1974
- De Certeau Michel, **L'invention du quotidien**, Paris, Union Générale d'Editions, 1980
- Debray Régis, **Vie et mort de l'image**, France, Gallimard, 1992
- Descartes René, **Discours de la méthode**, Tunis, Cérès Editions, 1995
- Dortier François, **Les sciences humaines**, France, Sciences Humaines Editions, 1998

- Duchesne Sophie, Haegel Florence, **L'enquête et ses méthodes : L'entretien collectif**, France, Armand Colin, 2005
- Dumez Hervé, **Méthodologie de la recherche qualitative**, France, Vuibert, 2013
- Fijalkow Yankel, **Sociologie de la ville**, Paris, Editions La Découverte, 2002
- Filippi Paul- Michel, **Initiation à la linguistique et aux sciences du langage**, Paris, Edition Marketing, 1995
- Fukuyama Francis, **La fin de l'homme**, traduit par : Denis-Armand Canal, Paris, La Table Ronde, 2002
- Gadet François, **Saussure une science de la langue**, France, PUF, 3eme édition, 1996
- Gay Thomas, **L'indispensable de la sociologie**, France, Studyrama, 2004
- Giroux Sylvain, Tremblay Ginette, **Méthodologie des sciences humaines**, Québec, Editions du Renouveau Pédagogique Inc., 2002
- Grawitz Madeleine, **Méthodes des sciences sociales**, Paris, Dalloz ,11e édition, 2005
- Guibert Joël, Jumel Guy, **Méthodologie des pratiques de terrain en sciences humaines et sociales**, Paris, Armand Colin, 1997
- Hall Stuart, **Encoding and decoding in the television discourse**, University of Leicaster, Organised by the council and the centre for mass communication research, 1973
- Hawkes Trence, **Structuralism and Semiotics**, London and New York Routledge, second edition, 2003
- Kaufmann Jean-Claude, **L'entretien compréhensif**, Paris, Editions Nathan, 2001
- Khendoudi Noureddine, **La théorie de la civilisation chez Malek Bennabi**, Alger, Editions El-Borhane, 1993
- Kuhn Thomas, **La structure des révolutions scientifiques**, traduit par : Laure Meyer, France, Flammarion, 1983
- Kuhn Thomas S., **The Structure of Scientific Revolutions**, Printed in the United States of America, by The University of Chicago, Second Edition, 1970

- Lallement Michele, **Histoire des idées sociologiques**, Paris, Editions Nathan, 1993
- Lapassade Georges, **L'ethno-sociologie**, Paris, Méridiens Klincksieck, 1991
- Lazar Judith, **La science de la communication**, France, Presses universitaires de France, 2ème édition, 1992
- Lazar Judith, **Sociologie de la communication de masse**, Paris, Armand Colin, 1991
- Lessard Michelle, Goyette Hébert Gabriel, Boutin Gérald, **La recherche qualitative**, Montréal, Editions Nouvelles AMS, 1997
- Lohisse Jean, **La communication, de la transmission à la relation**, Paris, Editions De Bœck, 2009
- Mc Luhan Marshall, **Understanding Media, The extensions of man**, London and New York, 1964
- Maigret Éric, **Sociologie de la communication et des médias**, Paris, Armand Colin, 3ème édition, 2015
- Malinowski Bronislaw, **Une théorie scientifique de la culture**, Paris, François Maspero, 1968
- Marcuse Herbert, **L'homme unidimensionnel**, traduit par : Monique Wittig, Paris, les Editions de Minuit, 1968
- Merton Robert K., **Eléments de théorie et de méthode sociologique**, traduit par : Henri Mendras, Paris, Armand Colin, 1997
- Miles Matthew B., Huberman A.Michael, **Analyse des données qualitatives**, traduction : Hlady Rispal Martine, Bruxelles, De Boeck, 2eme édition, 2005
- Millerand Florence, **David Morley et la problématique de la réception**, Université de Montréal, 1997
- MILLS C.W., **L'imagination sociologique**, Paris, La Découverte, 2015
- Morin Edgar, **Science avec conscience**, France, Fayard, 1982
- Morley David, **Family television, Cultural power and domestic leisure**, London and New York, A Comedia Book, ,Fifth Edition, 2005
- Mucchielli Alex, **La nouvelle communication**, France, Armand Colin, 2000
- Mucchielli Alex, **Les sciences de l'information et de la communication**, Paris, Hachette Livre, 4eme édition, 2006

- Nisbet Robert A., **La tradition sociologique**, Paris, PUF, 1984
- Paillé Pierre, Mucchielli Alex, **L'analyse qualitative en sciences humaines et sociales**, Paris, Armand Colin, 3eme édition, 2012
- Peretz Henri, **Les méthodes en sociologie**, Paris, Editions La Découverte, 1998
- Popelard Marie-Dominique, Verant Denis, **Les grands courants de la philosophie des sciences**, France, Le Seuil, 1997
- Popper Karl, **La Logique de la découverte scientifique**, Paris, Editions Payot, 1973
- Quivy Raymond, Campenhoudt Luc Van, **Manuel de recherche en sciences sociales**, Paris, Dunod, 1995
- Radford Luis, Demers Serge et Miranda Isaias, **Processus d'abstraction en mathématiques**, Imprimeur de la Reine pour l'Ontario et Université Laurentienne, 2009
- Reiffel Rémy, **Révolution numérique, révolution culturelle?**, France, Editions Gallimard, 2014
- Reiffel Rémy, **Sociologie des médias**, Paris, Ellipses Edition Marketing S.A, 2001
- Rocher Guy, **Introduction à la Sociologie générale,** Tome I : **Le changement social**, France, Edition HMH, 1968
- Rocher Guy, **Introduction à la sociologie générale**, Tome 2 : **L'organisation sociale**, France, Editions MHH, 1968
- Taton Philippe, **La science antique et médiévale**, Paris, Presses Universitaires de France, 1966
- Touraine Alain, **La société post-industrielle**, Paris, Editions Denoël, 1969
- Turner Terence, **Genetic Epistemology**, New York and London, Columbia University Press, 1970
- Vannier Guillaume, **Les grands courants de la pensée moderne**, Paris, Armand Colin, 1999
- Vorms Marion, **Qu'est-ce qu'une théorie scientifique**, dans : Sous la direction de T. Lepeltier, **Histoire et philosophie**, Cedex, Sciences Humaines Editions, 2013
- Weber Max, **La ville**, traduction de Philippe Fritsch, Paris, Aubier Montaigne, 3eme édition, 1947

- Wolton Dominique, **La communication, les hommes et la politique**, Paris, CNRS Editions, 2015

- **Journals:**

- Akoun André, **Sociologie de la communication et philosophie**, France, L'Année sociologique, Vol.51, 2001
- Bolka-Tabary Laure, **La circulation des contenus télévisuels au cœur des pratiques médiatiques, perspective sémio-pragmatique et héritage culturaliste**, MEI, n°24-25, 2006
- Bourdeloie Hélène, **Ce que le numérique fait aux sciences humaines et sociales Épistémologie, méthodes et outils en questions**, tic & société, Vol. 7, N° 2, 2014
- Bryon-Portet Céline, **Sciences humaines, sciences exactes, Antinomie ou complémentarité**, Communication, volume 28/1/2010, Canada
- Châtel Vivianne, **La logique de la découverte en recherche qualitative,** Newsletter Studienbereich Soziologie, Sozialpolitik und Sozialarbeit, University of Fribourg, Switzerland, N° 13, 2013
- Dacheux Eric, **L'incommunication, sel de la communication**, La Revue- Cognition, CNRS-Editions, N °71, 2015
- Flores Fernando Huamán, **La comunicación interpersonal como instrumento en la teoría sociológica de Robert Park**, Revista de Comunicación 10, 2011
- Fointiat Valérie, Barbier Laura, **Persuasion et Influence : changer les attitudes, changer les comportements. Regards de la psychologie sociale**, Journal d'Interaction Personne-Système - Vol. 4, Num. 1, Art. 1, Juin 2015
- Fourquet Marie-Pierre, **Un siècle de théories de l'influence, Histoire du procès des médias**, France, MEI «Médiation et information », n° 10, 1999
- Laberge Yves, **De l'hypothèse à la théorisation : comment utiliser les théories sociales (construction sociale, théorie ancrée, théorie de l'identité, microsociologie**, Recherches Sociologiques et Anthropologiques, 43-2, 2012
- Liebes Tamar, Katz Elihu, **Six interprétations de la série « Dallas** », Traduit par Maigret Eric et Dayan Daniel, HERMÈS 11-12, 1992

- Makus Anne, **Stuart Hall's Theory of Ideology: A Frame for Rhetorical Criticism**, Western Journal of Speech Communication, n° 54, 1990
- Mesure Sylvie, **Poursuivre le dialogue entre philosophie et sociologie**, Sociologie, Presses Universitaires de France, Vol. 3, 2012/2
- Papacharissi Zizi, **Uses and gratifications, An Integrated Approach to Communication Theory and Research**. Lawrence Erlbaum, Communications Routledge Series, 2008
- Proulx Serge, **Naissance des sciences de la communication dans le contexte militaire des années 1940 aux USA**, France, HERMÈS n° 48, 2007
- Rouvière Frédéric, **Les règles de la méthode sociologique d'Emile Durkheim: des leçons méthodologiques pour la Recherche juridique,** HAL Id: halshs-00709878, https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00709878
- Rumelhard Guy, **Problématisation et concept de paradigme, Approche épistémologique, psychologique, sociologique,** Lyon, ASTER, N° 40, 2005

Submitted on 19 Jun 2012, paru in Jurisprudence, Revue critique, 2011

- Stets Jan E., Burke Peter J., **The development of Identity Theory**, Emerald Group Publishing Limited, Advances in Group Processes, Volume 31, 2014
- Verlaet Lise, **Les méthodes qualitatives : outils indispensables à la conception d'hypermédias adaptatifs**, Canada, Recherches Qualitatives, numéro 3
- Wang Tai-Li, **The Usage Behaviors, Motivations and Gratifications of Using User-Generated Media: The Case Study of Taiwan's YouTube,** Taiwan, National Taiwan University, Advances in Journalism and Communication, n° 2, 2014
- Wolton Dominique, **De l'information aux sciences de la communication**, France, Hermès, n°48, 2007

- **Thesises:**

- Bendahan Mohamed, **Les enjeux de la réception de la télévision arabophone par satellite en France**, Thèse de doctorat en Communication, Université Lumière Lyon 2, 2004
- Lopes Anne-Astou, **Les différentes perceptions des chaînes de télévision internationale en période de conflit**, Maîtrise en communication, Université de Québec, Juin 2009

- **Webography:**

- De Aguilera Miguel, **Les modèles de la communication et leur objet d'étude**, Communication & Organisation, December 2007 https://journals.openedition.org/communicationorganisation/3457
- De Vathaire Jean Baptiste, **Régis Debray**, **Introduction à la médiologie,** Paris, PUF «Premier Cycle», janvier 2000, https://lisenratinys.firebaseapp.com/2130501052.pdf
- Katz Elihu, **Communications Research Since Lazarsfeld**, University of Pennsylvania, Scholarly Commons, 1987, https://doi.org/10.1093/poq/51.4_PART_2.S25
- Lallement Michel, **Fonctionnalisme**, lin-log.net/dokuwiki/_media/lyon2/ic/i3.../fonctionnalisme_michel_lallement.pdf
- Pooley Jefferson, **The new history of mass communication research**, New York, NY : Peter Lang., 2008, www.jeffpooley.com/pubs/NewHistoryPooley2008.pdf
- Saillour Claire, **Passeron et le pluralisme irréductible des théories en sciences sociales**, www.implications-philosophiques.org/.../passeron-et-le-pluralisme-irreductible-des-théories-en-sciences-sociales
- Saitta L. and Zucker J.-D., **Abstraction in Artificial Intelligence and Complex Systems**, 11 DOI, Springer Science+Business Media, New York, 2013
- Sluková Petra Zia, **Communication of Information**, Prague, Charles University, Institute of Information Studies and Librarianship, www.informacniveda.cz/.../1172_Modul%20Communication%20o..

- Tracy James F., **La fondation Rockefeller et les débuts de la recherche sur la guerre psychologique**, triangle.eklablog.com/la-fondation-rockefeller-et-les-debuts-de-la-recherche-sur-la- guerre psychologique
- Trudel Dominique, **Théorie critique et histoire de la communication: la théorie critique de Max Horkheimer comme critique de la philosophie bourgeoise de l'histoire**, COMMPOSITE 17(2), 2014, www.commposite.org/index.php/revue/article/view/202
- Vandenberghe Frédéric, **Regis Debray and Mediation Studies, or How Does an Idea Become a Material Force?** Thesis Eleven, Number 89, SAGE Publications (Los Angeles, London, New Delhi and Singapore), May 2007, https://philpapers.org/rec/VANRDA-2
- Zangerlu Martine, **Un modèle d'élaboration du sens en système de contextualisation. Une interprétation du processus de professionnalisation par altération identitaire**, Article mis en ligne le 7 octobre 2003, https ://lesenjeux.univ-grenoble-alpes.fr/2003/Zangerlu/Zangerlu.pdf

د. لمياء مرتاض نفوسي

إشكاليّة التنظير في العلوم الإنسانيّة



دار المناهج للنشر والتوزيع

Dar Al-Manahej for Publishing & Distribution

عمـــان- وسط البلد - ش الملك الحسين

Tel: +962 6 4650624 هاتف :٤٦٥٠٦٢٤

manahej9@hotmail.com



